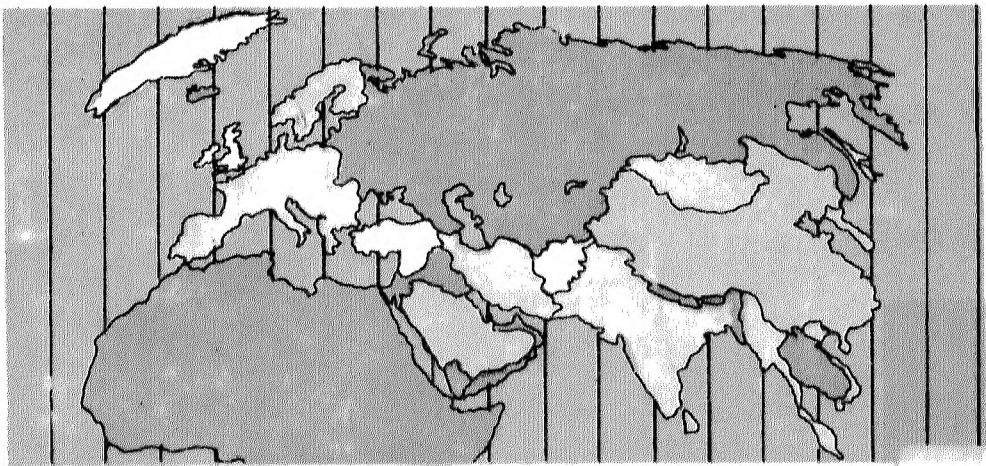


الدكتور نفولا زياره
أستاذ التاريخ العربي الحديث

الجغرافيه والرحلات عند العرب



دار الكتاب اللبنانيه - دار الكتاب المصري



الجغرافيه والرحلات عند العرب

الجغرافيت والرحلات عند العرب

الدكتور نقولا زباديه

أستاذ التاريخ العرّبي الحديث
الجامعة الاميركيّة في بيروت

الشركة العالمية للكتاب

دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب العالمي



الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل.

طباعة - نشر - توزيع

دار الكتاب اللبناني
دار الكتاب العالمي
دار الكتاب الإسلامي
دار الكتاب العربي
دار الكتاب الإفريقي

الإدارة العامة

الطبعة - مستأجر الادارة اللبنانية
هاتف ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠ - ص ب ٣١٧٦
تلغراف LE ٢٢٨٦٥ - بيروت، لبنان
بستول - لبنان

المستودعات

هاتف ٢٥١٤٢٢



جميع الحقوق محفوظة

الى زوجتي

وفاء لحبها وتشجيعها لي وصبرها عليّ

بيروت - تموز ١٩٦٢

محتويات الكتاب

ص	القسم الاول
١٤٣ - ٩	العرب والجغرافية
١١	الفصل الاول - مقدمة
١٧	الفصل الثاني - المدرسة اليونانية العربية
٣١	الفصل الثالث - المدرسة العربية
٥٠	الفصل الرابع - المقدسي
٦١	الفصل الخامس - المعاجم الجغرافية
٩٤	الفصل السادس - الموسوعات
١٣٠	الفصل السابع - تونس وجغرافيو العرب
١٣٥	الفصل الثامن - السند وجغرافيو العرب

	القسم الثاني
٢١١ - ١٤٥	ادب الرحلة عند العرب
١٤٧	الفصل التاسع - طلائع الرحالين
١٥٢	الفصل العاشر - المسعودي
١٥٨	الفصل الحادي عشر - رحالون من المشرق

ص

١٦٧	الفصل الثاني عشر - رحالة من المغرب
١٨١	الفصل الثالث عشر - رحالة عالم
١٨٧	الفصل الرابع عشر - شيخ الرحالين
١٩٥	الفصل الخامس عشر - ابن فضلان
٢٠٠	الفصل السادس عشر - التجاني التونسي

القسم الثالث

٢٤٧ - ٢١٣ تجارة الخليج العربي

٢١٥	الفصل السابع عشر - طريق البخور وطريق الحرير
٢٢٣	الفصل الثامن عشر - الخليج العربي وتجارته
٢٣٠	الفصل التاسع عشر - الخليج العربي ورحالو العصور الوسطى
٢٣٩	الفصل العشرون - الخليج العربي والرحالون الاوربيون
٢٤٩	فهرس المجدي



القِسْمُ الْأَوَّلُ

العَرَبُ وَالجغرافِية

الفصل الأول

مقدمة

عندما نحاول تقرّي ما عرفه العرب عن الجغرافية نجد شيئاً لا يستهان به يرجع الى ما قبل الاسلام وخاصة عن الانواء . وهذه المعرفة سببها الاصلي هذا الاهتمام بالتجارة البحرية والبرية التي كان العرب يمارسونها بكثرة . ومع ان الذي وصلنا من هذه المعلومات قليل من حيث نوعه ، فما لا ريب فيه ان كمية اكبر من تجارب العرب واختباراتهم البحرية والبرية فيما يتعلق بالرياح والامطار اصبح جزءاً من التراث الجغرافي العملي لمن اتصل بهم ، كما ان بعض الذي عرفوه هم كان جزءاً من التراث الجغرافي العملي لمن سبقهم .

وبعد الفتوح العربية الاسلامية ، ولما اصبح الاهتمام بالرقعة المفتوحة جزءاً هاماً من العمل الاداري للدولة ، صار وصف الاقاليم والعناية بها جزءاً من اخبار الفتوح والمغازي والتنظيم . ثم جاء دور الاهتمام بالمنطقة من حيث ثرونها ومقدرتها على دفع الضرائب . وهنا نجد اول استقلال لما يصح ان يسمى الجغرافية الادارية او السياسية عن الفتوح والمغازي واخبارها . هذه الجغرافية الادارية تبدو واضحة في كتاب « المسالك والممالك » الذي وضعه ابن خردادبه في اواسط

القرن الثالث للهجرة (القرن التاسع للميلاد) وفي كتاب « الخراج وصناعة الكتابة »
لقدامة بن جعفر . فالاول يمكن اعتباره تقريراً عن جباية المملكة العباسية كما
يمكن ان نجد في الثاني وصفاً للطرق والمسافات وتقديراً لجباية الدولة .

وباستقرار الدولة وكثرة تنقل الحجاج والتجار واهل العلم والرحالين ،
واهتمام الكثرة من هؤلاء بتدوين ما يرون ويشهدون ويسمعون ، اخذت العناية
بالجغرافية تتبلور حول دراسة الاقاليم والمناطق دراسة وافية ، مع كثير من
التحرر من القيود السابقة . وصارت المعرفة الجغرافية بنفسها هي الاصل .

ويمكن القول بأن هذه الفترة اي اي القرن الرابع (العاشر للميلاد) تمثل
دور النضج في الجغرافية العربية . وقد استمر هذا فيما بعد لمدة لا يستهان بها .
ونلاحظ أربعة اتجاهات او تطورات في التأليف الجغرافي العربي^١ . الاول العناية
الشديدة باقطار العالم الاسلامي على ما يبدو من كتابات البلخي والاصطخري
وابن حوقل والمقدسي^٢ . والثاني نوع من التخصص في قطر واحد فاهمندانى وضع
« صفة جزيرة العرب » والبيروني كتب عن الهند وابن فضلان وصف بلغار
الغولغا . والاتجاه الثالث هو وضع المعاجم الجغرافية ، وهذا شيء بدأ في القرن
الخامس (الحادي عشر) فالبكري وصف معجبه بقوله « هذا معجم ما استعجم
ذكرت فيه جملة ما ورد في الحديث والخبار والتواريخ والاشعار من المنازل
والديار والقرى والامصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات منسوبة

١ - راجع للمؤلف « رواد الشرق العربي في القرون الوسطى » القاهرة ، المكتف ، ١٩٤٣ ،
ص ٥٦ - ٦٢ ، وللمؤلف ايضاً « الرحالة العرب » ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥٦ ، ص ٣٧ .

٢ - المقدسي ، شمس الدين « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ليدن ، بريل ، ١٩٠٦ ص ١
و ٤٣ والاصطخري ، ابي اسحق ابراهيم « مسائل الممالك » ليدن ، بريل ١٩٢٨ ص ٢ و ١٢
وابن حوقل ، ابو القاسم محمد « صورة الارض » ليدن ، بريل ، ١٩٣٨ ص ٥ . راجع ايضاً
لقدامة بن جعفر « نبد من كتاب الخراج » ليدن ١٨٨٩ ص ٢٣٤ .

محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة^١ . وكتاب ياقوت الحموي «معجم البلدان» خزانة ادب وعلم واخبار وتاريخ وجغرافية^٢ . ونلاحظ الاتجاه الرابع في هذه الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن (الرابع عشر)، من نوع «نهاية الارب» للنويري و«صبح الاعشى» للقلقشندي و«مسالك الابصار» لابن فضل الله العمري وغيرها . هذه الكتب اعتلت بما يصح ان يسمى الجغرافية الاجتماعية السياسية الاقتصادية اي بشؤون العمران عامة . والذي يقرأ بعض فصول هذه الموسوعات يرى الى أي حد اهتم المؤلفون بجمع معلوماتهم ومتابعة التطور في الاقطار المختلفة على ترتيب زمني .

والكتابة الجغرافية في هذه الفترة الطويلة تبدو لها ميزات واضحة . فمن ذلك اعتمادها على المشاهدة الشخصية والحس . ومن ذلك عنايتها بالمسالك والطرق والمسافات ومن ذلك ندرة الاحصاءات^٣ عند الجغرافيين ان لم نقل انعدامها . فالمشاهدة والمعرفة الشخصية المباشرة يقول ابن حوقل عنها «واعاني على تأليفه [تأليف كتابه] تواصل السفر وانزعاجي عن وطني ... الى ان سلكت وجه الارض باجمعه في طولها وقطعت وتر الشمس على ظهرها»^٤ والإصطخري

١ - البكري ، عبدالله بن عبد العزيز «معجم ما استمعهم» ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٥ ص ١ .

٢ - زيدان ، جرجي «تاريخ آداب اللغة العربية» الجزء الثالث ، القاهرة ، مطبعة الهلال ،

١٩١٣ ، ص ٨٩ للمؤلف «رواد الشرق العربي» ص ٥٧ «الرحالة العرب» ص ٣٧ - ٣٨ .

٣ - راجع متز ، آدم ، «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري» ، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ ، ج ٢ من الترجمة العربية ص ٢٢٥ وما بعدها . «واخيراً ظهرت طريقة ساذجة في الاحصاء فقد ذكر ابن حوقل مرة واحدة ان بمدينة بلرم قسبة صقلية ما يزيد عن مائة وخمسين حانوتاً للصبايين ، واراد ان يتخذ من ذلك دليلاً على كثرة عدد اهلها» . ابن حوقل ص ١١٩ .

٤ - ابن حوقل ، «صورة الارض» ، ص ٣ - ٤ .

يقول « ذكرت في كتابي هذا اقاليم الارض على الممالك وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها ... »^١

وقد نقل الخلف عن السلف في الكثير من الاحيان . فالبعض ذكر ذلك ، والبعض الآخر سكت عنه . وقد حذر المقدسي قراءه انه « لم ينقل عن احد » ولكنه خبر ودون وكتب . وقد انتقد المقدسي كتب من سبقه من الجغرافيين^٢ . وهنا نلاحظ المقدسي الجغرافي العالم الدقيق الذي يريد أن يكون البحث مبنيًا دائمًا على الدرس والاختبار منظمًا مبوبًا وافيًا بحيث لا يخلط بين جد العالم وهزل الهازل . ولما جاء ابو الفدا تناول في مقدمة كتابه « تقويم البلدان » من تقدمه من الجغرافيين بالنقد . فظهر ان ابن حوقل والادريسي وابن خردادبه لم يحققوا الاسماء ، وغيرهم لم يحقق الاطوال . اما هو فقد جمع بين التحقيق في الاسماء والاطوال^٣ . والواقع ان كتابه يصح ان يعتبر تاريخًا انتقاديًا للكتابة الجغرافية العربية الى عصره (القرن الثامن للهجرة) .

وثمة مؤلف جغرافي آخر حري بالالتفات ، ذلك هو الادريسي صاحب كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . كتب هذا الكتاب بالعربية في صقلية في بلاط ملكها روجر الثاني سنة ١١٥٤ م ، وصاحبه لم يزر جميع الممالك الاسلامية الشرقية لكنه كتب عنها مما حصل عليه من كتب الرحلات ورسائل الزوار .

والادريسي يمثل مدرسة جغرافية خاصة ، هي التي سماها ميلر المدرسة العربية النورمانية^٤ . فقد كان بلاط روجر الثاني ملتقى الحضارتين وموئلا للحرية

١ - الإصطخري ص ٢ .

٢ - المقدسي ، ص ٤ - ٥ .

٣ - راجع للمؤلف « رواد الشرق العربي » ص ٦٠ .

٤ - Miller, Konrad, Mappae Arabica, Stuttgart, Erster Band -
Erster Heft, 1926 pp. 24-25.

العلمية في القرن الثاني عشر الميلادي . والخرائط التي رسمها الادريسي كانت ذات أثر كبير في تصوير الدنيا للاروبيين مدة طويلة بعد عصره .

ويمكن القول اجمالاً بان الجغرافيين من العرب عرفوا قومهم ومن جاء بعدهم في الشرق والغرب بالعالم الاسلامي خاصة . وقد وقف الابتكار العربي في الجغرافية أيام الادريسي ، اذ لم يقم بعده من جاء بجديد سوى الرحالين . ويحذر الاشارة هنا الى ان مؤرخي الابحاث الجغرافية متفقون على ان فضل العرب على الفلك كان عظيماً جداً .

وكانت الرحلة عنصراً قوياً في حياة المجتمع الاسلامي في عصوره الزاهرة . فقد رحل الناس لزيارة مهبط الوحي ، ولقوا في سبيل ذلك الكثير من صعوبات السفر التي تحملوها راضين مسرورين . ورحل الناس في طلب العلم من قطرا الى آخر . فقد كان العلم منتشرة مراكزه في انحاء العالم الاسلامي ، وطلابه كانوا يتحملون من المشاق في سبيل الحصول عليه ما يحملنا على احترامهم واجلالهم . ورحل القوم في سبيل الاتجار ، فقد كانت الاسواق الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها مرتبطة ببعضها البعض كل الارتباط ، وكان التجار يحملون متاجرهم وسلمهم الى حيث يرجون الربح الوفير . اصف الى كل ذلك رحلة الرسل المترددين بين الملوك والامراء ، والمغامرين الواجدين في الرحيل لذة خاصة ، والساعين في سبيل الرزق اذا ضاقت بهم ارضهم ، وجوابي الآفاق . كل هذه نماذج من الرحلة عرفها العرب والمسلمون . وقد شجعهم على الاستزادة منها خضوع العالم الاسلامي برقعته الواسعة لدولة واحدة بادية الامر . فلما ذهبت الوحدة السياسية ، بقيت وحدة الدين ووحدة اللغة وهاتان ربطتا الحجاج وطلاب العلم ورسل السلاطين وحمل البضائع وزعماء الصنائع فاحتفظوا بالصلة . بل لعل الرحلة كانت اقوى في عهد التفريق السياسي منها قبلاً لاعتماد العالم الاسلامي درجة من المعيشة ، ونوعاً من الحياة ولونا من التفكير تحتم على افراده الاتصال والاتجار والتبادل الفكري والادبي .

وقد دون كثير من رحالي العرب اخبار اسفارهم وتنقلهم ، فذكروا المدن التي هبطوها والمسافات التي اجتازوها والصعوبات التي تغلبوا عليها ، ووصفوا البلاد وزرعها ، وقيدوا مشاهداتهم عن صناعتها وتجارتها ، واتوا على وصف حياة السكان فعرضوا للطيب من عاداتهم بالمديح ، وعابوا ما فيهم من ضعف ، كالذي انتقده ابن جبير من عادة أهل دمشق في تحيتهم وصفة سلامهم ، فقال عنهم « وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام كنا عهدناه لقينات النساء ... فيا عجباً هؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الرجال . »^١

وهذه اللفتات التي نعثر عليها في مذكرات السائح هي التي تميزه من الكتاب الجغرافي . فهذا يسأل ويستقصي ويحقق ويحاول ان يشمل كل جزء من المنطقة التي يعرض لدرسها . اما الرحالة فينقل ما يشاهد ، وتكون صورته جزئية ، ولكنها ثمينة في هذه الناحية . فبينما يذكر المقدسي أو أبو الفدا كل شيء عن إقليم الشام ، نجد ان ابن جبير - وهو سائح - لا يتناول مدن الغور ابدأ لأنه لم يصل اليها ، وابن بطوطة يذكر فلسطين وخاناتها واماكن المكس والتفتيش فيها لأنه جاء البلاد برأ من مصر .



١ - ابن جبير ، أبو الحسن محمد ، « رحلة ابن جبير » لندن ، بريل ، ١٩٠٧ ص ٢٩٦ .

الفصل الثاني

المدرسة اليونانية العربية

في المكتبة العربية ما لا يقل عن اربعين كتاباً من امهات الكتب تبحث في الجغرافية، وهو تراث ضخم . ونحن نستطيع ان نتتبع تاريخ التأليف الجغرافي في اللغة العربية في ادواره الاولى ، فنجد ان مجموعة الجغرافيين الذين كتبوا في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) كانوا متأثرين الى درجة كبيرة بالمعرفة اليونانية الرومانية . واذا جاز لنا تسمية هذه المجموعة من النتاج الجغرافي لسميناها الجغرافية اليونانية مترجمة او معربة .

ويمثل هذه المدرسة ابن خردادبه صاحب « المسالك والممالك » ، واليعقوبي مؤلف « كتاب البلدان » ، وابن رسته واضع « الاعلاق النفيسة » ، والخوازمي الذي ألّف « كتاب صورة الارض » ، وابن الفقيه وقد وضع « كتاب البلدان » ، والكندي مؤلف « رسم المعمور من الأرض » ، وقدامة بن جعفر وهو الذي خلف لنا « كتاب الخراج » . وقد أخذ هؤلاء المعرفة الجغرافية اما عن اليونان رأساً او عن الترجمات او الخلاصات السريانية والارمنية . وعندما نقول المعرفة الجغرافية اليونانية فاننا نعني بطليموس وآراءه الجغرافية . والذي نعرفه هو ان

الجغرافيين العرب لم يتركوا لنا ترجمة كاملة لجغرافية بطليموس ، ولكن الخوارزمي الفلكي خلف لنا خلاصة له عملها سنة ٨٣٠ م .

ويتضح أثر بطليموس في جغرافي هذه المدرسة في امرين اثنين بشكل خاص اما الاول فاخذ الاطوال والعروض والمواقع عنه . واما الأمر الثاني فهو ان هؤلاء الجغرافيين قبلوا بتقسيم العالم الى سبعة اقسام على ما قسمه بطليموس . وكتاب الكندي المسمى « رسم المعمور من الارض » هو في الواقع اقتباس لبطليموس .

وقد كان الخوارزمي معاصراً للخليفة المأمون . وكتاب « صورة الارض » وضع اما في اواخر عهد هذا الخليفة العالم او في عهد خليفته المعتصم على ما يرى بارتولد . والخوارزمي يورد في كتابه الاسماء القديمة والحديثة (اي المعاصرة له) بما يدل دلالة واضحة على اهتمامه ببطليموس وتأثره به . والخرط التي رسمها الخوارزمي هي في الواقع تعريب لخرط بطليموس . وقد كان هذا طبيعياً بالنسبة الى مؤلفين كان ذلك اول عهدهم بالاتصال بمثل هذا النوع من المعرفة . وقد اشترك هذا العالم في وضع الخرط التي طلبها المأمون للارض .

والكندي (تو ٨٧٣/٢٦٠) كان معاصراً للخوارزمي في اواخر ايامه ، ومع ان شهرة الكندي تعود الى انه فيلسوف ، فقد اعتنى بالجغرافية والذي يجب ان نذكره دوماً ان العلماء والفلاسفة في تلك العصور كانوا ينظرون الى المعرفة نظرة الوحدة ، ولذلك فليس من غرابة في ان يضع الفيلسوف كتاباً في الجغرافية .

وابن خردادبه فارسي الأصل بغدادى النشأة ، وقد تولى ادارة البريد في الجبال . وقد وضع كتابه « المسالك والممالك » في اواسط القرن التاسع الميلادي . وينتسب اليعقوبي الى العباسيين . وقد تنقل في ديار الاسلام بحيث قضى

سنوات طويلة في اسفاره ، وعاد الى بغداد حيث توفي (١٨٩٧/٢٨٤) . وقد كان حريصاً على تدوين ملاحظات عن الجغرافية الطبيعية وعن المجتمعات التي تعرف اليها . لذلك يمكن اعتباره من اوائل الذين اهتموا بالجغرافية البشرية . واليعقوبي شديد التعلق ببغداد ، بحيث بدأ كتابه بوصفها .

يحدثنا المؤلف عن نفسه فيقول «اني عنيت في عنفوان شبائي... بعلم اخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لاني سافرت حديث السن واتصلت اسفاري ودام تغريي . فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ... وبلده ... وزرعه ... »^١ وعندما يصف بغداد يقول « وانما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الارض ، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ومغارها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء . »^٢ فاذا انتهى من ذلك رجع الى تقسيم بطليموس في عرضه للعالم فتحدث عن الربع الأول بلداً بلداً وهكذا حتى يأتي على وصف العالم المعروف .

وقد وضع ابن رسته موسوعته «الاعلاق النفيسة» وخص الجغرافية بمجزء منها (هو الجزء السابع) . وكان ذلك في اواخر القرن الثالث للهجرة (حول ٩٠٠م) وقد اهتم بالنواحي الفلكية . ومن هنا نجد اثر بطليموس عنده اوضح منه عند غيره . فالاقسام الاولى من الكتاب الأرض وعلاقتها بالفضاء وخطوط الزوال والاجرام وتقسيم هيئة الأرض وما الى ذلك من الموضوعات بطليموسية لهما ودماً .

فاذا فرغ من ذلك انتقل الى المدن والممالك يصفها ويجمع اخبارها . وهو في ذلك مثل غيره من الجغرافيين في تلك الفترة ، يجمع بين الحقائق وبعض

١ - اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب « كتاب البلدان » لندن ، بريل ١٨٩١ ص ٢٣٢ .

٢ - نفس المكان ص ٢٣٣ .

الأساطير . لكن معرفته ، مثل معرفتهم ، غزيرة ، وكثير منها مبني على المشاهدة .

وقد وضع ابن رسته كتابه وهو مقيم باصفهان ولذلك فاننا ننقل وصفه لهذه المدينة . يقول « سألت ان اصف لك اصفهان وتربتها وهواءها وطيبها وسقيها واحوالها وسائر اسبابها التي تبين بها من سائر البلدان الموصوفة فضائلها المذكورة عجائبها ، اذ كنت من اهلها . وكان ما اودعته كتابي من ذكر غيرها من البلدان انما هو عن خبر قد يصح ويسقم وحكايات احتجت الى التعويل فيها على تقليد من لعل الضرورة دعت الى تعديله وقبول قوله ، اذ كانت احاطتي بعلم احوال ما ذكرت من البلدان ومسافات ما بينها وعجائبها وتفاضل بعضها على بعض وما لها من الخاصيات متعذرة علي ، وعلى كل من حاول ما قصدت له ، ولم يكن لأحد ان يطالبني به . واذ كان ما انعت به اصفهان انما هو عن عيان او حكاية عن لا يقدر فيها على تزييد لأن العمل فيه لا يكون على قول واحد وليس بمتعذر ان يتعرف المشكوك فيه بجماعة لا يتفق اقاويلهم على غير حق ، وانا اذكر من امرها جملة موجزة اقتصر عليها لما اخشاه من تطويل الكتاب وارجو ان يكون ما اورده مقنعاً ان شاء الله .

« اصفهان كورة واسعة الرقعة قد اجمع الناس على انها ثمانون فرسخاً في مثلها ومن قصبتها الى كورة شيراز من بلاد فارس ثمانون فرسخاً ليس في ذلك اختلاف بين احد من السابلة والتجار الذين يكثر اختلافهم .

« ... وتربتها اصح التراب تبقى بها الثار سنة مثل العنب على رقعة قشره والصيني مع كثرة مائه والتفاح والسفرجل والرمان حتى يجمع فيها بين العتيق والجديد منها ، وتبقى بعد ذلك ايضاً مدة . ويقال انه اذا بلغ ما يجلب من تفاحها وسفرجلها الى بغداد النهران اشتم روائحها في القصبة واستقبل وابتيع . ثم بها معادن الفضة الا أنها في هذا الوقت مهجورة لا يعمل فيها وآثار العمل الذي كان يعمل فيها قائمة من آبار محفورة كان يستخرج منها الجوهر ، ومعادن

ظاهرة ومواضع مضارب كانت مضروبة وأواري وآثار للمواضع المسكونة ومن
اماكن للسبك وما كان يحتاج اليه في استخراج الفضة من الحجر وتخلصها منه ،
كل ذلك قائم بين ظاهر . وكان العمل فيها قائماً حتى جاء الله بالاسلام وكان اهلها
مجوساً فأخذوا بالجزى ولم يكونوا عهدوها فشغلوا عن العمل فيها فتمطلت . وبها
معدن الصفر وعليه للسلطان خراج عشرة آلاف درهم . وبها معدن الاثمد الفائق
الذي يجلب الى الآفاق وكذلك التوتيا .^١

ابن خردادبه — المسالك والممالك

صفة الأرض

قال ابو القاسم ابن خردادبه « صفة الارض انها مدورة كتدوير الكرة
موضوعة في جوف الفلك كاللحة في جوف البيضة والنسيم حول الارض وهو
جاذب لها ومن جميع جوانبها الى الفلك . وبنية الخلق على الأرض ان النسيم
جاذب لما في أبدانهم من الخفة والارض جاذبة لما في في أبدانهم من الثقل ، لأن
الارض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد ، والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط
الاستواء وهو من المشرق الى المغرب . وهذا طول الأرض وهو اكبر خط في
كرة الأرض كما ان منطقة البروج اكبر خط في الفلك وعرض الارض من القطب
الجنوبي الذي يدور حوله سهيل الى القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش .
فاستدارة الارض في موضع خط الاستواء ثلثائة وستون درجة والدرجة خمسة
وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع والذراع اربع وعشرون اصبعاً
والاصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها الى بعض يكون ذلك تسعين

١ - ابن رسته ، ابن علي احمد بن عمر « كتاب الاعلاق النفيسة » ، لندن ، بريل ، ١٨٩١

س ١٥١ - ١٥٦ .

آلاف فرسخ . وبين خط الاستواء وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة
اصطرابية واستدارتها عرضاً مثل ذلك . الا ان العماره في الارض بعد خط الاستواء
اربع وعشرون درجة ثم الباقي قد غمره البحر الكبير . فنحن على الربع الشمالي
من الأرض والربع الجنوبي خراب لشدة الحر فيه والنصف الذي تحتنا لا ساكن
فيه ، وكل ربع من الشمالي والجنوبي سبعة اقاليم . وذكر بطليموس في كتابه ان
مدن الارض على عهده كانت اربعة آلاف ومائتي مدينة .^١

المسافة الى المشرق من البصرة في البحر

« من البصرة الى عبادان اثنا عشر فرسخاً ، ثم الى الخشبات فرسخان ثم تصير
الى البحر فشطه الايمن للعرب وشطه الايسر لفارس وعرضه سبعون فرسخاً
وفيه جبلا كبير وعوير وعمقه سبعون باعاً الى ثمانين باعاً . ومن الخشبات الى
مدينة البحرين في شط العرب سبعون فرسخاً واهلها نصوص يقطعون على
المراكب ولا زرع لهم ولهم نخل وابل قال اعرابي :

رمى به في موحش القفار بساحل البحرين للصغار

ومنها الى الدردور مائة وخمسون فرسخاً ثم الى عمان خمسون فرسخاً ، ثم
الى الشحر مائتا فرسخ . ومن الشحر الى عدن مائة فرسخ وهي من المراقي العظام
ولا زرع بها ولا ضرع وبها العنبر والعود والمسك ومتاع السند والهند والصين
والزنج والحبشة وفارس والبصرة وجدة والقلم . وهذا البحر هو البحر الشرقي
الكبير ويخرج منه العنبر الجيد وعليه الزنج والحبشة وفارس وفيه سمك طول
السمكة مائة باع ومائتا باع ، يخاف منها على السفن فتتفرق بضرب الخشب على

١ - ابن خردادبه ، « المسالك والممالك » لندن ، بريل ، ١٨٨٨ ص ٤ - ٥ .

الخشب . وفيه سمك مقدار الذراع يطير ، وجوهه كوجوه البوم ، وفيه سمك طول السمكة عشرون ذراعاً في جوفها مثلها وفي الاخرى مثلها الى اربع سمكات ، وفيه سلاحف استدارة السلحفاة عشرون ذراعاً وفي بطنها مقدار الف بيضة وظهورها الذبل الجيد . وفيه سمك على خلقة الجمال ، وفيه طير تجمع من قذى البحر عند سكونه فتبيض وتفرخ على وجه الماء لا تخرج الى الارض.^١

الطريق الى المدينة

« فمن اخذ على المدينة فمن المعدن الى العسيلة فيها آبار مالحة ستة واربعون ميلاً ، ثم الى بطن نخل كثيرة الماء ستة وثلاثون ميلاً ، ثم الى الطرف فيها ماء السماء اثنان وعشرون ميلاً ، ثم الى المدينة وهي طيبة خمسة وثلاثون ميلاً ، قال صرمة الانصاري :

قلنا اتانا اظهر الله دينه واصبح مسروراً بطيبة راضياً

وقال العباس بن الفضل العلوي :

وعلى طيبة التي بارك الله عليها لخاتم المرسلينا

« ويقال لها يثرب ايضاً وكان عليها وعلى تهامة في الجاهلية عامل من قبل مرزبان البادية يجبي خراجها وكانت قريظة والنضير ملوكاً ملكوها على المدينة على الأوس والخزرج وفي ذلك يقول شاعر الانصار :

تؤدي الخرج بعد خراج كسرى وخرج من قريظة والنضير^٢ »

١ - - لئس المكان ص ٦٠ - ٦١ .

٢ - - لئس المكان ص ١٢٨ .

مسلك التجار اليهود الرافضية

« الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندرلسية والصقلبية وانهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برأ وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والعلماء والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف . ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر الى القازم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً . ثم يركبون البحر الشرقي من القازم الى الجار وجدة ، ثم يمضون الى السند والهند والصين . فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا الى القازم ، ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون في البحر الغربي . فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك . وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسيروا على الارض ثلث مراحل الى الجابية ثم يركبون في الفرات الى بغداد ثم يركبون في دجلة الى الابلّة ومن الابلّة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل ببعضه ببعض . »^١

من عجائب البلدان

« وفي بلاد الروم على بحر الخزر بلاد تدعى المستطلة ، المطر بها دائم الشتاء والصيف لا يقدر أهلها على دياس زروعهم وتذريتها ، وانما يجمعونها في البيوت في السبل فيخرجون منها بقدر حاجتهم فيفركونه بالأيدي ثم يطحن ويخبز في

١ - نفس المكان من ١٥٣ - ١٥٤ .

بلادهم بزاة كثيرة في كثرة الغربان عندنا انما هي اقاطيع وليس يقدرّون مع كثرتها على اتخاذ الدجاج .

واهل الحجاز واليمن يمتطرون الصيف كله ويخصّبون في الشتاء فمطر صنعاء وما والاها حزينان وتموز وآب وبعض ايلول من الزوال الى المغرب. يلقي الرجل الرجل نصف النهار فيكلمه فيقول عجل قبل الغيث لانه لا بد من المطر في هذه الايام . ١

اليعقوبي — كتاب البلدان

طريق مكة من مصر

« ومن اراد الحج من مصر وخرج من مصر الى مكة فاوّل منزل يقال له جب عميرة، به يجتمع الحاج يوم خروجهم، ثم منزل يقال له القرقرة في صحراء لاماء بها ثم منزل يقال له عجرود به بئر قديمة بعيدة الرشاء زعقة الماء ثم الى جسر القلزم . فمن اراد ان يدخل مدينة القلزم وهي مدينة على ساحل البحر عظيمة فيها التجار الذين يجيئون الميرة من مصر الى الحجاز والى اليمن وبها مرسى المراكب واهلها اخلاط من الناس، تجارها اهل يسار . ومن القلزم ينزل الناس في برية وصحراء ست مراحل الى ايلة ويتزودون الماء لهذه الست المراحل ومدينة ايلة مدينة جليلة على ساحل البحر المالح وبها يجتمع حاج الشام وحاج مصر والمغرب وبها التجارات الكثيرة واهلها اخلاط من الناس وبها قوم يذكرون انهم موالي عثمان ابن عفان وبها برد حبرة يقال انه برد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال انه وهبه لرؤبة بن يحنه لما صار الى تبوك ومن ايلة الى شرف البعل ومن شرف البعل الى مدين وهي مدينة قديمة عامرة بها العيون الكثيرة والانهار المطردة العذبة

والاجنة والبساتين والنخل واهلها اخلاط من الناس ، ومن اراد ان يخرج منها الى مكة اخذ على ساحل البحر المالح الى موضع يقال له عينونا فيه عمارة ونخل وبه مطالب يطلب الناس فيها الذهب ثم الى العونيد وهي مثلها ثم الى الصلا ثم الى النبك ثم الى القصيبة ثم الى البحرة ثم الى المغيثة وهي تبعل ثم الى ظبة ثم الى الوجه ثم الى منخوس وبمنخوس غاصة يخرجون اللؤلؤ ثم الى الحوراء ثم الى الجار ثم الى الجحفة ثم الى قديد ثم الى عسفان ثم الى بطن مر ومن اراد ان يسلك على طريق مدينة الرسول (صلعم) اخذ من مدين الى منزل يقال له اغراء ثم الى قالس ثم الى شغب ثم الى بدا ثم الى السقيا ثم الى ذي المروة ثم الى ذي خشب ثم الى المدينة فهذه المنازل من مصر الى مكة المدينة .^١

ابن رسته — الاعلاق النفيسة

صفة مدينة صنعاء

«هي مدينة اليمن ليس باليمن ولا بتهامة ولا بالحجاز مدينة اعظم منها ولا اكثر اهلاً وخيراً ولا اشرف اصلاً ولا اطيب طعاماً منها وهي مدينة جبلية برية معتدلة الهواء يعدل طيب هوائها في جميع السنة هواء ربيعياً في السنة اذا اعتدلت وطابت ويفرش الفراش الواحد في مكان فلا يحول من ذلك المكان لحر ولا برد سنين كثيرة وتذكر عندهم الحنطة دفعتين والشعير والارز ثلاث دفعات وأربعاً ومن ثمارهم وعنبهم ما يدرك في السنة دفعتين ايضاً وهي مدينة كثيرة الاهل طيبة المنازل بعضها فوق بعض الا انها مزوقة اكثرها بالحص والآجر والحجارة المهندمة منها ما اساسها من الحص والآجر وسائر حجارة مهندمة حسنة وبعض ارضي بنائها الحص والآجر وبعضها بالحص واكثر سطوحها مفروشة

١ - اليعقوبي ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

بالحصول لكثرة أمطارها ولا مظاهرها اوقات معلومة عندهم علامات لذلك لا يخططون ويمطرون في شهور الصيف شهراً واحداً ومن الحريف تمام اربعة اشهر ثم تنقطع الامطار عندهم فلا يمطرون اصلاً الى مثل ذلك الوقت من العام الآخر واكثر ابتداء مطرهم في الوقت الذي يمطرون فيه بعيد العصر وربما تكون السماء نقية ولا يرى للمطر علامة والناس تحت بعضهم بعضاً على الفراغ من اعمالهم حذراً من المطر فينشئ السحاب مع فراغهم فيمطرون اكثره من وقت العصر الى وقت المغرب فيجرف السيل جميع ما يكون فيها من القذى ويغسل تلك الكورة بأسرها ويجري ذلك الماء الى مزارعهم في مجار قد اتخذوها لهذا الامر لا يتعطل معه شيء من هذه المياه ، ولم يكن لهم سور في القديم وحدث ذلك بعد فتنة ابن يعقر ملكهم ولدينتهم شارع يشقها بنصفين وينفذ الى واد يجري فيه السيول ايام المطر في عرض دجلة او اقل منها ويسمى السرار وعلى ضفتيه قصور مبنية من الجص والآجر والحجارة وعامة هذه القصور للرباغين واليه ايضاً ينفذ فوهة ازقتها وسوقها في ناحية مما يلي قبلتها وبعض هذا الشارع ولكل واحد من ازقتها بابان يفضي احدهما الى هذا الشارع والآخر الى سور البلد ومسجد جامعها بقرب سورها مبني من حجارة وجص وهو مسجد كبير وذكر فقهاء تلك الناحية ان هذا المسجد بني بأمر رسول الله (صلعم) بعده وان في موضع المحراب قبر نبي من الانبياء وكان يعظم ذلك قبل بناء المسجد في المتقدم من اجل ذلك وانه تولى بناءه رجل من اصحاب النبي (صلعم) ، وقبالة المسجد الجامع بالقرب منه على قدر عشر اذرع قلعة اساسها من الصخر وهي تعرف بغمدان موضع التبابعة بناها سام بن نوح . وذكر فقهاءهم انه اول بناء بني بعد الطوفان وسموها مرتفع جداً وقد نقض عامة حواشيها واستعمل ما خرج منها من الحجارة حتى قال بعضهم انه اكتفى بما خرج منها من الحجارة عن نقل الحجارة اليها من غيرها ، وفي هذه القلعة بشر يستقي منها الماء الى هذه الغاية ويقولون لها بشر سام ابن نوح ، وفيها بشر اخرى وهي البئر التي وجد فيها قتيل من المسلمين في خلافة عمر فاشترك في قتله سبعة نفر فقتلهم عمر جميعاً به وقال «لو تمالي عليه اهل صنعاء لقتلتهم به»

وهذا حديث معروف رواه سعيد ابن المسيب عن عمر وغيره عن عمر ، واذا ارتقى المرقى البلقى من بناء غمدان اشرف على جميع صنعاء ، ولمسجدها اثنتان وعشرون مؤذناً يؤذنون جميعهم في كل صلاة احدهم على اثر الآخر الا في صلاة المغرب خاصة ثم يأخذون جميعاً في الاقامة بصوت واحد وهم يمشون من المنارة الى الصف فاذا انتهوا الى الصف يكونون قد فرغوا من الاقامة ، وفي كل منزل من منازلهم بئر يستقى منها للشرب ويفضل ماء الآبار على مياه العيون الجارية عندهم ووصف فقيه منهم انه وزن ماء من آبارهم قليلاً مع مثله من ماء دجلة فوجد ماء البئر اخف من ماء دجلة ، وبقرب كل مسجد من مساجدهم الا القليل منها سقاية فيها ماء للسبيل ومغتسل ومتوضى كل مصهرج ، وفيه طاق كبير قد عقد من حجارة بقرب الجزارين ذكر اهلها انه ذبح في هذا الموضع في الزمن الاول ستة عشر نبياً ، وطعامهم البر النقي والعلس وهو شبيه بالحنطة الا انه اذق من الحنطة في سنابل لا تشبه سنابل الحنطة عليها قشرتان احدهما قشرة المسنبلية والأخرى قشرة مقاربة لقشر الارز فيقشر من قشرته ويطحن ويخبز فيوجد طعمه أطيب من طعم خبز الحنطة ، وعندهم فواكه سرية مثل انواع التفاح والبرقوق وهو المشمش والفرسك انواع وهو الخوخ ومن انواع الإجاص ما ليس بخراسان والكمثرى انواع كثيرة وعندهم على ما زعموا قريب من سبعين لوناً عنب وعندهم النخيل في قراها دون قصبتها والموز عندهم كثير في كل موضع يدرك الموز عندهم في كل اربعين يوماً يقطع ثمرته ولا ينقطع القطاف عنهم ابداً وعندهم باقل رطب وقصب سكر وجوز وفستق ورمان وتين وسفرجل وبطيخ حسن غير طيب يؤكل مع السكر والقثاء وانواع الخضر والارنج عندهم كثير كبار حلو الطعم واللوان الرياحين والورد والياسمين والنرجس والسوسن اللوان وربما وجد كلها في وقت واحد وعندهم العسل الكثير ويفضلون لحم البقر على لحم الضأن السمين يشتري جميع ذلك بسعر واحد ، ومن عندهم يحلب الادم والنعال المشجرة والانطاع والبرود المرتفعة والمصمت والاردية يبلغ الثوب من البرد عندهم خمسمائة دينار واللوان الفصوص والاواني بقرانية وسعوانية والجزع

وانواع الخرز يبلغ الفص من البقراني مائة دينار واكثر ، ولهم سوق على حدة لا يباع فيها الا المزامير قد شدوها حزمًا ونضدوها في حوانيتهم ولهم خانات كثيرة ومجال فيها خلق كثير يعملون اواني الجرز وانواع الخرز ، وليس لشيء من مساجدها رحبة الا المسجد الجامع ، ووجوههم قوم من نسل سيف بن ذي يزن في غاية السراوة والنبيل يتقدمون في ذلك وجوه سائر الكور وهم قوم يزجعون الى سخاء وكرم ، وللحوم ضأنهم وبقرهم خاصة وذلك انها لا تنضج الا على الجمر والوقود يسخنها ولا ينضجها ، وضياعهم أجل ضياع واكثرها فاكهة واحسنها عمارة وهي على ثلاثة اصناف صنف منها على العيون وصنف على الآبار يستقى منها بالإبل والبقر وصنف وهي اثراها واكثرها قيعة على ماء السد والسد سكر قد اتخذ على فوهة جبال قد احاطت بمواضع تقرب من ضياعهم قد نصبوا على اسافل ذلك السد افواهاً يجرون منها المياه في انهار قد احتفروها الى ضياعهم وكانت قراهم عشيرة قبل ولاية ابن يعفر فوظف ابن يعفر بدل ذلك عليهم مائتي الف دينار ، ومعاملة اهل البلد بالدنانير المطوقة والدرهم السديسية والفلس فضرب الدرهم ربما ارتفع من الستين الى المائة بدينار والفلس اربعة وعشرون بدرهم وزن كل درهم سدس درهم ، وعندهم قرع كبار كل قرعة مثل جرة كبيرة يباع بالامنان مقطعا وكل ما كان اكبر كان ارطب ، ونسأؤهم حرائر والناس ينتشرون في حوائجهم بالنهار ويجمعون في مجالس الفقهاء وغيرهم بعد العتمة الى وقت يضرب فيه الكوس المنصوب على غمدان فيسمع ذلك اهل البلد فمن وجد قبل صوت الكوس لم يتعرض له ومن وجد بعد ذلك خارجاً حبس وعوقب ، والغالب على عامة اهلها وعلى سائر اليمن التشيع واكثر ايمانهم ان يقولوا وحق امير المؤمنين علي ، وزعم ان من صنعاء على ستة فراسخ قلعة لابن يعفر صاحب اليمن تعرف بشبام وشبام ليس اليها طريق الا طريق واحد ضيق يرتقى اليها من جبل صعب قد نصب عليه قنطرة يعبر اليها بها وفيها قصور كثيرة تزيد على خمس مائة وقرى كثيرة تزيد على اربعين قرية فيها عيون وانهار ومزارع وبساتين ونخل ومواش لا تحصى كثرة من الابل

والدواب وغيرها وفي نفس شبام سوق عظيمة ومسجد جامع كبير وهذه القلعة
بجميع ما فيها من القرى كانت خاصة لابن يعفر هذا في خاصته وكنبار قواده
وقرابطه في هذه القلعة وعساكره نزول على اهلها وفيها مساكن ومرابض تحتل
الوفاء من الرجال والدواب وتخرقها عيون كثيرة الماء . ١٤

●

الفصل الثالث

المدرسة العربية

في القرن الرابع للهجرة (القرن العاشر الميلادي) ظهر عدد من الجغرافيين الذين أغنوا المكتبة الجغرافية في غير ناحية واحدة . ولسنا نعظم ان نتحدث عنهم جميعاً في هذه العجالة ، لذلك سنكتفي بالبارزين منهم ، وهم البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي .

والبلخي هو ابو زيد احمد بن سهل من اهل بلخ ، وقد قرأ التاريخ والفلسفة على الكندي في بغداد ، وبعد ذلك عاد الى بلده وعمل لأميرها . وكان البلخي قليل الرحلة نزر النقلة . وقيمة البلخي ليست فيما كتب من ناحية البلدان ومراحلها ، ولكن من حيث انه اول من استقل عن بطليموس . فقد وضع « كتاب الاشكال او صورة الاقاليم » ، وهو ما يصح ان يسمى بداءة الاطلس العربي ، اذ انه مجموعة من الخطوط مع شروح . ويرى الاستاذ كونراد ميلر ان الذي نعرفه الى الآن عن الجغرافية ورسم الخطوط عند العرب يؤكد لنا ان البلخي فتح فتحاً جديداً في رسم الخطوط وشرحها ، وهو « اول من استقل عن بطليموس »^١ ، وليس ذلك بالامر القليل . وقد الف البلخي ايضاً كتاب « المسالك والممالك » .

١ - Miller نفس المكان ص ١٧ .

ويقول المقدسي عنه انه قسم الارض عشرين جزءاً^١ ، وهنا يبدو الانفصال عن بطليموس .

وقد توفي البلخي سنة ٣٢٢ / ٩٣٤ ، ولعله وضع كتبه قبل وفاته بما يزيد عن السنين العشر .

في السنة التي توفي فيها البلخي وضع الاصطخري (وهو ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي) كتابه « المسالك والممالك » . ويرى المشتغلون بدراسة المؤلفين الجغرافيين عند العرب ان الاصطخري يعتمد البلخي في كتابه ، وحق في خريطه . وقد ذكر المقدسي في اثناء حديثه عن الذين سبقوه من الجغرافيين الاصطخري فقال « وما صورته ابراهيم الفارسي [من الخريط] هي اقرب الى الصحة يعتمد عليها ، وقد اخل وخلط في مواضع كثيرة . »^٢

ولعل اطراف شخصية من جغرافيي القرن الرابع (العاشر) هو ابن حوقل : ابوالقاسم محمد . والمعروف عنه انه بدأ الرحلة سنة ٩٤٢ / ٣٣١ من بغداد وعاد اليها بعد ثلث قرن ، زار خلالها ديار الاسلام من الهند الى اسبانية ، وتغلغل في مناطق اخرى كثيرة ، حق انه وصل بلاد البلغار من اعالي الفلغا . وقد قرأ كثيراً واتضل كثيراً ، فجاء كتابه « صورة الارض » يجمع بين هذه الاختبارات كلها .

وقد لقي ابن حوقل الاصطخري (سنة ٩٥١ / ٣٤٠ - ٩٥٢) فقال ان الاصطخري كان قد صنع خارطة رديئة للسند لكنه صنع خارطة جيدة لفارس فأراه ابن حوقل خارطتين من صنعه احدهما لأذربيجان والأخرى للجزيرة فمدحهما الاصطخري كثيراً ثم أن الاصطخري طلب من ابن حوقل ان يعيد النظر في كتابه كله ويحسنه . ففعل ابن حوقل ذلك^٣ . ومنذ ذلك الحين اصبح الاصطخري دليل الرحالة

١ - المقدسي ، ص ٤ .

٢ - نفس المكان ص ٦ .

٣ - ابن حوقل ، ص ٣٢٨ .

الجغرافي بعد ان كان يعتمد قدامة بن جعفر من قبل . حتى ان ابن حوقل لما
الف كتابه احتذى حذو الاصطخري ، لكن خطه كانت ادق وانفع .

وقد خلف لنا جغرافيو القرن الرابع عدداً كبيراً من الخطوط الخاصة بديار
الاسلام بلغ ٨٢ خارطة لكنها انتهت الينا في ٢٢٧ نسخة .

ونختم هذه الملححة الخاطفة عن جغرافيي القرن الرابع الهجري بوصف ابن
حوقل لبرقة وطرابلس في ليبيا .

« فاما برقة فمدينة وسطة ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزرية ، ولها
كور عامرة ، وهي في بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوماً وكسراً في مثله .
ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها . وارضها حمراء خلوقية التربة ، وثياب
اهلها ابدأ حمرة ، ويعرف اهلها بالفسطاط (بمصر) من بين أهل المغرب
بحمرة ثيابهم وتغيرهم ويطوف بها (برقة) من كل جانب منها بادية يسكنها
الطوائف من البربر . وهي برية بحرية جبلية ، ووجوه اموالها حمة . وهي اول
منبر ينزله القادم من مصر الى القيروان . وبها من التجارة ، وكثرة الغرباء في كل
وقت ما لا ينقطع طلاباً لما فيها من التجارة وعابرين عليها مغربين ومشرقيين .
وذلك انها تنفرد في التجارة بالقطران الذي ليس في كثير من النواحي كهو ،
والجلود المجلوبة للدباغ بمصر ، والتمور الواصلة اليها من جزيرة اوجلة . ولها
اسواق حادة حارة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت ، وضروب
المتاجر العائدة من المشرق ، والواردة من المغرب . وشرب أهلها من ماء المطر
بمواجن يدخر بها . واسعارها بأكثر الاوقات فائضة بالرخص في جميع الاغذية . »^١
« فاما أطرابلس فكانت قديماً من عمل أفريقية وسمعت من يذكر أن عمل
أفريقية ، لما كانت طرابلس مضافة اليها معروف معلوم ، وكان من صبرة وهي

١ ... نفس المكان ص ٦٦ - ٦٧ .

منزل من أطرابلس على يوم، وبه ضريبة على القوافل وقتنا هذا . ولم أعرفها قديماً ولا سمعت بها على الخارج من أطرابلس الى القيروان وعلى القادم من القيروان الى أطرابلس غير ما يقبضه المتولي عمل أطرابلس من كل جل ومحمل وحمل . وذلك كالذي بلبده ، وهي ايضاً قرية بينها وبين أطرابلس الى جهة المشرق مرحلتان ، من الضريبة على الجمال والاحمال والمخامل والبغال والرقيق والغنم والحير الى ما عدا ذلك من الاسباب الواردة واخذ الصدقات والخراج واللوازم والبربر المقيمين هنالك من هوار و غيرهم اليه . وهي (أطرابلس) مدينة بيضاء من الصخر الابيض على ساحل البحر ، خصبة حصينة كبيرة ذات ربض ، صالحة الاسواق كبيرة وكان لها في ربضها اسواق كبيرة فنقل السلطان بعضها الى داخل السور . وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية وارتفاعها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا ، وبها من الفواكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره كالخوخ الفرسك والكمثرى اللذين لا شبه لهما بمكان . وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع وطيقان الأكسية الفاخرة الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة . الى مراكب تحط ليلاً ونهاراً ، وترد بالتجارة على مر الاوقات والساعات صباحاً ومساءً من بلد الروم وارض المغرب بضروب الامتعة والمطاعم ، واهلها قوم مرموقون بنظافة الاعراض والثياب والاحوال ، متميزون بالتجمل في اللباس ، وحسن الصور والقصد في المعاش ، الى مروآت ظاهرة وعشرة حسنة ورحمة مستفاضة ونيات جميلة ، الى مرايا لا يفتر وعقول مستوية وصحة نية ومعاملة محمودة ومذهب في طاعة السلطان سديد ، ورباطات كثيرة ومحبة للغريب اثيرة ذائعة . ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم اهل بلد . اذا وردت المراكب ميناهم عرضت لهم دائماً الريح البحرية فيشتد الموج لانكشافه ويصعب الأرساء فيبادر اهل البلد بقواربهم وحبالهم متطوعين فيقيد المركب ويرسى به في اسرع وقت بغير كلفة لاحد ولا غرامة حية ولا اجزاء بمثقال .^{١٢}

الاصطخري — مسالك الممالك

بحر فارس

« وسنذكر بعد ديار العرب بحر فارس فانه يشتمل على اكثر حدودها وتتصل بديار العرب منه وبسائر بلدان الاسلام ونصوّره ثم نذكر جوامع مما يشتمل عليه هذا البحر ونبتدىء بالقلم على ساحله مما يلي المشرق فانه ينتهي الى أيلة ثم يطوف بمحدود ديار العرب التي ذكرناها وبينناها قبل هذا الى عبّادان ثم يقطع عرض دجلة وينتهي على الساحل الى مهروبات ثم الى جنّابة ثم يمر على سيف فارس الى سيراف ثم يمتدّ الى سواحل هرموز وراء كرمان الى الديبل وساحل الملتان وهو ساحل السند وقد انتهى حدّ بلاد الاسلام ثم ينتهي الى سواحل الهند حتى ينتهي الى سواحل التبت فيقطعها الى ارض الصين ، واذا اخذت من القلم غربيّها على ساحل البحر سرت في مفاوز من حدود مصر حتى تنتهي الى مفاوز هي للبحّة وبها معادن الذهب الى مدينة على شطّ البحر يقال لها عيذاب ثم تمتدّ على بلد الحبشة وهي محاذية لمكّة والمدينة حتى تحاذي قرب عدن ثم ينقطع الحبشة ويتصل بظهر بلد التوبة حتى ينتهي الى بلدان الزنج وهي من اوسع تلك الممالك فيمتدّ على محاذاة جميع بلدان الاسلام وقد انتهى مسافة هذا البحر ثم يعرض فيه جزائر واقاليم مختلفة الى ان يحاذي ارض الصين .

وقد صوّرت هذا البحر وذكرت حدوده مطلقة وسأصف ما يحيط به وما في اضعافه جملاً يقف عليه من قرأه ان شاء الله ، اما ما كان من هذا البحر من القلم الى ما يحاذي بطن اليمن فانه يسمى بحر القلزم ومقداره نحو ثلاثين مرحلة طولاً وعرضه اوسع ما يكون غير مسير ثلاث ليال ثم لا يزال يضيق حتى يرى من بعض جنباته الجانب الآخر حتى ينتهي الى القلزم ثم يدور على الجانب الآخر من بحر القلزم ، وبحر القلزم مثل الوادي به جبال كثيرة قد علا الماء عليها وطرق السفن بها معروفة لا يهتدى فيها الا برّبان يتخلّل بالسفينة في اضعاف تلك

الجبال بالنهار فأما بالليل فلا يسلك وماؤه صاف ترى تلك الجبال فيه ، وفي هذا البحر ما بين القازم وأيلة مكان يعرف بتاران وهو اخبث ما في هذا البحر من الاماكن وذلك انه دوّارة ماء في سفح جبل اذا وقعت الريح على ذروته انقطعت الريح على قسمين فتنزل الريح على شعبين في هذا الجبل متقابلين فتخرج الريح من كلي هذين الشعبين فتتقابل فيثور الماء وتبليد كل سفينة تقع في تلك الدوّارة باختلاف الريحين وتتلف فلا تسلم واحدة واذا كان للجنوب ادنى مهبّ فلا سبيل الى سلوكه ومقدار طوله نحو ستة اميال وهو الموضع الذي غرق فيه فرعون . وبقرب تاران موضع يعرف بحبيلات يهيج ويتلاطم امواجه باليسير من الريح وهو موضع نخوف ايضاً فلا يسلك بالصبا مغرباً وبالبدور مشرقاً . واذا حاذى أيلة ففيه سمك كثير مختلف الالوان ، واذا قابل بطن اليمن سمّي بحر عدن الى ان يجاوز عدن ثم يسمّى بحر الزنج الى ان يحاذي عمان عاطفاً على فارس وهذا بحر يعرض حتى يقال ان عبره الى بلد الزنج سبع مائة فرسخ وهو بحر مظلم اسود لا يرى مما فيه شيء وبقرب عدن معدن اللؤلؤ يخرج ما يرتفع منه الى عدن ، واذا جزت عمان الى ان تخرج عن حدود الاسلام وتتجاوزها الى قرب سرنديب يسمّى بحر فارس وهو عريض البطن جداً في جنوبه بلدان الزنج . وفي هذا البحر هوارات كثيرة ومعاطف صعبة ومن اشدها ما بين جنّابة والبصرة فانه مكان يسمّى هور جنّابة وهو مكان نخوف لا تكاد تسلم منه سفينة عند هيجان البحر ، وبها مكان يعرف بالحشبات من عبّادان على نحو من ستة اميال على جري ماء دجلة الى البحر يرق الماء حتى يخاف على السفن الكبار ان سلكته ان تجلس على الارض الا في وقت المدّ وبهذا الموضع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور يوقد بالليل ليتهدى به ويعلم به المدخل الى دجلة وهو مكان نخوف اذا ضلّت السفينة فيه خيف انكسارها لرقّة الماء ، وبجذاء جنّابة مكان يعرف بخارك وبه معدن اللؤلؤ يخرج منه الشيء اليسير الا انّ النادر اذا وقع من هذا المعدن فاق في القيمة غيره ويقال ان الدرّة

اليتيمة تقع من هذا المعدن ، وبعمان وبسرنديب في هذا البحر معدن لؤلؤ ولا
اعلم معدناً للؤلؤ الا ببحر فارس .

ولهذا البحر مدّ وجزر في اليوم واللييلة مرتان من حدّ القلزم الى حدّ الصين
حيث انتهى وليس لبحر المغرب ولا لبحر الروم ولا لسائر البحار مدّ ولا جزر
غير بحر فارس وهو ان يرتفع الماء قريباً من عشرة اذرع ثم ينضب حتى يرجع
الى مقداره . وفي هذا البطن من البحر الذي نسبناه خصوصاً الى فارس جزائر
منها لافث وخارك وأوال وغيرها من الجزائر المسكونة وبها مياه عذبة وزرع
وضرع ، فهذه جوامع من صفة هذا البحر من حدود الاسلام . وسأصف ما
على سواحه صفة جامعة نبتدىء منها بالقلزم ثم ننتهي بالصفة الى جنباته ان
شاء الله ، واما القلزم فانها مدينة على شفير البحر وينتهي هذا البحر اليها وهي
في عطف هذا البحر في آخر لسانه وليس بها زرع ولا شجر ولا ماء وإنما يحمل
لهم من آبار ومياه بعيدة منهم وهي تامّة العذبة بها فريضة مصر والشام ومنها
تحمل حمولات الشام ومصر الى الحجاز واليمن وسواحل هذا البحر وبينها
وبين فسطاط مصر مرحلتان . ثم ينتهي على شط البحر فلا تكون بها
قرية ولا مدينة سوى مواضع فيها ناس مقيمون على صيد من هذا البحر
وشيء من النخيل يسير حتى ينتهي على تاران وجبيلات وما حاذى جبل الطور
الى أيلة . وأيلة هذه مدينة صغيرة عامرة بها زرع يسير وهي مدينة اليهود الذين
حرّم الله عليهم صيد السبت وجعل منهم القردة والخنازير وبها في يد اليهود
عهد لرسول الله (صلعم) . وأما مدّين وما انتهى على هذا البحر في عطوف اليمن
الى عمان والبحرين الى عبّادان فقد وصفناه في صفة ديار العرب . وأما عبّادان
فانها حصن صغير عامر على شطّ البحر وجمع ماء دجلة وهو رباط كان فيه
محارس للقطريّة وغيرهم من متلصّصة البحر وبها على دوام الايام مرابطون . ثم
تقطع عرض دجلة فتصير على ساحل هذا البحر الى مهربان من حدّ فارس
ويعرض فيها اماكن تمنع من السلوك الا في الماء وذلك ان مياه خوزستان تجتمع
الى دورق وحصن مهديّ وباسيان فتتصل بماء البحر . ومهربان مدينة صغيرة

عامرة وهي فرضة أرّجان وما والاها من اداني فارس وبعض خوزستان . ثم ينتهي البحر على الساحل الى شينيز وهي مدينة اكبر من مهروبان ومنها يرتفع الشينيزي الذي يحمل الى الآفاق . ثم ينتهي الى جنّابة وجنّابة هذه مدينة اكبر من مهروبان وهي فرضة لسائر فارس خصبة شديدة الحرّ . ثم ينتهي على الساحل الى سيف البحر الى نجيرم وهذا السيف ما بين جنّابة ونجيرم به قرى ومساكن ومزارع متفرقة مفترشة شديدة الحرّ . ثم ينتهي الى سيراف وهي الفرضة العظيمة لفارس وهي مدينة عظيمة ليس بها سوى الابنية شيء حتى يجاوز على جبل يطلّ عليه وليس بها ماء يجمد ولا زرع ولا ضرع وهي اغنى بلاد فارس . ثم يتجاوز على الساحل في مواضع منقطعة تعترض بها جبال ومفارز الى ان ينتهي الى حصن ابن عمارة وهو حصن منيع على هذا البحر وليس بجميع فارس حصن امنع منه ويقال ان صاحب هذا الحصن هو الذي قال الله فيه : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » وينتهي على ساحل هذا البحر الى هرموز وهي فرضة كرمات مدينة غراء كثيرة النخل حارة جداً . ثم تسير على شطّه الى الديبل وهي مدينة عامرة وبها يجمع التجار وهي فرضة لبلد السند وبلد السند هو المنصورة وارضى الزّط وما والاها الى الملتان ثم ينتهي على ساحل بلدان الهند الى ان يتصل بساحل تبّت وينتهي الى ساحل الصين ثم الى الصين ثم لا يسلك بعده . واذا اخذت من القلزم غربيّ هذا البحر فانه ينتهي الى بركة قفرة لا شيء فيها الى ان يتصل ببادية البجة والبجة قوم اصحاب اخبية شعر اشدّ سواداً من الحبشة في زي العرب لا قرى لهم ولا مدن ولا زرع الا ما ينقل اليهم من مدن الحبشة واليمن ومصر والنوبة وينتهي حدهم الى ما بين الحبشة وارض النوبة وارض مصر وينتهي الى معادن الذهب ، ويأخذ هذا المعدن من قرب اسوان مصر على نحو من عشر مراحل حتى ينتهي الى حصن على البحر يسمى عيذاب ويسمى بجمع الناس بهذا المعدن العَلّاقى وهو رمال وارض مبسوطة لا جبل بها واموال هذا المعدن يرتفع

الى ارض مصر وهو معدن ذهب لا فضة فيه ، والبجعة قوم يعبدون الاصنام وما استحسونه ، ثم يتصل ذلك بارض الحبشة وهم نصارى وتقرب الوانهم من الوان العرب بين السواد والبياض وهم متفرقون في ساحل هذا البحر الى ان يحاذي عدن وما كان من النمرور والجلود الملتعة واكثر جلود اليمن التي تدبغ للنعال تقع منها الى عدوة اليمن وهم اهل سلم ليسوا بدار حرب ولهم على الشط موضع يقال له زيلع فرضة للعبور الى الحجاز واليمن ، ثم يتصل ذلك بمفازة النوبة والنوبة نصارى وهي بلدان اوسع من الحبشة وبها من المدن والعمارة اكثر مما بالحبشة ويحترق نيل مصر فيما بين مدنها وقراها حتى يتجاوز ذلك الى رملة من ارض الزنج ثم يتجاوزها الى براري يتعذر مسلكها ، ثم ينتهي هذا البحر حتى يتصل بارض الزنج مما يحاذي عدن الى ان يمتد على البحر وتتجاوز محاذاتها جميع حد الاسلام ويدخل فيما حاذى بعض بلدان الهند لسعته وكثرته ، وبلغني ان في بعض اطراف بلد الزنج صروداً فيها زنج بيض وبلد الزنج هذا بلد كشف قليل العمارة قليل الزروع الا ما اتصل بها من مستقر الملك .^١

ابن حوقل — كتاب صورة الارض

بلاد الاندلس

« فاما الاندلس فهي من نفائس جزائر البحر ومن الجلالة في القدر بما حوته واشتملت عليه بحال ساقي باكثرها ودخلتها في اول سنة سبع وثلاثين وثلثمائة والقيم بها أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وطولها شهر في عرض نيف وعشرين يوماً وفيها غامر واكثرها عامر مأهول ويقلب

١ . الاسطوري ، ص ٢٨ - ٣٦ .

عليها المياه الجارية والشجر والثمر والانهار العذبة والرخص والسعة في جميع الاحوال الى نيل النعيم والتملك الفاشي في الخاصة والعامه فينال ذلك اهل منهم وارباب صنائعهم لقله مؤنهم وصلاح بلادهم ويسار ملكهم بقله كلفه ولوازمه وسقوط شغلهم بشيء يحذرهم وحال تخيفه اذ لا رقبة عليه لاحد من اهل جزيرته ولا خشية له من عدو ينصب لمملكته مع عظم مرافقه وجباياته ووفور خزائنه وامواله ومما ادل بالقليل منه على كثيره وغزيره ان سكة دار ضربه على الدنانير والدرهم ضماها في كل سنة مائتا الف دينار ويكون عن صرف سبعة عشر بدينار ثلاثة آلاف واربعة مائة الف درهم هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته واعشاره وضمائنه ومراصده وجواليه وما يقبض من الاموال الوافرة على المراكب الواردة اليهم والصادرة عنهم والرسوم على بيع الاسواق .»^١

قرطبة

« وقرطبة وان لم تك كأحد جانبي بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به وهي مدينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة ورحاب فسيحة وفيها لم يزل ملك سلطانهم قديماً ومساكنه وقصره من داخل سورها المحيط بها واكثر ابواب قصره في داخل البلد من غير جهة ولها بابان يشرعان في نفس سور المدينة الى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة ، والرصافة مساكن أعالي ربضها متصلة بمبانيها بربضها الاسفل وابنيتهما مشتبكة مستديرة على البلد من شرقه وشماله وغربه فاما الجنوب منه فهو الى واديه وعليه الطريق المعروف بالرصيف والاسواق والبيوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها ، ومسجد جامعها جليل عظيم في نفس المدينة والحبس منه قريب ، وقرطبة هذه بائنة بذاتها عن مساكن ارباضها غير ملاصقة لها والمدينة قريبة المحال ودرت بسورها غير يوم في قدر ساعة وهي

١ - ابن حوقل من ١٠٨٠ .

نفسها مستديرة حصينة السور وسورها من حجر . ولم تكن الزهراء بذات سور
 تام وبها مسجد جامع حسن طيب في نفسه [دون جامع البلد في المحل والقدر
 والكبر] ولقرطبة سبعة ابواب حديد ، وهي فخمة واسعة الحال بحسن الجدة
 وكثرة المال والتصرف في وجوه التنعم يجتد الثياب والكسي من لين الكتان
 وجيد الخبز والقز والمتعة بفاره المركوب والمأكول والمشروب . »

صقلية

« ويلحق بها في حسن الحال مما هو بيد اهل الاسلام صقلية وهي جزيرة [على
 شكل مثلث متساوي الساقين زاويته الحادة من غربي الجزيرة] طولها سبعة
 ايام في اربعة ايام . [وهي في شرقي الاندلس في لج البحر وتحاذيها من بلاد الغرب
 بلاد افريقية وباجة وطبرقة الى مرسى الخزر وغربها في البحر جزيرة قرشقة
 ومن جنوب صقلية جزيرة قوسره وعلى ساحل البحر شرقها من البر الاعظم
 الذي عليه قسطنطينية مدينة ريو ثم نواحي قلورية] . والغالب عليها الجبال
 والقلاع والحصون واكثر ارضها مسكونة مزروعة وليس لها مدينة مشهورة
 معروفة غير المدينة المعروفة ببارم قصبة صقلية . وهي على نحر البحر وهي خمس
 حارات متجاورة غير متباينة ببعيد مسافة وان كانت حدودها ظاهرة بينة .

ومنها المدينة الكبرى المسماة بلام وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع
 يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الاكبر وكان بيعة للروم قبيل فتحها . »^٦

المغرب

« وهذه جملة احوال المدن المشهورة والمراشي والقرى المعروفة على نحر بحر

١ - نفس المكان من ١١١ - ١١٣ .

٢ - نفس المكان من ١١٨ .

المغرب من حد برقة الى البحر المحيط مما انتهت اليه وادركته بالعيان او اخذته
عن نشأ فيه . وليس من حد برقة واعماله الى نواحي افريقية فيما يواجه البحر
المغربي من البر غير عشر مراحل فما فوقها بلد يذكر ولا يعرف الا ما ذكرته .
والغالب على ما واجه هذا البحر من ارض مصر الى نواحي عمل افريقية البراري
والمفاوز التي بين بلاد السودان وارض المغرب وفي اطرافها سكان من البربر وفي
قلب البر ايضاً مياه عليها قوم منهم . واما ما حاذى ارض افريقية الى آخر اعمال
طنجة عن مرحلة الى عشر مراحل فزائد وناقص فبلاد مسكونة ومدن متصلة
الرساتيق والمزارع والضياع والمياه والولاة والسلاطين والملوك والحكام والفقهاء .
وكل ذلك في جملة صاحب المغرب وحوزته وقبضته او يد خليفته . وبما عده
واوغل في براري سجلماة واودغست ونواحي لمطة وتادمكة الى الجنوب
ونواحي فزان ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام
ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئاً من الحبوب . والغالب عليهم الشقاء والاتشاح
بالكساء ، وقوام حياتهم باللبن واللحم .^١

فاس

« فاس مدينة جليلة يشقها نهر وهي جانبان يليهما اميران مختلفان ، وبين اهل
الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل . ونهرها كبير غزير الماء عليه أرحية
كثيرة وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة احداثها ادريس بن ادريس . في كل
يوم من ايام الصيف يرسل في اسواقها من نهرها الماء فيغسلها فتبرد الحجارة .
وجميع ما بها من الفواكه والفلات والمطاعم والمشارب والتجارات والمرافق
والخانات فزائد على سائر ما قرب منها وبعد ، في ارض الهبط موقعه وظاهر
بكثرتة حده وموضعه ومستفاض بوفوره مكانه ومرفقه . »^٢

١ - نفس المكان ص ٨٣ - ٨٤ .

٢ - نفس المكان ص ٩٠ - ٩١ .

الغرناطي - تحفة الألباب

« ولقد رأيت يوماً في البحر وأنا على صخرة والماء تحت رجلي قد خرج ذنب حية صفراء منقطة بسواد طولها مقدار باع تطلب ان تقبض على رجلي فبعدت منها واخرجت الحية رأسها كأنه رأس ارنب من تحت ذلك الحجر فسالت خنجراً كبيراً كان معي فطمعت به رأسها فادخلت رأسها تحت الحجر ثم قبضت على الخنجر فلم اقدر ان أخلصه منها وكلما جررته وجذبتة لم اقدر على تخليصه منها فأمسكت مقبض الخنجر بيدي جميعه وجعلت أجره وألصقه بالحجر كأني اقطع به شيئاً . فتركت الخنجر وخرجت من تحت الحجر واذا بها خمس حيات ورأس واحد فعجبت من ذلك ، فسألت من كان هنالك عن اسم هذه الحية فقالوا هذه تعرف بأسم الحيات وذكروا انها تقبض على الآدمي في الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله وانها تقبض على السمك في البحر وتأكله حتى تعظم . تكون كل حية اكثر من عشرين ذراعاً وانها تقلب المراكب وتأكل كل من قدرت عليه من اصحابها ، وان الحديد لا يقطعها ولا يؤثر فيها . ثم بعد ذلك وقعت حية من هذه الحيات في صنارة غلام كان معي فأخرجها الى البر فرأيت منظرأ عجيباً : فها تحت رأسها في الموضع الذي يمكن ان يكون فيه الدبر وحشاها في دماغها وادخلوا سكيناً في فمها واخرجوا حشوتها فماتت قسلسخوا جلدها فكان أرق من قشرة البصلة خفيفاً ليناً فكنت أجعله على يدي وأجر عليه السكين الحاد المرفف الذي يخلق الشعر فلا يؤثر فيه ولا يعلق منه شيء . وكان لحمها كآلية الغنم المطبوخة ليس فيه عظم ولا يصلح للأكل إلا انهم يصطادون به السمك في الصنارة فالسمك يحبه ويصطاد السمك به . ولقد رأيت يوماً وأنا على جانب البحر وقد جزر الماء بعد الظهر وانكشف جبل في البحر قريب من الساحل فرأيت على صخرة من ذلك الجبل عدداً من النارنج الطري الأحمر الذي كأنه قد قطع الآن من شجره فقلت في نفسي هذا قد وقع من بعض السفن فذهبت اليه فقبضت منها واحدة فاذا هي متصلة بالبحر واذا بها حيوان يضطرب في يدي

ويتحرك، فتركته ونظرت اليه واذا فيه في موضع المرجون الذي يعلق النارنج وهو ثقب فيه خضرة كما يكون النارنج وهو يتحرك ويفتح فيه وكأنه يأكل شيئاً وهو لين . فلففت كم ثوبي على يدي وقبضت عليه مرة أخرى وعصرته وجرفته فخرج من فيه مائية كثيرة وضم ولم اقدر ان اقلعه من مكانه . فأخرجت سكيناً كان ممي ورمته قلعه عن الحجر او قطعه فلم يؤثر السكين فيه شيئاً وعالجت كل واحدة منها فلم استطع لها على شيء فتركته عجزاً منها . وهي من عجائب خلق الله تعالى ورأيت جميعها احياء يتحرك وليس لها عين ولا جارحة من الجوارح الا الفم والله اعلم لأي شيء تصلح .

«ولقد كنت مرة في زورق انظر الى ماء البحر اذ مرت بي قطعة شبكة مقدار ذراع في مثله مفتولة الخيوط مربعة الميرون ظاهرة العقد كأنها قطعة من شبكة صياد ، فأخذتها من البحر فاضطربت في يدي فألقيتها في البحر فسبحت وذهبت وغاصت في البحر وهي من حيوانات البحر فتمعجبت من ذلك . ولقد وجدت يوماً عنقود عنب اسود على جانب البحر كثير الحب أخضر المرجون كأنه كطف من كرمه الآن فأخذته وذلك في زمان الشتاء وليس في تلك الارض التي كنت فيها عنب ، لأنني كنت في بعض بلاد البربر في بلدة يقال لها تسامان كانت لبعض قرايقي وكنت نازلاً عنده وهي على جانب البحر . فأخذت ذلك العنقود وقد فرجت به فرمت ان آكل منه فقبضت على حبة منه وجذبته وهي لينة ولكن لم اقدر ان اقلعها من العنقود كأنها من الحديد قوة . فتمعجبت منه وجذبت الحبة كثيراً بقوة فانساخت قشرة الحبة وهي كقشر لبة العنب سواداً وداخلها على هيئة حبة العنب اذا قشرت قبل ان تنضج بيضاً يبين في داخلها عجمها ويبين العروق في لحم تلك الحبة لا يغادر من العنب شيئاً، فقيل لي هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك ويخرج من البحر اذا كان وقت الخريف وهاجت الرياح واضطربت الأمواج فيه فيظهر الله تعالى على جانب البحر اجمالاً من حيوان يشبه جامات الزجاج التي تكون في الحمامات شديدة البياض مدورة

ينفذ فيها البصر ثخاناً لينة فتتحرك ثم تموت بسرعة فتكون على البحر احياناً
يتراعى بها الصبيان فتتقطع ولا تصلح لشيء والله أعلم أي منفعة فيها .^١

الاندلس

«ومما في جزيرة الاندلس ان ابن حزم ذكر في رسالته التي وضعها في وصفها
وذكر خصائصها وطبائع اهلها ان ارضها شامية في طيبها تهامية في اعتدالها
واستوائها، اهوازية في عظم خراجها وجبايتها، عدنية في منافع سواحلها صينية
في معادنها هندية في عطرها وذكائها. واهلها عرب في الانساب والمعزة والانفة
وفصاحة اللسان وطيب النفوس وإباء الضيم وقلة احتمال الدل والنزاهة عن
الخصوع؛ هنديون في فرط عنايتهم بالعلوم وحُبهم لها؛ بغداديون في ظرافتهم
ونظافتهم ودقة اخلاقهم ونباهتهم ولطافة اذهانهم ودرة افكارهم؛ نبطيون في
استنباطهم المياه ومعاناتهم للغرسة وتركيب الشجر والفلاحة؛ صينيون في اتقان
الصنائع العملية واحكام المهن الصورية؛ تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها
والنظر في مهمتها .^٢»

المعروف

«وفي الصين مناديل الغمر التي اذا اتسخت القيت في النار فتتنقى ولا تحترق.
والعرب تقول لكل طرفة من الأواني وما اشبهها كائناً ما كانت صينية لاختصاص
الصين بالطرف .

«وفي سمرقند القراطيس التي عطلت قراطيس مصر لأهل المشرق كقراطيس
مصر لأهل المغرب وفي بلخ أنها شبيهة بالعراق وخراسان والهند .

١ - الفرناطي ابو احمد الاندلسي « تحفة الألباب » ، باريس ، المطبعة الوطنية ، ١٩٢٥ ،

ص ٩٦ - ٩٩ .

٢ - نفس المكان ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

« وفي غرفة ان الاعمار بها طويلة والامراض بها قليلة .

« وفي لبست انه يقال من مات فيها مغفور له فقد انتقل من جنة الى جنة

« وفي طوس ان الله تعالى الان لاهلها الحجارة كما الان لداود عليه السلام الحديد حتى أنهم يتخذون منها ما يتخذ الناس من الزجاج كالاقداح واليزان وغيرهم من الاواني .

« وفي نيسابور ان اهلها لا يكرمون الغريب ولا يؤاسون القريب .

« وفي جرجان وتسمى بغداد الصغرى أنها قاتلة للغربي وذلك لاختلاف هوائها وكان أبو تراب النيسابوري يقول لما قسمت الدنيا بين الملائكة وقعت جرجان في قسمة أبي يحيى يعني ملك الموت .

« وفي الري أنها ترم بأهلها .

« وفي اصبهان حجر الكحل وذبابها النحل وحشيشها الزعفران .

« وفي فارس ان لشيراز نعمة طيبة ليس فيها عداها من كور فارس .

« وفي الاهواز قصبته مخصوصة بالحمى الدائمة حتى انها ليست الى الغريب بأسرع منها الى القريب . ولا يكاد يوجد فيها وجنة حمراء لصبي ولا لصبية وربما لمست القابلة المولود فتجده محمواً . ومن عجائب خصائصها ان جميع اصناف الطيب تستحيل رائحته فيها الاستحالة الشديدة حتى لا يوجد له رائحة وهذا من كثرة الرطوبة وغلظ الهواء والبخارات الفاسدة وهذا موجود بالقسطنطينية وانطاكية .

« وفي البصرة ان للغربان بها مسودا ويقع على كل نخلة قد صرم نخلها .

ولا يقع على ما لم يصرم ولو بقي عليها عذق واحد ومن عجائبها ايضاً ان الثمر يكون مصبوباً في بيادره فلا يقع على شيء منه ذبابة لا في ليل ولا في نهار واهل البصرة يتخذون المظلات على الثمر والعجوة خوفاً عليها من الجفاف ومن

شأن الذباب الفرار من الشمس الى الظل فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة
فيتوهم ان هاتين الحالتين من طلسم له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب وليس
الامر كذلك وانما هو من حماية الله ووقايته .

« وفي جزيرة العرب ان مكة يربح الذيب فيها اللطفي ويعارضه ويصيده فاذا
دخل الحرم كف عنه ومنها انه لا يسقط على الكعبة حمام الا ان كان عليلاً وان
من عادة الطير اذا حاذت الكعبة ان تفترق فرقتين لا تعلوها .

« وفي المدينة على ساكنها الصلاة والسلام ان العطر والبخور يوجد لهما من
الضوء والرائحة الطيبة اضعاف ما يوجد في سائر البلاد ولها في نفسها نعمة طيبة
ورائحة عطرية وان لم يكن فيها شيء من الطيب البتة ولهذا سميت طيبة وطاب
قول الشاعر في ذلك :

ما على من مس تربة احمد ان لا يمس طول الزمان غواليا

وفي اليمن ان السيف متى قلع بالهند وطبع باليمن فناهيك به جودة .

وفي الموصل قال الجاحظ من اقام بالموصل حولا ثم تفقد قوته وجد فيها
فضلاً .^١

المشهورات

« فصل الهند بجرها در* وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر . وكرمان
ماؤها وشل وتمرها دقل وعودها بهل . وخراسان ماؤها جامد وعودها جامد .
وعمان حرها شديد وصيدها عتيد . والبحرين كناسة بين المصريين . والبصرة ماؤها
ملح وحرها صلح ماوى كل تاجر وطريق كل عابر . والكوفة ارتفعت عن حر
البحرين وسلمت عن برد الشام وواسط جنة بين حماة وكنت .

١ - نفس المكان ص ٢٠٢ - ٢٠٦

والشام عروس بين نساء جلوس . ومصر هواؤها راكد وحرها متزايد تطول
الاعمار وتسود الابشار .

فصل ونذكر خصائص بلاد العملية فيقال حكما يونان واطباء جنديسابور
وصاغة حران وحالة اليمن وكتاب السوار .

فصل ونذكر خصائص البلاد في الاحجار فيقال فيروج نيسابور وياقوت
سرنديب ولؤلؤ عمان وزبرجد مصر وعقيق اليمن وجزع ظفار ونجد بلخ
ومرجان اقريقية .

فصل نذكر خصائص البلاد في الحيوانات ذوات السموم فيقال افاعي
سجستان وثعابين مصر وعقارب شهرزون وحرارات الاهواز وبراغيث ارمينية
وفار ارزن وغل بافرقين وذباب تدفافان واوزاغ .

فصل ونذكر خصائص البلاد في الملابس فيقال برود اليمن وقصب مصر
وديباج الروم وخز السوس وحرير الصين واكسية فارس وحلل اصهبان
وسقلاطون بغداد وعمائم الابلّة ومنير الري وملحم مرو .

فصل ونذكر خصائص البلاد في الوبار فيقال سنجاب خرخرن وسمور بلغار
وثعاليب الخزر وحواصل هراة وقماق التغزغز .

فصل ونذكر خصائص البلاد في المركوب فيقال عتاق البادية ونجائب الحجاز
وبراذين طخارستان وحير مصر وبغال بردعة .

فصل ونذكر خصائص البلاد في الخلو فيقال سكر الاهواز وعسل اصهبان
وفانيد ماسكان .

فصل ونذكر خصائص البلاد في الثمار فيقال رطب العراق وتمر كرمات

وعناب جرجان واجاص سبت وسفرجل نيسابور وتفتح الشام ومشمش طوس
وكثيرى نهاوند واترنج طبرستان وثارنج البصرة وتين حلوان وعنب بغداد
ومشمش هراة وموز اليمن وجوز الهند وبطيخ خوارزم وبقلاء الكوفة .

فصل ونذكر خصائص البلاد في الرياحين فيقال نرجس جرجان وورد جور
ونلوفير شروان ومنثور بغداد وزعفران قم وسمرقند^١.

١ - نلس المكائ ص ٢٠٧ - ٢١٤

الفصل الرابع

المقدسي

يعتبر ابو عبد الله محمد بن ابي بكر البناء ، المعروف بالمقدسي لانه ولد في بيت المقدس ، خاتمة الجغرافيين الكبار من المدرسة العربية التي بلغت اوجها في القرن الرابع (القرن العاشر) . فالرجل يمثل العالم الصحيح ، يطلع على ما كتب والف ، ويتنقل في الاقطار ويزور الديار ، ثم يعطي هذا كله الوقت ليختمر ، وينظمه بحوثاً وفصولاً ، ويدونه بعد ان يقلب الامر على وجوهه . ومن ثم كان كتابه « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » نموذجاً للكتاب العلمي المرتب المنتظم المبوب المقسم . هذا فضلاً عن انه يحوي نقداً علمياً صريحاً ادبياً لشيوخه في هذا الموضوع . وهو يقدم للوصف الجغرافي الدقيق بذكر ما دفعه الى الاهتمام بهذا الموضوع ثم يعرض القواعد التي اسس الكتاب عليها، ثم يذكر البحار والانهار، وبعد ذلك يقدم للقارئ الاسماء المتفقة اسماً والمختلفة صقماً وينتقل الى الخصائص في الاقاليم فيجملها ، ويذكر المذاهب والذمة . ويشفق على الفقهاء من قراءة كتابه بكامله فيختصر لهم باباً خاصاً هو خلاصة للكتاب . وبعد ان يعدد اقاليمه الاربعة عشر التي قسم اليها مملكة الاسلام ، يأخذ هذه الاقاليم فيفصل كورها وقصباتها ثم يعود فيجمل الاقليم عامة اقتصاداً وادارة وما الى ذلك . وقد تم له وضع كتابه في شيراز سنة ٩٨٥/٣٧٥ وكان له من العمر اربعون سنة .

والمقدسي دقيق الملاحظة شديد الحرص على التعرف على البلاد وسكانها .

وكتابه ، فضلا عن انه فريد في الجغرافية ، فهو ، في رأينا ، من كتب الادب الجميلة ، لما احتوى من رصين الاسلوب ورقيق العبارة ودقيق التعبير .
وقد رأينا ان نترك للمقدسي الحديث ، فننقل عنه فقرات تبين آراءه وتنظيمه ومعرفة وأدبه . وها هو يقدم الى القارىء ما دفعه الى وضع الكتاب فيقول : اما بعد فانه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم ، ولا تنقطع اخبارهم ، فأحببت ان اتبع سُنَنهم واقفوا سُنَنهم وأقيم علماً أحبي به ذكرى ونفعاً للخلق أرضي به ربي ، ووجدت العلماء قد سبقوا الى العلوم فصنفوا على الابتداء ثم تبعتهم الاخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه .
فرأيت ان أقصد علماً قد اغفلوه وانفرد بفن لم يذكره الا على الاخلال وهو ذكر الاقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والانهار ووصف امصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات ، واختلاف اهل البلد في كلامهم واصواتهم والسننهم والوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم واوزانهم ونقودهم وصروفهم ، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ، وما يحمل من عندهم واليه ، وذكر مواضع الاخطار في المفاوز وعدد المنازل في المسافات وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال .

ويعدد الأسباب التي عاينها حتى تم له وضع هذا الكتاب فيقول :
« اعلم ان جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب وان كانت مختلفة غير ان أكثرها بل كلها سماع لهم ، ونحن فلم يبق اقليم الا وقد دخلناه واقل سبب الا وقد عرفناه وما تركزنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب ، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة اقسام احدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره . وما بقيت خزانة ملك الا وقد لزمناها ولا تصانيف فرقة الا وقد تصفحتها ولا مذاهب قوم الا وقد عرفتها ولا اهل زهد الا وقد خالطتهم ولا مذكرو بلد الا وقد شهدتهم حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب .

ولقد سميت بستة وثلاثين اسماً دعيت وخطبت بهامثل مقدسي وفلسطيني ومصري
ومغربي وخراساني... وفقه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح ووراق... وغير
ذلك، لاختلاف البلدان التي حلتها وكثرة المواضع التي دخلتها. ثم انه لم يبق شيء مما
يلحق المسافرين الا وقد اخذت منه نصيباً غير الكدية وركوب الكبيرة. فقد تفقعت
وتأدبت وتزهدت وتعبدت وفقعت وأدبت وخطبت على المنابر وأذنت على
المنابر وأمت في المساجد وذكرت في الجوامع واختلفت الى المدارس ودعوت
في المحافل وتكلمت في المجالس. وأكلت مع الصوفية الهرائس ومع الخانقائيين
الثرائد ومع النواقي العصائد. وطردت في الليالي من المساجد وسحت في البراري
وتهت في الصحاري وصدقت في الورع زماناً وأكلت الحرام عياناً. وصحبت
عباد جبل لبنان وخالطت حيناً السلطان وملكت العبيد وحملت على رأسي
بالزبل وأشرفت مراراً على الغرق وقطع على قوافلنا الطرق. وخدمت القضاة
والكبراء وخاطبت السلاطين والوزراء وصاحبت في الطريق الفساق وبعث
البضائع في الاسواق وسجنت في الحبوس واخذت على اني جاسوس وعانيت
حرب الروم بالشواني وضرب النواقيس في الليالي وجلدت المصاحف بالكبرى
واشترت الماء بالغلاء وركبت الكنائس والخيول ومشيت في السائم والثلوج
ونزلت في عرصة الملوك الأجلة وسكنت بين الجهال في محلة الحاكّة. وكم نلت
المز والرفعة ودبر في قتلي غير مرة. وحججت وجاورت وغزوت وربطت
وشربت بمكة من السقاية السويق واكلت الجلبان والخبز بالسيق ومن ضيافة
ابراهيم الخليل وجيز عسقلان السبيل وكسيت خلع الملوك وأمروا لي بالصلوات
وعريت واقتقرت مرات وكاتبني السادات ووبخني الاشراف وعرضت علي
الأوقاف وخضعت للاخلاف ورميت بالبدع واتهمت بالطمع واقامني الامراء
والقضاة اميناً ودخلت في الوصايا وجعلت وكيلاً وامتحننت الطرارين ورأيت
دول العيارين. واتبعني الأرذلون وعاندي الحاسدون وسمي بي الى السلاطين.
ودخلت حمامات طبرية والقلاع الفارسية ورأيت يوم الفوارة وعيد بربرة
وبئر بضاعة وقصر يعقوب وضياعه. ومثل هذا كثير. ذكنا هذا القدر ليعلم

الناظر في كتابنا اننا لم نصنفه جزافاً ولا رتبناه مجازاً ويميزه من غيره . فكم بين من قاسى هذه الاسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع . ولقد ذهب لي في هذه الاسفار فوق عشرة آلاف درهم سوى ما دخل علي من التقصير في امور الشريعة ولم يبق رخصة مذهب الا وقد استعملتها... غير انني لم اخرج عن الفقهاء الاربعة ولم اؤخر صلاة عن وقتها بته . ١٤

وقد اقتصر المقدسي على ديار الاسلام وعلى البلاد التي زارها وهي الاقاليم الاربعة عشرة ، العربية منها ستة هي جزيرة العرب والعراق واقور والشام ومصر والمغرب والباقية اقاليم المعجم وهي المشرق والديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند . ولم يعرض للهند ولا الأندلس لأنه لم يزرها . ورسم للبلاد التي كتب عنها خطأ قال عنها : « وافردنا اقاليم المعجم عن اقاليم العرب ... » ورسمنا حدودها وخطوطها وحررنا طرقها المعروفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخرصة وانهارها المعروفة بالزرقه وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف الى الافهام . ٢٤

وقد رأينا ان ننقل للقارىء وصف المقدسي للرملة من فلسطين، ويرى البعض انها بلد المقدسي اصلاً ، وشيراز ، حيث وضع كتابه القيم الذي نقحه بعد ثلاث سنوات وخلفه لنا مصدراً قيماً لما كانت عليه دنيا الاسلام في القرن الرابع (العاشر) . فما هو يقول عن الرملة « الرملة قصبة فلسطين بهيمة حسنة البناء خفيفة الماء مرية واسعة الفواكه جامعة الاضداد بين رساتيق جليلة ومدن سرية ومشاهد فاصلة وقرى نفيسة . والتجارة بها مفيدة والمعاش حسنة . ليس في الاسلام ابيه من جامعها ولا احسن واطيب من حواريها ولا ابرك من كورتها ولا الذ من فواكهها . موضوعة بين رساتيق زكية ومدن محيطة ورباطات فاضلة ذات فنادق رشيقة

١ - نفس المكان ص ٤٣-٤٥ .

٢ - نفس المكان ص ٩ .

وحمامات انيقة واطعمة نظيفة وادامات كثيرة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وامور جامعة . قد خطت في السهل وقربت من الجبل والبحر وجمعت التين والنخل وانبئت الزروع على البعل وحوت الخيرات والفضل . غير انها في جزيرة من الوحل وفي الصيف ذرية من الرمل .

اما شيراز فيصفها بقوله انها مصر «معتدل الهواء طيب في الصيف وفي الشتاء وماء خفيف اذا شربت مما جرى ومياه الآبار حلوة قريبة المستقى اهل يسار وتجارة وتعطف على الغرباء . لهم خصائص وصنائع وعقل ودها ومعروف وصدقات وبها مشايخ ووجوه وتنا واسبان لولا لحن المستعلى وصاحب الاملا ، كثير الصوفية ومجالس القرا . ولهم غدوات الجمع ختمات لها نور وبها جامع لا نظير له في الثانية اقاليم له يوم الجمعة سما باساطين على عمل المسجد الاقصى ، وبه دار امارة اليها المنتهى ولهم . . . بيت قرى نظيفة الاطعمة والهرايس لا الشوا قد اشتهر بالاكسية والبرود ودار المرضى . ٢٤

المقدسي — احسن التقاسيم

ذكر الخصائص في الاقاليم

«اظرف الاقاليم العراق وهو اخف على القلب واحد للذهن وبها تكون النفس اطيب والخطر أدق اذا كانت كفاية . واجلتها واوسعها فواكه وأكثرها علماء وأجلته وبردا المشرق . وأكثرها صوفاً وقزاً ودخلا على قدره الديلم . وأجودها البانا واعسالا والذها أخبازاً وأمكنها زعفراناً الجبال . وأكثرها ثماراً وأرخصها اسعاراً ولحوماً واثقلها قوماً الرحاب . وأسفلها قوماً وأشرهم اصلاً وفصلاً

١ - نفس المكان ص ١٦٤

٢ - نفس المكان ص ٤٢٩ - ٤٣٠

خوزستان . وأحلاها تموراً وأوطاها قوماً كرمان . وأكثرها فانيذا وارزازاً
ومسكا وكفاراً السند ، واكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقا فارس . وأشدها
حرراً وقحطاً ونخيلاً جزيرة العرب . وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً ومشاهداً
الشام . وأكثرها عبداً وقراء وأموالاً ومتجراً وخصائص وحبوباً مصر .
واخوفها سبلاً واجودها خيلاً وأوسطها قوماً اقور . واجفها واثقلها واغشها
قوماً وأكثرها مدناً وأوسعها أرضاً المغرب . وقال عبد الرحمان بن اخي الاصمعي
« دخلت على الجاحظ فقلت افدني في البلدان فائدة قال نعم الامصار عشرة: المروة
ببغداد والفصاحة بالكوفة والصنعة بالبصرة والتجارة ببصر والغدر بالري والجفاء
بنيسابور والبخل بمر و الصلف ببلخ والحرفة بسمرقند . وقد صدق لعمرى ، الا
ان بنيسابور ايضاً صناعاً حذاقاً وبصر تجارات وبمكة فصاحة وبمر دهاة وصنعا
طيبة الهواء وبيت المقدس حسنة البناء ، وصغر وجرجان موضع الوبا ، ودمشق
كثيرة الانهار ، وصفد ممتدة الأشجار ، والرملة لذينة الثمار ، وطبرستان دائمة
الامطار ، وفرغانة رخيصة الاسعار . والمروة والجحفة معدن الدعار ، والرقه
موضع الاخطار ، وهمدان وتنيس مركز الاحرار ، والشام اقليم الاخيار ،
وسمرقند فرضة التجار ، ونيسابور بلدة الكبار ، والفسطاط أهل الامصار .
وطوبى لأهل الغرَج بعدل الشار ولاصفهان الهواء والحلل والفخار ، ورسوم
شيراز على الاسلام عار ، وعدن دهليز الصين مع صحار ، وبالصغانيان الكلاً والثمار
والاطيار ، وبخارا جليلة لولا الماء وحريق النار ، وبلخ خزانة الفقه مع الرحب
واليسار ، وايليا تصلح لاهل الدين والدار ، واهل بغداد قليلو الاعمار ،
وصنعاء ونيسابور بالضد . . . فان سأل سائل أي البلدان اطيب
نظر فان كان ممن يطلب الدارين قيل له بيت المقدس ، وان كان
مخلصاً آمناً من الطمع قيل مكة ، وان كان ممن يطلب النعمة والحيازة والرخص
والفواكه قيل له كل بلد أجزاك وإلا فعليك بخمسة أمصار دمشق والبصرة
والري وبخارا وبلخ ، او بخمس مدائن قيسارية وباعيناثا وخجندة والدينور
ونوقان او بخمس نواح الصفد والصغانيان ونهاوند وجزيرة ابن عمر وسابور

فاختر ما شئت منها فانها منازلها الاسلام . وأما الاندلس فيقال انها جنات
ومستفاض جنات الدنيا اربع غوطة دمشق ونهر الابلّة وروضة الصفد وشعب
بوان . ومن أراد التجارة فعليه بعدن او عمان او مصر وكلّما نذكر من
عيوب اهل البلدان فأهل العلم والأدب عنه بمعزل خاصة الفقهاء لأنّي رأيت
الفضل فيهم . وأعلم ان كلّ بلد فيه صاد فأهله حقّ إلا البصرة فان اجتمعت
صادان مثل المصيصة وصرصر فنعوذ بالله . وكل بلد نسبت صاحبه اليه فلقيت
الزاي الياء فهو داه مثل رازي مروزي سجزي . وكل بلد آخره ان فله خاصية
او طيبة مثل جرجان موقان أرّجان . وكل بلد شديد البرد فأهله أسمن وأضخم
وأحسن وأكبر لحي فرغانة وخوارزم وارمينية . وكل بلد يحيط به انهار فان في
أهله شغباً وخروجاً مثل دمشق وسمرقند والصليق . وكل بلد رحب رخيّ فان
المعاش به ضيقة إلا بلخ . وأعلم ان بغداد كانت جليّة في القديم وقد تداعت
الآن الى الخراب واختلت وزهد بهاؤها ولم استطبها ولا أعجبت بها وان
مدحناها فللتعارف . وفسطاط مصر اليوم كبغداد في القديم ولا أعلم في الاسلام بلداً
أجل منه ، وأما اقليم المشرق فقد فشا فيه الجور وفسد وهو خير من غيره . وأقاليم
الاعاجم فلا تطيب لأهل اسفل ، ولو كان للرملة ماء جار لما استثنينا انها أطيب
بلد في الاسلام لانها ظريفة خفيفة بين قدس وثغور وغور وبحور معتدلة الهواء
لذيذة الثمّار سرية الأهل غير ان فيهم جهلاً خزانة مصر ومطرح البحرين رخيّة^١

إقليم الشام

« اقليم الشام جليل الشان ديار النبيين ، ومركز الصالحين ، ومعدن البدلا
ومطلب الفضلا ، به القبلة الاولى ، وموضع الحشر والمسرى ، والارض المقدسة
والرباطات الفاضلة والثغور الجبلية والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبره

وديار ايوب وبشره ومحراب داود وبابه وعجائب سليمان ومدنه وتربة اسحاق
وامه ومولد المسيح ومهده وقرية طالوت ونهره ومقتل جالوت وحصنه وجب
ارميا وحيدته ومسجد اورياء وبيته وقبة محمد وبابه وصخرة موسى وربوة عيسى
ومحراب زكريا ومعرك يحيى ومشاهد الانبياء؛ وقرى أيوب، ومنازل يعقوب،
والمسجد الأقصى، وجبل زيتا، ومدينة عكا، ومشهد صديقا، وقبر موسى
ومضجع ابراهيم ومقبرته ومدينة عسقلان، وعين سلوان وموضع لقمان،
ووادى كنعان، ومدائن لوط وموضع الجنان؛ ومساجد عمر ووقف عثمان،
والباب الذي ذكره الرجلان، والمجلس الذي حضره الحصمان، والسور الذي
بين العذاب والغفران، والمكان القريب ومشهد بيسان؛ وباب حطة ذو القدر
والشان، وباب الصور وموضع اليقين وقبر مريم وراحييل وجمع البحرين،
ومفرق الدارين، وباب السكينة وقبة السلسلة ومنزل الكعبة مع مشاهد لا
تحصى، وفصائل لا تحفى، وفواكه ورخا، واشجار واميا، وآخرة ودنيا،
به يرق القلب وينبسط للعبادة الاعضا. ثم به دمشق جنة الدنيا، وصغر
البصرة الصغرى، والرملة البهية وخبزها الحواري، وايليا الفاضلة بلا لاوى
وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهواء، وجبل بصرى وكرومه فلا تنسى،
وطبرية الجليلة بالدخل والقرى. ثم البحر يمد على طرفه فالحمولات فيه اليه ابدأ
وبحرا الصين متصل بطرفه الاقصى، له سهل وجبل واغوار واشياء، والبادية على
تحومه كالزقاق منه الى تيماء وبه معادن الرخام وعقاقير كل دوا، ويسار وتجار
ولباقة وفقها، وكتاب وصناع واطببا، الا أنهم على خوف من الروم وفي جلا.
والاطراف قد خربت وامر الثغور قد انقضى، وليسوا كالأعاجم في العلم والدين
والنهي، بعض قد ارتد وبعض للجزية في ادا، يقدمون طاعة المخلوق على طاعة
رب السما، عامتهم جهال أو غوغا، لا نهضة في جهاد ولا حمية على الاعداء.^١

جمل شؤون هذا الاقليم (الشام)

« هو اقليم متوسط الهواء الاوسطه من الشارة الى الحولة فانه بلد الحر والنيل والموز والنخيل . وقال لي يوماً غسان الحكيم ونحن باريحاء : ترى هذا الوادي ؟ قلت بلى ! قال : هو يمد الى الحجاز ثم يخرج الى اليمامة ثم الى عمان وهجر ثم الى البصرة ثم الى بغداد ثم يصعد الى ميسرة الموصل الى الرقة وهو وادي الحر والنخيل . واشد هذا الاقليم برداً بعلبك وما حولها . ومن امثالهم قيل للبرد اين نطلبك ؟ قال بالبلقاء قال فان لم نجدك قال بعلبك بيتي . وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين . وكلما علا منه نحو الروم كان اكثر انهارا وثمارا وابد هواء وما سفل منه فانه افضل واطيب والذ ثمارا واكثر نخيلا . وليس فيه نهر يسافر فيه انما يعبر . قليل العلماء كثير الذمّة والمجذمين ولا خطر فيه للمذكرين والسامرة فيه من فلسطين الى طبرية ولا تجد فيه مجوسيا ولا صابئاً ، مذاهبهم مستقيمة ، اهل جماعة وسنة واهل طبرية ونصف نابلس وقدس واكثر عمان شيعة ، ولا ما فيه لمعتزلي انما هم في خفية . وبيت المقدس خلق من الكرامة لهم خوانات ومجالس ولا ترى به مالكي ولا داوديا . وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق والعمل كان فيه على مذهب اصحاب الحديث والفقهاء شفعوية . واقل قصبه او بلد ليس فيه حنفي وربما كانت القضاة منهم فان قيل لم لم يقل والعمل فيه على مذهب الشافعي والصدور ثم شفعوية قيل له هذا كلام لا تميز له لان مذهب الشافعي الجهر بالبسملة والقنوت في الفجر ولا نقنت الا في النصف الاخير من شهر رمضان في الوتر وغير ذلك ما لم يكن يستعمله اهل الشام وينكرونه . الا ترى ان ملكهم لما امر بالجهر بالبسملة بطبرية كيف تظلموا منه الى كافور الاخشيدي واستبشعوا ما فعله واليوم اكثر العمل على مذاهب الفاطمي ونحن نذكرها مع رسومهم في اقليم المغرب ان شاء الله تعالى . والغالب فيه من القراءات حروف ابي عمرو الا بدمشق فانه لا يوم في الجامع الا من يقرأ لابن عامر وفي شائعة فيهم مختارة عندهم وقد فشت قراءة الكسائي في الاقليم ويستعملون السبع ويجتهدون في ضبطها . »^١

جمل شؤون هذا الاقليم (مصر)

« هذا اقليم اذا اقبل فلا تسأل عن خصبه ورخصه واذا اجذب فنعوذ بالله من قحطه يد سبع سنين حتى يأكلون الكلاب ويقع فيهم الوباء المهرج . اشد حراً من سواحل الشام ويبرد في طوبه برداً شديداً . به نخيل كثيرة وعامة ذمته نصارى يقال لهم القبط ويهود قليل ، كثير المجذمين وببت الجرب لأنه عفن . واكثر ادمهم السمك وعلى مذاهب اهل الشام غير ان اكثر فقهاءهم مالكيون الا ترى انهم يصلون قدام الامام . واعلى القصة وأهل صندفا شيعه وسائر المذاهب بالفسطاط موجودة ظاهرة وثم محلة الكرامية وجبله للمعتزلة والحنبلية والفتيا اليوم على مذاهب الفاطمي التي نذكرها في اقليم المغرب ، والقراآت السبع فيه مستعملة غير ان قراءة ابن عامر اقلها . ولما قرأت بها على ابي الطيب ابن غلبون قال دع هذه القراءة فانها عتيقة . قلت قيل لنا عليكم بالعتيق قال فعليك بها . وقرأت عليه لابي عمرو فكان يأمرني بتفخيم الرامن مريم والتورية والغالب عليهم والمختار عندهم قراءة نافع . وسمعت شيخاً في الجامع السفلاي يقول ما قدم في هذا المحراب امام قط الا وهو يتفقه لمالك ويقرأ لنا نافع غير هذا يعني ابن الحياط . قلت ولم ذلك ؟ قال لم نجد اطييب منه وكان شفوعياً ابو عمر يا لم ار في الاسلام احسن نعمة منه . لغتهم عربية غير انها ركيكة رخوة وذمتهم يتحدثون بالقبطية .

« هو بلد التجارات يرتفع منه اديم جيد صبور على الماء ثخين لين والبطائن الحمر واهملخات والمثلث - هذا من مصر ومن الصعيد الارز والصوف والتمور والخل والزبيب ومن تنيس لا دمياط الثياب الملونة ومن دمياط القصب ومن الفيوم الارز وكتان دون بوصير قريدس الكتان الرفيع ومن الفرما الحيتان ومن مدنها القفاف والحبال من الليف في غاية الجودة ولهم القباطي والارز والخيش والعباداني والحصر والحبوب والجلبات ودهن الفجل والزنبق وغير ذلك الخصائص . ولا نظير لاقلامهم وزاجهم ورخامهم وخلهم وصوفهم وخيشهم وبزهم

وكتسبهم وجلودهم وحذوهم ومملختساتهم وليفهم ووزهم وموزهم وشمهم
 وقندهم ودقهم وصبهم وريشهم وغزلهم واشنانهم وهريستهم ونيدتهم وحمصهم
 وترمسهم وقرطهم وقلقاسهم وحصرهم وحرهم وبقرهم وحزمهم ومزارعهم
 ونهرهم وتعبدهم وحسن نفمتهم وعمارة جامهم وحالومهم وحبشهم وحيثانهم
 ومعاشهم وتجاراتهم وصدقاتهم كل ذلك في غاية الجودة . وقد اجتمع بها من
 خصائص فلسطين القلقاس وهو شيء على قدر الفجل المدور عليه قشر وفيه حدة
 يقلى بالزيت ويطرح في السكباچ والموز وهو على مقدار الخيار عليه مزود رقيق
 يقشر عنه ثم يؤكل له حلاوة وعفوصة، والجميز وهو اصغر من التين له ذنب طويل،
 والترمس وهو على قدر الظفر يابس مر يحلى ويملح، والنبق وهو على قدر الزعرور
 فيه نواة كبيرة حلو وهو ثمرة شجرة السدر .^١

●

الفصل الخامس

المعاجم الجغرافية (مياقوت)

الصفة الغالبة على القرن السادس (القرن الثاني عشر) هي انعدام الخلق في الفكر العربي ، واهتمام العلماء والأدباء بوضع موسوعات ومعاجم تتناول جهد الاسبقين في مختلف المواضيع والبحوث . ولا تختلف الجغرافية في ذلك عن غيرها من ضروب المعرفة . ولعل ابرز من يمثل هذا الاتجاه في هذا الصنف هو ياقوت الحموي .

ولد ياقوت في ديار الروم ، ومن هنا تسميته احيانا بالرومي ، وكان ذلك في سنة ١١٧٩ / ٥٧٥ . وقد اسر وهو حدث ، وحمل إلى سوق الرقيق ببغداد حيث اشتراه عسكر بن ابراهيم وهو تاجر بغدادى أصله من حماء ، فنسب ياقوت اليه وغلب عليه لقب الحموي . ورأى عسكر ان يفيد من هذا الحدث الناس يستعين به في حساباته وتجارته فوضعه في مدرسة حيث تعلم الكتابة . الا ان ياقوت افاد اكثر من ذلك اذ اهتم بالنحو والادب . وارسله سيده في تجارات له حملته الى جزيرة كشم في الخليج العربي والى عمان وديار الشام . فاغرم ياقوت بالرحلة وتعرف الى البلاد التي زارها .

وقد اعتقه عسكر سنة ٥٩٦/١١٩٩ . والظاهر انه حدث بينه وبين سيده القديم جفاء ، فتعاطى ياقوت النسخ ليعيش منه . وفي هذه الاثناء اتصل بالمكبري فأفاد منه كثيراً في اخبار الادب والادباء والرواة . وبعد ذلك عاد الود بينه وبين سيده القديم الى ما كان عليه (٦١٦/١٢١٩) وعاد ياقوت يرحل في التجارة لعسكر ، فلما رجع الى بغداد وجد عسكر قد مات . ولعل الرجل أوصى لياقوت ببعض ثروته اذ انه تعاطى بعد ذلك التجارة لحسابه الخاص.

وها نحن نجد ياقوت يتنقل من قطر الى قطر . فهو مرة في تبريز واخرى في مصر وثالثة في مرو ، حيث قضى سنتين يلتهم ما في خزائنها من الكتب وهي كثيرة جداً . وقد بدأ هناك بوضع كتابه الهام «معجم البلدان» (١٢١٥/٦١٢) . ورحل الى خوارزم (خيوه الحديثة) حيث استقر بعض الوقت ، لكن لما بلغه تحرك جنكيز خان نحو الغرب هرب الى الموصل (٦١٧/١٢٢٠) مخلفاً وراءه كل ثروته ، فوصلها معهما . ومنها كتب الى الوزير ابن القفطي ، وكان في حلب ، يرجوه العون ، فامده بما قوم به أوده ، واستدعاه الى حلب . لكن ياقوت عاد بعد سنتين الى الموصل ، حيث انصرف الى اتمام معجمه الذي فرغ من وضعه في ٢٠ صفر ٦٢١/ ١٣ آذار - مارس - ١٢٢٤ . ثم زار مصر ، وعاد الى حلب فعمل في تنقيح المعجم . وتوفي في حلب في رمضان ٦٢٦ / آب - اغسطس - ١٢٢٩ .

يروى ياقوت انه لما كان في مرو عرضت في مجلس صاحبها يوماً قضية تتعلق باسم مكان هل هو حباشة (بضم الحاء) ام حباشة (بالفتح) . وارتأى ياقوت انه بالضم وخالفه الآخرون^١ . فاراد ان يثبت صحة ما ذهب اليه بالنقل عن العلماء ، فعمل في خزائن الكتب هناك طويلاً ، فلم يجد بغيته (وان كان قد تثبت من الامر بعد ذلك بمدة طويلة^٢ . فكانت هذه الحادثة دافعاً له على وضع

١ - ياقوت ، شهاب الدين « معجم البلدان » ، بيروت ، صادر ١٩٥٥ ج ١ ص ١٠ .

٢ - نفس المكان ص ١٠ .

المعجم . فهو يقول في ذلك : « فألقي حينئذ في روعي اقتنار العالم الى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً ، وبالاتقان وتصحيح الالفاظ بالتقييد مخطوطاً ، ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً ، والى ضوء الصواب داعياً ، ونبتت على هذه الفضيلة النبيلة ، وشرح صدري لنيل هذه المنقبة التي غفل عنها الاولون ، ولم يهتد لها الغابرون . »^١

وياقوت أمين في نقله عن غيره ، فهو ينسب كل شيء اخذه عن الآخرين الى صاحبه . يضاف الى ذلك انه يتحدث في المقدمة عن مصادره المكتوبة حديثاً جيلاً علمياً . انه ينبئنا ان القدماء ، مثل بطليموس وغيره كتبوا عن الارض والاماكن وسموا علمهم جغرافياً . لكن الاماكن التي كتبوا عنها زالت وتغيرت اسمائها بحيث لم يتمكن هو من التعرف عليها . ثم يشير اشارة لطيفة الى الاسلاميين من الذين كتبوا في صورة الارض والمسالك والممالك وما الى ذلك ، فيذكر اولئك الذين رجع الى مؤلفاتهم وهم : ابن خرداذبة وابن واضح والجيهاني وابن الفقيه والبلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والمهلي والبغدادى والبكري . على ان ياقوت استعان بفئة أخرى من الرواة وأهل الادب واللغة ومؤلفاتهم . ذلك بانه وجد ان هؤلاء قد ذكروا بعض المعلومات المفيدة عن الاماكن في ما وضعوه عن ترجموا له .^٢

ويحدثنا ياقوت عن طريقة أخذ هذه وافادته من مصادره ونخبه فيقول : « واستقصيت لك الفوائد جلها او كلها ، وملكتك عفواً صفواً عقدها وحلها ، حتى لقد ذكرت اشياء كثيرة تأبها العقول ، وتنفر عنها طباع من له محصول ، لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرهما عن المشاهدات المعروفة ، وان كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق ، وانا مرتاب بها نافر عنها

١ - نفس المكان من ١٠ .

٢ - نفس المكان من ١١ .

متبرئ، الى قارئها من صحتها ، لانني كتبتها حرصاً على احراز الفوائد ، وطلباً
لتحصيل القلائد منها والفرائد ، فان كانت حقاً فقد أخذنا منها بنصيب
المصيب ، وان كانت باطلاً فلها في الحق شرك ونصيب ، لانني نقلتها كما وجدتھا،
فأنا صادق في إيرادها كما اوردها ، لتعرف ما قيل في ذلك حقاً كان او باطلاً ،
فان قائلًا لو قال : سمعت زيدا يكذب ، لأحببت ان تعرف كيفية كذبه .^١

ولم يكن الرجل جاهلاً الجهد الذي يبذله ولا قيمة معجمه ، فتراه يعدد
صفاته قائلاً : « وعلى ذلك فأنني اقول ولا احتشم ، وادعو الى النزال كل علم في
العلم ولا انهزم ، ان كتابي هذا أوحى في بابه ، مؤثر على اضرايه ، لا يقوم
بإبراز مثله إلا من أيد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائد كل طريق ، فغار تارة
وأنجد ، وطوح لاجله بنفسه فأبعد ، وتفرغ له في عصر الشيبية وحرارته ،
وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه امارات الحرص وحركته .^٢

وكان ياقوت يرى ان معجمه يجب الا يختصر قط . ودفاعه عن وجهة رأيه
ووصيته للخلف طريفة . جاء في ذلك قوله « ولقد التمس مني الطلاب اختصار
هذا الكتاب مراراً ، فأبيت ولم أجدي على قصر مهمهم اولياء ولا أنصاراً ، فما
انقذت لهم ولا ارعويت ، ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه أن لا يضيع
نصبي ، ونصب نفسي له وتعي ، بتبديد ما جمعت ، وتشئت ما لفقت ، وتفرق
ملتئم محاسنه ، ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكامنه ، باقتضابه واختصاره ،
وتعطيل جيده من حليه وانواره ، وغصبه اعلان فضله واسرارہ ، فرب راغب
عن كلمة غيره متها لك عليها ، وزاهد عن نكتة غيره مشغوف بها ، ينضي
الركاب اليها . فان احببتي فقد بررتني ، جعلك الله من الابرار ، وان خالفتني فقد
عققتني والله حسيبك في عقبى الدار .

١ - نفس المكان ص ١٢ .

٢ - نفس المكان ص ١٣ .

« ثم اعلم ان المختصر لكتاب كمن اقدم على خلق سوي ، فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الاذنين ، او كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً ، او كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً . »^١

ومع ذلك فلم ترع وصية ياقوت ورغبته . ذلك بان ابن عبد الحق انتزع من معجم البلدان مادته الجغرافية ووضعها في كتاب سماه « مرصد الاطلاع في اسماء الأمكنة والبقاع » ، كما ان السيوطي لخص معجم البلدان في كتاب اسمه « مختصر معجم البلدان » .

وقبل ان يعرض ياقوت معجمه مرتباً على حروف الهجاء ، يقدم بين يدي القارئ خمسة فصول يتناول فيها صورة الارض ، ومعنى الاقليم ، واصطلاحات جغرافية لازمة معرفتها مثل البريد والفرسخ ، وحكم الارضين من حيث الفتح والخراج والشرع في ذلك ، وجملاً من اخبار البلدان .

معجم ياقوت منجم للمعرفة الجغرافية ومثل للعمل المنظم وللنتاج الذي يستطيعه رجل صنع نفسه بنفسه ، وهو الى ذلك يعطينا صورة للعالم الاسلامي قبل ان يهدمه التتار ويعملوا على تحطيم بعض أجزائه .

ياقوت — معجم البلدان

الباب الثالث

في تفسير الألفاظ التي يتكرر ذكرها في هذا الكتاب

« فان فسرناها في كل موضع تجيء فيه أطلنا ، وان ذكرناها في موضع دون الآخر بخسنا احدهما حقه ، ويبهيم على المستفيد موضعها ، وان ألقيناها جملة

١ - نفس المكان ص ١٣ - ١٤ .

أحوجنا الناظر في هذا الكتاب الى غيره ، فبحثنا بها هنا مفسرة ، مبينه ،
مسهلا على الطالب أمرها ، وهي البريد ، والفرسخ ، والميل ، والكورة ،
والاقليم ، والمخلاف ، والالستان ، والطسوج ، والجند ، والسكة ، والمصر ،
وأباز ، والطول ، والعرض ، والدرجة ، والدقيقة ، والصلح ، والسلم ، والعنوة ،
والخراج ، والفيء ، والغنيمة ، والقطيعة .

« فأما البريد : ففيه خلاف ، وذهب قوم الى أنه بالبادية اثنا عشر ميلا ،
وبالشام وخراسان ستة أميال . وقال أبو منصور : البريد الرسول ، وبراذه
ارساله . وقال بعض العرب : الحمى يريد الموت أي أنها رسول الموت تنذره ،
والسفر ، الذي يجوز فيه قصر الصلاة ، أربعة برد ، ثمانية وأربعون ميلا بالاميال
الهاشمية التي في طريق مكة ، وقيل لدابة البريد بريد ، لسيرها في البريد
قال الشاعر :

واني أنصُ العيسَ ، حق كأنني ، عليها ، بأجواز الفلاة ، بريد

« وقال ابن الأعرابي : كل ما بين المنزلين بريد . وحكى بعضهم ماخالف به من
تقدم ذكره ، فقال : من بغداد الى مكة مائتان وخسة وسبعون فرسخاً
وميلان ، ويكون أميالاً ثمانمائة وسبعة وعشرين ميلا . وهذه عدة ثمانية وخمسين
بريداً وأربعة أميال . ومن البريد عشرون ميلا . هذه حظاية قوله . والله أعلم .
وخبرني بعض من لا يوثق به ، لكنه صحيح النظر والقياس ، انه انما سميت
خيل البريد بهذا الاسم ، لأن بعض ملوك القرس اعتاق عنه رسل بعض جهات
مملكته ، فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها ، فشكوا من مروا به من
الولة ، وأنهم لم يحسنوا معونتهم . فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم ،
فاحتجوا بأنهم لم يعلموا انهم رسل الملك ، فأمر ان تكون أذنان خيل
الرسل واعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يرون به ، ليزيحوا عنهم في
سيرهم فقبل : بريد أي قطع ، فعرب فقبل خيل البريد . والله أعلم .

« وأما الفرسنج : فقد اختلف فيه أيضاً . فقال قوم : هو فارسي معرب وأصله

فرسنك . وقال اللغويون : الفرسخ عربي محض . يقال : انتظرتك فرسخا من النهار أي طويلا . وقال الازهري : أرى ان الفرسخ أخذ من هذا . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي قال : سمي الفرسخ فرسخا ، لأنه اذا مشى صاحبه استراح وجلس . قلت : كذا . قال : وهذا كلام لامعنى له . والله أعلم . وقد روي في حديث حذيفة : ما بينكم وبين أن يصب عليكم الشر فراسخ ، الا موت رجل ، فلو قيل قد مات صب عليكم الشر فراسخ . قال ابن شميل في تفسيره : وكل شيء دائم كثير فرسخ . قلت : أنا أرى ان الفرسخ من هذا أخذ ، لأن الماشي يستطيعه ويستديمه . ويجوز في رأيي أن يكون تأويل حديث حذيفة أنه يصب عليكم الشر طويلا بطول الفراسخ ، ولم يرد به نفس الطول ، وإنما يراد به مقدار طول الفرسخ الذي هو علكم لهذه المسافة المحدودة . والله أعلم . وقالت الكلابية : فراسخ الليل والنهار ساعاتها وأوقاتها ، ولعله من الأول ، وان كان هذا هو الاصل ، فالفرسخ مشتق منه كأنه يراد سير ساعة أو ساعات ، هذا ان كان عربيا . وأما حده ومعناه ، فلا بد من بسط يتحقق به معناه ومعنى الميل معاً . قالت الحكماء : استدارة الارض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل أربعة آلاف ذراع . فالفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع أربع وعشرون اصبعاً ، والاصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها الى بعض . وقيل : الفرسخ اثنا عشر الف ذراع بالذراع المرسل ، تكون بذراع المساحة ، وهي الذراع الهاشمية ، وهي ذراع وربيع بالمرسل تسعة آلاف ذراع وستائة ذراع . وقال قوم : الفرسخ سبعة آلاف خطوة ، ولم أر لهم خلافاً في أن الفرسخ ثلاثة أميال .

« وأما الميل : فقال بطليموس في المجسطي : الميل ثلاثة آلاف ذراع بذراع الملك ، والذراع ثلاثة أشبار ، والشبر ست وثلاثون اصبعاً ، والاصبع خمس شعيرات مضمومات بطون بعضها الى بعض . قال : والميل جزء من ثلاثة أجزاء من

الفرسخ . وقيل : الميل ألفا خطوة وثلاثمائة وثلاث وثلاثون خطوة . وأما أهل اللغة فالميل عندهم مدى البصر ومنتهاه .

وقال ابن السكيت : وقيل للأعلام المبنية في طريق مكة أميال ، لأنها بنيت كل مقادير مدى البصر من الميل الى الميل ، ولا نعي بمدى البصر كل مرئي فانا نرى الجبل من مسيرة أيام ، إنما نعي أن ينظر الصحيح البصر ما مقداره ميل ، وهي بنية ارتفاعها عشر أذرع أو قريباً من ذلك ، وغلظها مناسب لطولها ، وهذا عندي أحسن ما قيل فيه .

د وأما الاقليم : فقد تقدم من القول فيه اشتقاقاً واحداً واختلافاً في الباب الثاني ما أغنانا عن إعادة ذكره ، وإنما ترجمناه هنا لأنه حري بأن يكون فيه ، فلما تقدم من أمره دللنا على موضعه ليطلب .

د وأما الكورة : فقد ذكر حمزة الاصفهاني : الكورة اسم فارسي بحت ، يقع على قسم من أقسام الالستان ، وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للالستان ، كما استعارت الاقليم من اليونانيين فجعلته اسماً للكشعر ، فالكورة والالستان واحد . قلت أنا : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة كقولهم : دارا يجرد ، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل يحملته كورة دارا يجرد ، ونحو نهر الملك ، فانه نهر عظيم يخرج من الفرات ويصب في دجلة ، عليه نحو ثلاثمائة قرية . ويقال لذلك جميعه نهر الملك ، وكذلك ما أشبه ذلك .

د وأما الخلف : فأكثر ما يقع في كلام أهل اليمن . وقد يقع في كلام غيرهم على جهة التبعية لهم والانتقال لهم ، وهو واحد بخالف اليمن ، وهي كورها . ولكل خلف منها اسم يعرف به ، وهو قبيلة من قبائل اليمن أقامت به وعمرته فغلب عليه اسمها . وفي حديث معاذ : من تحول من خلف الى خلف فعشره وصدقته الى خلف عشيرته الاول ، اذا حال عليه الحول . وقال أبو عمرو : يقال استعمل فلان على مخالف الطائف وعلى الاطراف والنواحي . وقال خالد

ابن جنبه : في كل بلد بخلاف ، بكفة بخلاف ، والمدينة ، والبصرة ، والكوفة .

قلت وهذا كما ذكرنا بالعادة والالف ، اذا انتقل الياني الى هذه النواحي سمي الكورة بما ألفه من لغة قومه ، وفي الحقيقة انما هي لغة اهل اليمن خاصة . وقال بعضهم : بخلاف البلد سلطانه . وحكي عن بعض العرب ، قال : كنا نلقى بني غير ونحن في بخلاف المدينة وهم في بخلاف اليمامة . وقال أبو معاذ : الخلف البنكردي ، وهو ان يكون لكل قوم صدقة على حدة ، فذاك بنكرده يؤدي الى عشيرته التي كان يؤدي اليها . وفي كتاب العين يقال فلان من بخلاف كذا وكذا ، وهو عند اهل اليمن كالرستاق ، والجمع بخاليف . قلت هذا الذي بلغني فيه ، ولم اسمع في اشتقاقه شيئاً ، وعندي فيه ما اذكره ، هو ان ولد قحطان لما اتخذوا ارض اليمن مسكناً وكثروا فيها لم يسعهم المقام في موضع واحد ، فجمعوا رأيهم على ان يسيروا في نواحي اليمن ليختار كل بني اب موضعاً يعمرونه ويسكنونه . وكانوا اذا ساروا الى ناحية واختارها بعضهم تخلف بها عن سائر القبائل وسماها باسم أبي تلك القبيلة المتخلفة فيها ، فسموها بخلافاً لتخلف بعضهم عن بعض فيها ، الا تراه سموها بخلاف زبيد ، وبخلاف سنحان ، وبخلاف همدان ، لا بد من اضافته الى قبيلة . والله أعلم .

وأما الاستان : فقد ذكرنا عن حمزة أنه قال : ان الاستان والكورة واحد . ثم قال : شهرستان وطبرستان وخوزستان مأخوذ من الاستان ، فيخفف بخذف الالف ، ومثال ذلك ان رقعة فارس خمسة أساتين ، احدها استان دارا يجرد ، ثم ينقسم الاستان الى الرساتيق ، وينقسم الرستاق الى الطساسيج ، وينقسم كل طسوج الى عدة من القرى ، مثال ذلك : اصطخر استان من أساتين فارس ، ويزد رستاق من رساتيق اصطخر ، ونائين وقرى معها طسوج من طساسيج رستاق يزد ، ونياستانه قرية من قرى طسوج نائين . وزعم مؤيد الري ان معنى الاستان المأوى ، ومنه يقال : وهما استان كرفت اذا أصاب موضعاً يأوي اليه .

وأما الرستاق : فهو فيما ذكره حمزة بن الحسن مشتق من روده فستا . وروده

اسم للسطر والصف والسماط ، وفستا اسم للحال ، والمعنى أنه على التسطير والنظام ، قلت : الذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد الفرس أنهم يعنون بالرساق كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كلبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد ، وهو اخص من الكورة والاستان .

« وأما الطسوج : بوزن سبوح و قدوس ، فهو اخص وأقل من الكورة والرساق والاستان ، كأنه جزء من اجزاء الكورة . كما أن الطسوج جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الدينار ، لأن الكورة قد تشمل على عدة طساسيج ، وهي لفظة فارسية أصلها تسو ، فعربت بقلب التاء طاء وزيادة الجيم في آخرها ، وزيد في تعريبها يجمعها على طساسيج . وأكثر ما تستعمل هذه اللفظة في سواد العراق ، وقد قسموا سواد العراق على ستين طسوفاً ، أضيف كل طسوج الى اسم . وقد ذكرت في مواضعها من كتابنا باسقاط طسوج .

« وأما الجند : فيجىء في قولهم ، جند قنسرين ، وجند فلسطين ، وجند حص ، وجند دمشق ، وجند الاردن ، فهي خمسة أجناد ، وكلها بالشام . ولم يبلغني انهم استعملوا ذلك في غير أرض الشام ، قال الفرزدق :

فقلت : ما هو الا الشام تركبه
كأنما الموت ، في أجناده ، البغر
« قال أحمد بن يحيى جابر : اختلفوا في الاجناد ، فقليل سمي المسلمون كل واحد من أجناد الشام جنداً ، لأنه جمع كورا ، والتجند على هذا التجمع ، وجندت جنداً اي جمعت جمعاً . وقيل : سمي المسلمون لكل صقع جنداً عينوا له يقبضون اعطياتهم فيه منه ، فكانوا يقولون : هؤلاء جند كذا حتى غلب عليهم وعلى الناحية . »^١

١ - ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٥ - ٣٨ .

أبو الفدا — تقويم البلدان

« ومن تلك البلاد وهران قال في المشترك : وهران بفتح الواو وسكون الهاء وفتح الراء المهملة وبعد الألف نون قال وهي مدينة في بلاد البربر من المغرب على ضفة البحر وهي عن تلمسان على مسيرة يوم وذكر من رآها ان عندها فريضة تلمسان وهي شرقي تلمسان بشمال قليل فيقرب ان يكون طولها يه كـ وعرضها لـ ح ن » قال الإدريسي : ومدينة وهران على قرب من ضفة البحر وعليها سور تراب متقن وهي تقابل المريّة من جزيرة الأندلس وقال أيضاً في كتاب نزهة المشتاق وعلى ستة أميال من غمات وريكة غمات إيلان مدينة صغيرة في أسفل جبل درن وهي عن غمات في جهة الشرق وبها يسكن يهود تلك البلاد وهي مدينة حسنة كثيرة الخصب كاملة النعم وكانت اليهود لا تسكن مدينة مراکش عن امر أميرها علي بن يوسف بن تاشفين .^١

« قال ابن سعيد وفي شرقي غدامس ودّان وهي جزائر نخل ومياه وأولها حيث الطول إحدى وأربعون درجة والعرض سبع وعشرون درجة وخمسون دقيقة وفي شرقها بلاد فزان وهي أيضاً جزائر نخل ومياه ولها مدنت وعمائر أكثر من ودّان والجميع الآن في طاعة ملك الكانم [وفزان بفتح الفاء والزاء المشددة والف ونون] وقاعدة فزان مدينة زويلة .

« وفي جنوبي فزان وودّان مجالات ازكان وهم برابر مسلمون وفي جنوبهم جبل طنطنة وهو كبير ممتدّ من الشرق إلى الغرب نحو ست مراحل وفي أسفله معدن الحديد الجيد وفي شمالي زويلة مدينة سرت .

« وفي جنوبي قابس الجبل العظيم الممتدّ شرقاً وغرباً فيعرف في جهتها بجبل دمر وفي جهة قفصة بجبل الأوطس وفي جهة القيروان بجبل وسلات وهو

١ — أبو الفداء «ذكر بلاد المغرب» الجزائر ، مطبعة الحكومة ، ١٨٣٩ من ١٠-١٢ .

خصيب ويحيى منه الاموال السلطانية وفي جنوبي هذا الجبل مدينة القبروان . ١٤

ومن البلاد الواقعة بين بلاد المغرب والواحات اوجلة بالجيم واللام وهي جزيرة في تلك الرمال وعمارة في تلك الصحارى فيها ماء ونخل .

قال الادريسي: ومدينة اوجلة مدينة صغيرة متحضرة فيها قوم ساكنون كثيرو التجارة ومنها يدخل الى كثير من ارض السودان نحو بلاد كوار وبلاد كوكو وارضها .

وارض برقة ارض واحدة ومياها قليلة ومنها الى مدينة زلة عشر مراحل غرباً. وزلة مدينة صغيرة ذات سوق عامر وهي حصن منيع. ومن زلة يدخل الى بلاد السودان ايضاً ومن زلة الى مدينة زويلة عشرة ايام في جهة الغرب والجنوب. ومن زلة الى سرت تسعة ايام ومن سرت الى ودان خمس مراحل وودان هذا ناحية في جنوب سرت وهي قصران وبينهما رمية سهم والقصر الذي يلي البحر خال والذي يلي البرية مسكون ولها آبار كثيرة يزرعون بها الذرة وبغربها غابات وبها توت كثير وتين ونخيل. قال: ومن ارض كوار يجلب الشب .

وارجلة حيث الطول خمس واربعون درجة وخمس وخمسون دقيقة وفي سمت ارضها مدينة سنترية حيث الطول ثمان واربعون درجة وخمسون دقيقة وهي ايضاً جزائر نخل ومياه في صحارى والجبال محدقة بها وفيها رمان يكون في اوله مرآ ثم يكون حلو اذا طاب وهي مهلكة بالوباء لأهلها فكيف الغرباء وبين البحر وبينها حيث العقبة الصغيرة ثمان مراحل وفي شرقها وجنوبها الواحات الشمالية . ٢٤

١ - نفس المكان ص ٢٢ - ٢٤ .

٢ - نفس المكان ص ٢٦ - ٢٨ .

اسفي - من الاقليم الثالث - من اقاصي المغرب

« عن ابن سعيد: ومدينة اسفي على جون من البحر داخل في البر. واسفي فرضة مراكش وهي مدينة مسورة في مستو من الارض وارضها كثيرة الحجر وليس بها ماء الا من المطر. ولها كروم وليس بها بساتين الا على دواليب وماؤها النبع غير عذب بل يشوبه ملوحة. قال الشيخ عبدالواحد: وهي تشبه حماة ودونها في القدر ولكن ليس لها نهر يجري بل كرومها ومقائنها على باب البلد. واسفي من اقليم دكالة وهي كورة عظيمة من اعمال مراكش وبين اسفي وبين مراكش اربعة ايام. »^١

طنجة - من الاقليم الرابع - من اقاصي المغرب

« ومدينة طنجة على فم بحر الزقاق، واتسع البحر عندها ثلث مجرى. فاذا شرق عنها اتسع عن ذلك. وهي مدينة اولية وقد استحدث اهلها لهم مدينة على ميل منها على ظهر جبل ليمتنعوا بها. وماء طنجة مجلوب من قني إليها من بعد. وطنجة كثيرة الفواكه لاسيما العنب والكمثرى.... واضيق ما يكون البحر من طنجة الى سبتة وقدره ثمانية عشر ميلا. وهناك موضع يقال له قصر المجاز ومن طنجة الى قصر المجاز مرحلة لطيفة ومن قصر المجاز الى سبتة كذلك. »^٢

سبتة - من الاقليم الرابع - من اقاصي المغرب

« وسبتة مدينة بين بحرين البحر المحيط وبحر الروم وهي مورد البرّين

١ - نفس المكان ص ٣٦ .

٢ - نفس المكان ص ٤٨ .

بر العدو وبر الاندلس . وهي مدينة حطّ وإقلاع وهي في دخلة من البر في البحر ومدخلها من جهة الغرب وهو ضيق والبحر محيط بأكثرها ، ولو شاء أهلها لوصلوا البحر حولها وجعلوها جزيرة . واسوارها عظيمة من صخر ومينائها بشرقيها والبحر عندها ضيق وإذا كان الصحو ابصرت منها الجزيرة الخضراء من برّ الاندلس . وماؤها مجلوب ولها صهاريج من المطر .^١

فاس - من اواخر الاقليم الثالث - من المغرب الاقصى

« وفاس مدينتان يشق بينهما نهر . وفي فاس عدة عيون تجري . وللمدينتين ثلاثة عشر باباً والمياه تجري بأسواقها وديارها وحماماتها وليس بالمغرب ولا بالمشرق مثلها في هذا الشأن . وهي مدينة محدثة اسلامية . ونقل ابن سعيد عن الحجازي انهم لما شرعوا في حفر هذه المدينة وجدوا فأساً في موضع الحفر فسمّيت بذلك . قال وعلى انهارها داخل المدينة نحو ستماية حجر أرحى تدور بالماء دائماً . وأهل فاس مخصوصون برفاهية العيش . وفاس قلعة بارفع مكان بها ويشق القلعة نهر وفي فاس ثلاثة جوامع يخطب فيها . ومنها الى سبتة عشرة ايام ومخرج نهرها نصف يوم من فاس يجري في مرج وازاهر حتى يدخلها . قال في كتاب الاطوال وفاس قصبة طنجة ثم ذكر بعد ذلك انه يقال فاس القديم .^٢

تلمسان - من اوائل الاقليم الرابع - اول المغرب الاقصى متاخمة الاوسط

« وتلمسان مدينة مشهورة مسورة في سفح جبل ولها ثلاثة عشر باباً وماؤها مجلوب من عين على ستة اميال منها ، وفي خارجها انهار واشجار . ويستدير النهر

١ - نفس المكان ص ٥٠ .

٢ - نفس المكان ص ٥٢ - ٥٤ .

بقبلتها وشرقيها ويدخل فيه السفن اللطاف حيث يصبّ في البحر . وبقعتها شريفة كثيرة المرافق وهي قاعدة مملكة ولها حصون كثيرة وفرض عديسة أشهرها هنين ووهران . وهنين يقابل المرية من الاندلس ووهران حصينة ولها مياه سألحة وهي على ثمانين ميلاً من تلمسان وملوك تلمسان من بني عبد الواد من زناتة وفي غربي تلمسان بانحراف الى الجنوب مدينة فاس [قال الادريسي ومن تلمسان الى تاهرت اربع مراحل] . ١٤

بجاية - من اوائل الاقليم الرابع - من المغرب الاوسط

« وبجاية هي قاعدة المغرب الاوسط ولها نهر على شاطئه البساتين والمنازة في شرقي بجاية ويقابل بجاية من الاندلس طرطوشة وعرض البحر بينها ثلاثة مجار . وغربي بجاية جزائر بني مزغنتان وهي فرضة مشهورة من عمل بجاية . . . ومزغنتان بفتح الميم وسكون الزاء . وكسر الغين المعجمتين ثم نونان بينها الف الاولى مشددة عن الشيخ شعيب وفي آخر حد مملكة بجاية وشرقي قسطينة مرسى الحزر المحصوص بالمرجان وامام هذا المرسى جزيرة سردانية . » ١٥

قسطينة - من اواخر الاقليم الثالث - من المغرب

الاوسط من معاملة بجاية

وعن بعض المتأخرين ان بعد السين وقبل الطاء نون وحينئذ بضم السين وسكون النون

« وبقسطينة نهر يصبّ في خندقها العظيم ويسمع لذلك دوي هائل ويرى النهر في قعر الخندق مثل ذوابة النجم لشدة ارتفاع قسطينة عن خندقها . وقسطينة

١ - نفس المكان من ٧٠ .

٢ - نفس المكان من ٧٦ .

على آخر مملكة بجاية واول مملكة افريقية . قال في نزهة المشتاق : وقسطينة عامرة وبها اسواق وتجارات والحنطة تقيم في مطاميرها مائة سنة لاتفسد . وهي على قطعة جبل منقطع مرتفع فيه بعض الاستدارة لا يتوصل اليه الا من جهة بابه من غربيها ليس بكبير السعة . ويحيط بقسطينة الواد من جميع جهاتها وبينها وبين مدينة مسيلا ثمانية عشر ميلا . ومدينة مسيلا حسنة كثيرة الاشجار والثمار ومياها عذبة وبين مسيلا وقسطينة جبل متصل .^١

سطيف - من الاقليم الثالث - من المغرب الاوسط

« ومدينة سطيف مدينة كبيرة بين تاهرت وبين القيروان وهي خصبة ولها كورة تشتمل على قرى كثيرة سكانها من البربر . قال الشريف الادريسي : وحصن سطيف كبير القطر كثير الخلق كالمدينة ، وهو كثير المياه والشجر المثمر بضروب من الفواكه . ومنها يحمل الجوز لكثرتة الى سائر البلاد وهو بالغ الطيب . وبين سطيف وقسطينة اربع مراحل . وبقرب سطيف جبل يسمى انكجان وبه قبائل كتامة وبه حصن حصين وبينه وبين بجاية مرحلتان بجاية في الشمال والحصن في الجنوب .^٢ »

القيروان - من الاقليم الثالث - من افريقية

« ومدينة القيروان محدثة بنيت في صدر الاسلام وهي في جنوبي الجبل والجبل من شماليها وهي في صحراء تصلح لجمال العرب ، وكانت قاعدة افريقية في صدر الاسلام وهي اليوم تابعة لتونس . وشرب اهلها من الآبار وليس لها ماء جار وهي

١ - نفس المكان ص ٨٨ - ٩٠ .

٢ - نفس المكان ص ٩٢ .

في الوطأة . قال في العزيزي ومدينة القيروان اجل مدن المغرب وكانت عليها سور عظيم فهدمه زيادة الله بن الأغلب لما ثار على عمار بن مجالد . وشرب اهلها من ماء المطر يجتمع لها من الشتاء في برك عظام تسمى المواحل ولها واد في قبلة المدينة تأتي فيه ماء ملح يستعمله الناس فيما يحتاجونه .^١

طلميثا - من الاقليم الثالث - مرسى برقة على البحر وعلى طرف الغابة

« وطلميثا فرضة مشهورة وبها قصر فيه يهود تحت خفارة العرب ومنها تحمل المراكب الشعير والعسل الى غيرها وقصر اليهود المذكور على هيئة برج كبير وعدة اليهود الذين به الى يومنا هذا ما يزيد على مائتي يهودي وطلميثا عن الاسكندرية على نحو مسافة شهر ، والمراكب ترسي قبالة قصر اليهود بالقرب منه وتحضر العرب وتبايعهم بالبضائع مقيضة .^٢ »

« أوال . جزيرة بالقرب من القطيف وهي في بحر فارس على مسيرة يوم للريح الطيبة عن القطيف . وبها مغاص مفضل على غيره . وقطر هذه الجزيرة مسيرة يومين من كل جهة . وبها تقدير ثلاثمائة ضيعة وما يزيد . وبها كروم كثيرة الى الغاية ونخيل وأترج . وبها صحراء ومراع ومزدرعها على عيون بها وهي حارة جداً .^٣ »

« بانياس . من اعمال دمشق بانياس . اسم لبلدة صغيرة ذات اشجار ومحمضات وغيرها وانهار . وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة الى الجنوب . والصبيبة اسم لقلعتها وهي من الحصون المنيعة . قال في

١ - نفس المكان ص ١١٤ .

٢ - نفس المكان ص ١٤٢ .

٣ - ابو الفدا ، منقول عن شيخو ، لويس ، « مجالي الأدب في حدائق العرب » ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٨٨٢ ج ١ ص ١٨٩ .

العيزي : ومدينة بانياس في لحت جبل الثلج . وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالغمامة لا يعدم منه صيفاً ولا شتاء . «^١

« بدليس . روي عن بعض أهل تلك البلاد : وبدليس في أرمينية بين ميفارقين وبين خلاط . وهي مدينة مسورة وقد خرب نصف سورها . والمياه تخترق المدينة من عيون في ظاهرها . ولها بساتين في واد . وهي دون حماة في القدر . وهي بين جبال تحف بها . وبردها وشتاؤها شديد وثلوجها كثيرة . قال ابن حوقل : وهي بلد صغير عامر كثير الخير خصب . قال في العيزي : وبينها وبين خلاط سبعة فراسخ . «^٢

« تدمر . بليدة ببادية الشام من أعمال حمص وهي في شرقي حمص . وأرض تدمر غالبها سباح وبها نخيل وزيتون . وبها آثار عظيمة أولية من الأعمدة والصخور . وهي عن حمص على نحو ثلاث مراحل . وبينها وبين دمشق تسعة وخمسون ميلاً . «^٣

« حماة . مدينة أولية وبلدة قديمة وهي من انزه البلاد الشامية . والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشمالها . ولها قلعة حسنة البناء مرتفعة . وفي داخلها الأرحية على الماء . وبها نواعير على العاصي تسقي أكبر بساتينها . ويدخل منها الماء الى كثير من دورها . ونهر حماة يسمى الأرنبط والنهر المقلوب لجريه من الجنوب الى الشمال . ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقي الاراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تركب البلاد ونهر حماة لا يسقي الا بنواعير تنزع منه الماء . وهو يجري بكليته من الجنوب الى الشمال وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك تسمى الرأس في الشمال عن بعلبك على نحو مرحلة عنها . ويسير

١ - نفس المكان من ١٩٠ - ١٩١ .

٢ - نفس المكان من ١٩١ .

٣ - نفس المكان من ١٩٥ .

من الرأس شمالا حتى يصل الى مكان يقال له قائم الهرمل بين جوسية والرأس .
ويمر في واد هناك وينبع من هناك غالب النهر المذكور من موضع يقال له مغارة
الراهب . ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوباً ومغرباً ويمر على سور
انطاكية حتى يصب في بحر الروم عند السويدية . « ١

« الشوبك . من الشراة في بلاد الشام بلد صغير كثير البساتين . وغالب
ساكنيه النصارى . وهو شرقي الغور وهو على طرف الشام من جهة الحجاز .
وينبع من ذيل قلعتها عينان احدهما عن يمين القلعة والأخرى عن يسارها
كالعينين للوجه . وتخترقان بلديها ومنهما شرب بساتينها . وهي في واد غربي
البلد . وفواكهها من المشمش وغيره مفضلة وتنقل الى ديار مصر . وقلعتها مبنية
بالحجر الأبيض وهي على تل مرتفع ابيض مطل على الغور من شرقيه . « ٢

ذكر الجانب الشمالي من الارض

« ومن بلاد تلك الجهات مملكة بولية وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون
البنادقة من غربيه وهي تقابل مملكة الباسليسة التي من البر الآخر . ومملك
بولية في زماننا يقال له الريدشار ، ويقال لبولية أنبولية أيضاً . وغربي بلاد
بولى بلاد قلفرية ويقال لها قلفورية بالواو ايضاً وهي داخلة في مملكة الريد شار
صاحب بولية . واهل قلفرية يونان وهي بلاد على ساحل بحر الروم . ومن تلك
الممالك مملكة الباسليسة وهي مملكة على بحر الروم عند فم جون البنادقة تقابل
مملكة بولية التي من البر الآخر ، وبلاد الباسليسة هي من فم جون البنادقة الى جهة
قسطنطينية . والباسليسة امرأة هي صاحبة هذه البلاد في زماننا . ومن تلك
بلاد المرا وهي مملكة تبندىء من فم الخليج القسطنطيني على ساحل بحر الروم

١ - نفس المكان ص ١٩٧ - ١٩٨ .

٢ - نفس المكان ص ٢٠٤ .

وتمتد مغرباً وتشتمل على قطعة من ساحل الروم وعلى بلاد وجبال خارجة عن البحر. وهذه المملكة مناصفة بين صاحب قسطنطينية وبين جنس من الفرنج يقال لهم القيتلان. ويجاور هذه المملكة من غربيها بلاد الملقجوط، وبلاد الملقجوط غربي بلاد المرا على ساحل بحر الروم وهي من أعمال قسطنطينية والملقجوط جنس من الروم لهم لسان يتفردون به. وغربي بلاد الملقجوط بلاد اقلرنس وهي بلاد أهلها يونان تحت حكم الباسليسة وهي على ساحل بحر الروم غربي بلاد الملقجوط وهي واقعة بين الملقجوط وبين الباسليسة. قال الشريف الادريسي: امتداد كنيسة رومية ٦٠٠ ذراع في مثله وهي مسقفة بالرصاص ومفروشة بالرخام وفيها أعمدة كثيرة عظيمة وعلى عيني الداخل من آخر أبوابها حوض رخام عظيم للعمودية وفيه ماء جار أبداً، وفي صدر الكنيسة كرسي من ذهب يجلس عليه البابا، وتحت باب مصفح بالفضة يدخل منه الى أربعة أبواب واحد بعد آخر يفضي الى سرداب فيه مدفون بطرس حواري عيسى عم. ولهذه المدينة كنيسة أخرى مدفون فيه بولص. وبحذاء قبر بطرس حوض رخام منقوش عظيم فيه فرش الكنيسة وستورها التي تزين بها اعيادهم. وفي خارج الكنيسة عند ركن من اركانها عمود عظيم على اربع قواعد من نحاس مربعة كل وجه منها ١٣ ذراعاً، وكلما صعد العمود يدق وفي اعلاه عمود نحاس في اعلاه كرة مذهبة يكون قطرها نحو باع ولها بريق ولعان. وتظهر من ١٣ ميلاً فيعلم بها موضع الكنيسة...

« وما يقع في شمالي العمارة بلاد الروس وهم شمالي مدينة بلار المذكورة في الجدول وشمالي الروس القوم الذين يبايعون مقايبة. قال بعض من سافر الى تلك البلاد: انهم يتصلون بساحل البحر الشمالي. قال فاذا وصل القفل الى تخومهم اقاموا حتى يعلموا به. ثم يتقدمون الى المكان المعروف بالبيع والشراء ويحيط كل تاجر بضاعته معلمة ويرجعون الى منازلهم فيحضر اولئك القوم ويضعون قبالة تلك البضاعة السمور والثعلب والوشق وما شاكل ذلك. ويدعونهم ويمضون. ثم يحضر التجار فمن اعجبه ذلك اخذه والا تركه حتى يتفصلوا على الرضى.

« قال ابن سعيد : وعلى ساحل البحر المحيط في الاقليم السابع بلاد بيطو وسكانها الفرنج ومنها يحتاز الملوك لأفرنسة اذا عدموا في أفرنسة عادة متوالية لهم . وفي شمالي بيطو مصب نهر بريس . . . وفي وسط هذا النهر وجانبه مدينة بريس قاعدة أفرنسة وهي ثلث قطع كما هي مدينة الباب فالوسطى التي هي الجزيرة لفرنسيس سلطان الفرنج والجنوبية للهند الشمالية لسائر قوامسهم وتجارهم ورعيته . وهذا النهر ينزل من جبل دنبيوس الكبير ويقال له في الشمال جبل مليحة . ومن شرقيه منبع نهر دنبيوس الذي يقال انه أكبر من النيل ومن جيحون . وهو مشهور بنهر دونا ويسميه الترك طننا . وعلى جانبه وفي جزره الى مصبه في بحر القسطنطينية من المدن والعمائر الكثيرة الا أنها معجزة الاسماء خاملة الذكر عندنا . »^١

الادريسي — نزهة المشتاق

« بيت لحم . سرت من بيت المقدس الى مدينة بيت لحم فوجدت على طريقي عين سلوان . وهي العين التي ابرأ فيها السيد المسيح الضرير الأعمى ولم تكن له قبل ذلك عينان . وبقرها بيوت كثيرة منقورة في الصخر . وفيها رجال قد حبسوا أنفسهم فيها عبادة . واما بيت لحم وهو الموضع الذي ولد فيه السيد المسيح فبينه وبين المقدس ستة أميال . وفي وسط الطريق قبر راحيل ام يوسف وام ابن يامن ولدي يعقوب . وهو قبر عليه اثنا عشر حجراً . وفوقه قبة معقودة بالصخر . وبيت لحم هناك وفيها كنيسة حسنة البناء متقنة الوضع فسيحة مزينة الى ابعد غاية . حتى انه ما أبصر في جميع الكنائس مثلها بناء . وهي في وطأ من الارض ولها باب من جهة المغرب وبها من اعمدة الرخام كل

١ - أبو الفدا ، منقول عن بلاشير ، « منتخبات من اثار الجغرافيين في القرون الوسطى » بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٢ ص ٢٩٢ - ٢٩٧ .

مليحة . وفي ركن الهيكل في جهة الشمال المغارة التي ولد بها السيد المسيح وهي تحت الهيكل . وداخل المغارة المذود الذي وجد به . وإذا خرجت من بيت لحم نظرت في الشرق منه كنيسة المليكة الذين بشروا الرعاة بمولد السيد المسيح .^١

« بيروت . مدينة على ضفة البحر عليها سور حجارة كبيرة واسعة . ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد يقطع ويستخرج منه الكثير ويحمل الى بلاد الشام . وبها غيضة اشجار صنوبر مما يلي جنوبها تتصل الى جبل لبنان . وتكسیر هذه الغيضة اثنا عشر ميلاً في مثلها . وشرب اهلها من الآبار . ومنها الى دمشق يرمون . قال ابن بطوطة : ومدينة بيروت حسنة الاسواق . وجامعها بديع الحسن . وتجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد . قال ابو الفداء : وهي على ساحل البحر وهي ذات برجين ولها بساتين ونهر وهي خصبة . وكان بها مقام الامام الأوزاعي الفقيه . ولها ميناء جليل . وبينها وبين جبل ثمانية عشر ميلاً . »^٢

« دمشق . مدينة من أجل بلاد الشام وأحسنها مكاناً وأعدلها هواء وأطيبها ثرى وأكثرها مياهاً وأغزرها فواكه وأعمها خصباً وأوفرها مالا وأكثرها جنداً وأشخصها بناء . ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة وطول الغوطة مرحلتان في عرض مرحلة بها ضياع كالدن . ومدينة دمشق جامعة لصنوف من محاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصفة والقديم المثال الذي يحمل منها الى كل بلد ويتجر به منها الى كل الآفاق والأمصار المصاغة لها والمتباعدة عنها . ولدمشق في داخلها على أوديتها أرحاء كثيرة . وأما الحلالات فبها منها ما لا

١ - الادريسي ، منقول عن شيخو ، نفس المكان ص ١٩٣ - ١٩٤ .

٢ - نفس المكان ص ١٩٤ - ١٩٥ .

يوجد بغيرها ولا يوصف كثرة وطيباً وجودة. وصناعاتها نافقة وتجاراتها رائجة وهي من أغنى البلاد الشامية . ومنها الى مدينة بعلبك في جهة الشرق مرحلتان .^١

من مؤلفين آخرين

« بيت المقدس . هي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي . بناها داود وفرغ منها سليمان . . . فأوحى الله تعالى اليه أن سألني حاجتك . فقال : يا رب أسألك أن تغفر لي ذنبي . فقال : لك ذلك . قال : وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه . فقال : لك ذلك . ثم ضرب الدهر ضرباته واستولت عليها الأمم وخربوها . وقد عمرها احد ملوك الفرس . فصارت أعمر مما كانت وأكثر أهلاً . والتي عليها الآن أرضها وضياعا جبال شاهقة . وليس بقربها ارض وطينة . وزروعها على أطراف الجبال . وأما نفس المدينة ففي فضاء في وسط ذلك وارضها كلها حجر . وفيها عمارات كثيرة حسنة وشرب اهلها من ماء المطر ليس فيها دار الا وفيها صهريج . مياهها تجتمع من الدروب . ودروبها حجرية ليست كثيرة الدنس . لكن مياهها رديئة . وفيها ثلاث برك بركة بني اسرائيل وبركة سليمان وبركة عياض . قال محمد بن أحمد البشاري المقدسي : انها متوسطة الحر والبرد وقل ما يقع فيها ثلج . ولا ترى أحسن من بانياتها ولا أنظف . ولا أنزه من مساجدها . وقد جمع الله فيها فواكه الغور والسهل والجبل . والأشياء المتضادة كالأترج واللوز ، والرطب والجوز ، والتين والموز .^٢ »

« ملطية . بلدة من بلاد الروم ذات أشجار وفواكه وأنهار ويحتف بها

١ - نفس المكان ص ١٩٨ - ١٩٩ .

٢ - الغزويني ، « اثار البلاد واخبار العباد » ، غوثجن ، ١٨٤٨ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ (باختصار) .

جبال كثيرة الجوز . وجميع الثمار مباحة لا مالك بها . وهي قاعدة الثغور وهي شمالي الجبل الدائر الذي سيس في غربيه . وهي بلدة مسورة في بسيط والجبال تحف بها من بعد . ولها نهر صغير عليه بساتين كثيرة يسقيها ويمر بسور البلد . وهي شديدة البرد وهي في الجنوب عن سيواس . وللطية أيضاً قني^١ تدخل البلد وتجري في دوره وسككه . والجبال محيطة بها على بعد منها .^١

«مراكش . من المغرب الأقصى محدثة بناها يوسف بن تاشفين في ارض صحراوية . وجلب اليها المياه واكثر الناس فيها البساتين فكثرت وخصها . ولا يكاد الغريب يسلم فيها من الحمى . وجنوبي مملكة مراكش جبل كدرة^٢ وشمالها مملكة سلا وغربها البحر المحيط . وشرقها الجهات التي بين سجلماسة وفاس . ودور مراكش سبعة أميال ولها سبعة عشر بابا . وحرها شديد وهي في شمالي أغمات بميلة يسيرة الى الغرب وبينها نحو خمسة عشر ميلا .^٢

«أجدابية . مدينة في المغرب وهي مدينة كبيرة في صحراء . أرضها صفا وآبارها منقورة في الصفا طيبة الماء وبها عين ماء عذبة . ولها بساتين لطاف ونخل يسير وليس بها من الأشجار الا الأراك . وبها جامع حسن البناء بناه أبو القاسم بن عبيد الله له صومعة مثمرة بديعة العمل وحمامات وفنادق كثيرة وأسواق حافلة مقصودة . وأهلها ذو يسار أكثرهم أقباط . ولها مرسى على البحر يعرف بالمحور لها ثلاثة قصور بينه وبينها ثمانية عشر ميلا . وليس لمباني مدينة أجدابية سقوف خشب . انما هي أقباء طوب لكثرة رياحها ودوام هبوبها . وهي راخية الأسعار كثيرة التمر يأتيها من أوجلة أصناف التمر .^٣

١ - ابن سعيد ، منقول عن شيخو ، نفس المكان ص ٢١٢ .

٢ - نفس المكان ص ٢٣١ .

٣ - البكري ، منقول عن شيخو ، نفس المكان ص ٢٢٧ .

« تهوذا . من المغرب الأقصى مدينة آهلة كثيرة الثمار والنخيل والزرع . وهي مدينة أولية بنيانها بالحجر . ولها اموال كثيرة وحولها رibus قد خندق على جميعه واستدار بالمدينة . وبها جامع جليل ومساجد كثيرة واسواق وفنادق ونهر ينصب في جوفها من جبل اوراس . سكانها العرب وقوم من قريش . وان كانت بينهم وبين من يجاورهم حرب ارسلوا ماء النهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشربوها منه وامتنعوا من عدوهم به . وفي المدينة بئر لا تنزع اولية وآبار كثيرة طيبة . واعدائهم هواره ومكناسة . واهل تهوذا على مذاهب اهل العراق . وحولها بساتين كثيرة من اصناف الثمار وضروب البزر يحود بها البزور وحوايلها ازيد من عشرين قرية . »^١

الاقليم الرابع

« قال ابن فاطمة هو عندهم اعدل الاقاليم واحسنها حيوانا ونباتا والكلام في تفضيله يطول وهو اوسط الاقاليم السبعة وخير الامور اوساطها وسكانه بين البياض والحمرة والصفرة . ولما كان الاقليم الثالث في جنوبيه والاقليم الخامس في شماليه حكم لهما بقرب الاعتدال ولاحت فيهما مشابهة من الرابع . وعرض هذا الاقليم الرابع ٣٦ درجة ووسعه من جنوبيه الى شماليه ٦ درجات و ١٩ دقيقة .

الجزء الاول

« يقع فيه من جزائر السعادات الاربع التي رسمت ويصعد البحر المحيط في ساحله الى حيث الطول ٦ درجات و ٣٠ دقيقة فيقع هنالك مازنغان وهي

١ - نفس المكان ص ٢٢٩ .

فرضة مشهورة تحمل منها (المراكب) القمح الى سبتة وغيرها وبينها وبين اسفي (فرضة مراكش) ٥٠ ميلا ولها طرف يدخل في البحر ١٢ ميلا وفي شمالها يصب نهر ام ربيع (المشهور) تدخله المراكب المتوسطة . وعلى جنوبها مدينة ازموار على ميلين من (البحر) سكانها اكثرهم صنهاجة وهي قاعدة لولاتها وبينها وبين طرف امازيغان ١٢ ميلا وفي شمالي هذا النهر على ٥٠ ميلا من فرض تامسنا المشهورة بالفتح آنفاً ؛ ومعظم سكانها برغواطة . وفي شمالها ٦٠ ميلا مصب على (نهر سلا وحلقه صعب على دخول المراكب) لا تهتدي الى مسالكه غير قوم يعرفون بوقاصة وينسبون الى سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه) وعلى جانبه الجنوبي عند المصب (مدينة) رباط الفتح (التي بناها عبد المؤمن اولا فتممها على منزع الاسكندرية المنصور من بني عبد المؤمن ، وعزم ان يجعلها عوضاً من مراكش فعاجلته المنية) . وفي مقابلتها على شمالي النهر مدينة سلا (المشهورة حيث الطول ٧ درجات و ١٠ دقائق والعرض ٣٣ درجة و ٣٠ دقيقة . وفي شمالها مصب نهر المعمورة) وهو من انهار المغرب مخصوص بالحوث الطيب المعروف عندهم بالشابل الذي يكون في اختلاط الماء المالح بالحلوي يحمل من هنالك الى الاقطار . وبين المصبين ١٦ ميلا ويقال له ايضاً نهر صبو . وهو ونهر سلا لا يعبران الا على جسر وفي شماليه على ٦٠ ميلا يصب نهر القصر وهو مشهور عند المسافرين (في البحر) يأوي اليه المراكب المتوسطة حتى يستقيم لها الهواء في البحر المحيط (وعلى جانبه الجنوبي عند البحر العرائش وعلى جانبه الشمالي تشمس وكانتا مدينتين في مدة العلويين ثم صارت قريتين بالفتن) . ومن هذا المصب الى مدينة ازبلا على البحر المحيط ٢٠ ميلا (وهي محل خط واقلاع) حيث الطول ٨ درجات غير ٢٠ دقيقة والعرض ٣٤ درجة و ٤٠ دقيقة ومنها يشرق المراكب (قليلاً قليلاً) الى فم الزقاق وهو يدخل بحر الاسكندرية من البحر (المحيط) : في جانبه الجنوبي طرف اسبرثال داخل في البحر (و) على جانبه الشمالي طرف الأغر (على ذلك المنزعة) وطالما تكسرت (عليها) المراكب في طول البحر (الملاطمة)

الامواج على الطرفين) وانزعاج دخول الماء او خروجه والمسافة بين الطرفين ٤٠ ميلاً ، وكذلك من ازيلا الى طرف اسبرتال . ثم الزقاق بين (بر) العدو و بر الاندلس فيكون قدر ١٨ ميلاً (وطوله الى جبل الميناء الذي على سبتة ٤٤ ميلاً . فمن طرف اسبرتال الى مدينة طنجة (المشهورة ٤ اميال وهي) على البحر المحيط ١ وقال البكري ان اتساع البحر عندها ٣ مجرى وهو اضيق بقليل عند ما يشرق عنها الى ان يكون عند قصر الحجاز ١٨ ميلاً وبينه وبين طنجة مرحلة صغيرة وكذلك بينه وبين سبتة . وطول (طنجة) ٨ درجات و ٣١ دقيقة وعرضها ٣٥ درجة و ٣٠ (دقيقة ويكون) سبتة (المشهورة) حيث الطول ٩ درجات والعرض ٣٥ درجة و ٣٠ دقيقة . (وهذه المدينة بين بحرين وهي ركاب البرين تشبه الاسكندرية في كثرة الخط والاقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يتتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة ولا يخرجون صاحبه الى نقاص . وهي الآن راجعة الى السلطان بل يدبرها الفقيه العزفي وعسكرها في اسطولها ومجريها في المراكب التي ترد عليها من البحر المحيط ومن ريف غماره وآخر هذا الجزء) جزيرة قادس (وهي) صغيرة قدر ١٢ ميلاً (وموضوعها حيث نصفها الجنوبي في الأقليم الرابع والنصف الشمالي في الخامس وطولها قريب من طنجة . وتقابل قصر الحجاز من فرض الاندلس طريف وامامها في البحر جزيرة (صغيرة) يعرفها (المسافرون بها فيقولون جزيرة طريف كما يقولون الجزيرة) الخضراء و (انما) هي مدينة امام سبتة في (بر) الاندلس (لكن في بحرها جزيرة صغيرة خضراء عرفت بها وامام هذه المدينة في جنوبها جبل الفتح المشهور الذي فتحت منه الاندلس ، هكذا يعرفه الناس واسمه في الكتب جبل طارق ، وهو مولى موسى بن نصير فاتح الاندلس . وهذا الجبل يظهر في البحر من سبتة وهو عال في البحر وفيما بينه وبين الخضراء الميناء المشهورة فيها يشق مراكب سبتة وغيرها مما للنوء عليها من سبيل والبحر من شرقي سبتة يتيان الى الجنوب ويمر متقارباً مع خط الأقليم الخامس بجزيرة الاندلس . فأول ما يلقاك في بر

العدوة بعد سبتة (جبل غمارة العالي الطويل (العريض) فيه (من) الامم
 (ما لا يحصيهم الا الله تعالى ومنه يحمل خشب الارز الذي ينشأ به الاساطيل
 ويصرف في الانية الملوكية الى الآفاق وصمغه الغار يقون السيل . وبينه
 وبين سبتة ٢٦ ميلاً والى نهر لو النازل منه ١٠ اميال وهو كبير يدخله المراكب
 ويسير فيه ومنه الى (مدينة بادس (٧٠ ميلاً وهي من اشهر فرض غمارة
 وذلك الساحل يعرف بالريف) ومن بادس الى المزمة (مثل ما) بين بادس
 الى سبتة ١٠٠ ميلاً (وهي فرضة مشهورة) ومنها الى (مدينة) مليلة ١٠٠
 ميل ويصب في شريقها على ١٠ اميال نهر ملوية الكبير (المشهور الذي
 ينزل فيه نهر زير وينزل فيه نهر سجماسة فيكون مسافته من منبع نهر
 سجماسة في الجنوب نحو ٨٠٠ ميل) . ومنها الى ارسقول فرضة تلمسان (وحيث
 يصب نهرها الذي يصب فيه نهر يسر الكبير) ٧٠ ميلاً ومنه الى فرضة هنين
 ١٢ ميلاً ومنها الى فرضة وهران (المشهورة) ٨٠ ميلاً (وهي آخر فرضة هذا
 الجزء من المدن العدوية ومينائها مشهورة مأمونة في الهول) . ويقابل مدينة
 بادس من بر الاندلس مالقة وهي مع خط الاقليم الخامس وعرض البحر بينها
 درجة (ومنها يحمل التين المالح والوز إلى الاقطار . ويقابل المزمة فرضة
 المنكب وهو مع الخط المذكور وهي في ساحل غرناطة وعرض البحر هنالك
 مجرى . ويقابل ارسقول (مدينة) المرية (المشهورة التي كانت بها دار صناعة
 الاندلس وديوانها وهي ايضاً مع الخط ويصنع فيها وفي مالقة وفي مرسية ثياب
 الحرير الموشاة بالذهب ذات الصنائع الغريبة) . وعرض البحر هنالك درجتان
 (فتقع) تلمسان (المشهورة) حيث الطول ١٤ درجة و ٤٠ دقيقة والعرض
 ٣٣ درجة و ٤٢ دقيقة (وبينها وبين ارسقول ٢٠ ميلاً وبينها وبين هنين ٣٠
 ميلاً . وهي الآن قاعدة بني عبد الوادي من زناقة ومنها يحمل ثياب
 الصوف المفضلة على حسناتها المصنوع في سائر المغرب ويحمل منها الجمل الخيل
 والسروج وما يتبع ذلك ، والاندلسيون يقولون كانوا من مدائن الاندلس مياهها
 وبساتينها وكثرة صنائعها . ويقع في غربيها بانحراف الى الجنوب مدينة (الرباط

حيث الطول ١٢ درجة والعرض ٣٣ درجة غير (١٠) دقائق . وفي غربيها (مدينة) فاس حيث الطول ١١ درجة والعرض ٣٣ درجة وهي من خواص المغرب الملاء بالخيرات والصنائع الغربية . ويقال ان فيها من العيون عدد ايام السنة) ويسقيها نهرها الآتي من المرج (الذي في شرقيها ويصب في نهر مهبو الذي يمر على شمالها) . وفي شرقي (فاس) جبل مديونة (يمتد الى الجنوب) وفيه تعمل البرانس المديونية (التي لا ينفذها المطر ويختلط هذا الجبل من جنوبيه بجبل درن ومن شماله يجبال فازا وجبال غمارة ومن الجبال التي في جنوبي فاس ينزل نهر سلا ومنها في جنوبي هذا النهر ينزل نهر ام ربيع ومن الجبال التي في شمالي فاس ينزل نهر سبو ، وكلها تصب في بحر المحيط على ما رسم . وفي شمالي فاس مدينة) مكناسة المشهورة الكثيرة الزيتون (وينزل من جبال غمارة التي في شرقيها نهر فلفل ويمر جنوبها ويصب في نهر سبو وبينها وبين فاس ٤٠ ميلا . وفي غربيها بانحراف الى الشمال مدينة) القصر (ويعرف بقصر عبد الكريم وبقصر كتامة وهم باديته وموضوع هذه المدينة) حيث الطول ٨ درجات و ٣٠ دقيقة والعرض ٣٤ درجة و ٤٠ (دقيقة وهو على شمالي النهر المنسوب اليه وبينه وبين سبتة ٤ ايام) وبين نهر سلا ونهر سبو جبل فازاز وهم برابر لهم في الخيل نتاج مشهور ولهم قلعة في هذا الجبل يخزنون فيها طعامهم ومحارثهم في تلك الجهات الى جبل مديونة ومجاز الزقاق حيث يجري نهر سلا الى جهة تادلا . وفي تلك الجهة (معدن غرام الكثير الفضة واخوه معدن رقيدر) الذي في جنوبي جبل درن . وفي شرقي جبل مديونة جبال مدغرة وهم معظم كومية وهم من قبيل عبد المؤمن . ومن اعلى هذه الجبال حيث الطول ١٣ درجة والعرض ٣٧ درجة ينبع نهر ملوية الكبير الذي تقدم ذكره وفي شرقي جبال مدغرة جبال يسد ، ومنها ينبع نهر يسر المتقدم الذكر ويتصل بها من شرقيها جبل ونشريس الذي تعمل فيه البسط الملوكية وهي لبني يوحين من زناتة ممتد بقرب خط الاقليم الثالث ومنه ينبع نهر سلف الكبير المشهور ويخرج من هذا

الجزء الى الثاني ويصب في البحر عند مستغانم وهو مثل النيل يزيد في ايام وينقص الانهار وعليه مجالات مغراوة من زفاعة . »

الجزء الثالث

« من الاقليم الرابع اول ما يلقيك منه) جزيرة جربة (المشهورة بالزيت والزبيب والرطب والتفاح والاكسيه الملاح وهي) في شرقي قابس (و) بينها وبين النهر مجاز ضيق (يعبر بالزوارق) وبين هذا المجاز وقابس مرحلة . (وطول هذه الجزيرة مرحلة وسكانها خوارج وفي شمالها جزيرة انبدوشية خالية تأوي اليها المراكب ويسقى منها الماء ، وفي شمالها تقع صقلية . ومن شرقي جربة وجنوبها يقهر البحر الى الشمال حتى تكون مدينة) طرابلس (المشهورة عليه) حيث الطول ٣٨ درجة والعرض ٣٢ درجة و ٢٠ دقيقة (وفي شرقيها على مرحلتين جبل نفوسة المتصل بجبل دمر وما يتصل به من الجبال الى جبل درن الذي يدخل في البحر المحيط وطوله ٦ ايام وعرضه ٣ ايام وفيه مدن وعمائر وخلق كثير ومياه وخصب . ومنه تمتاز طرابلس انواعاً من الخيرات حتى الخضار والفواكه وفيه الزيتون والتين والزبيب والتمر ويتصل به جبال الى ان ينقطع في شرقي مدينة لبدة الخراب وآبار هذه المدينة من الرخام والحجارة والهرقلية يشهد بحالها المتقدم وهي على البحر حيث الطول ٣٩ درجة و ٣٠ دقيقة والعرض مقارب لعرض طرابلس . ومجالات دباب من حد قابس الى بشر السدرة من برقة وبعد لبدة يأخذ البحر في الدخول الى الجنوب وعلى ساحله هنالك عمائر لبطون من هواره تحت خفارة دباب . وعلى الجملة فاذا فارقت طرابلس مشرقاً لا تلقى مدينة فيها حمام ولا حبار الى ان تتصل الى الاسكندرية وفي آخر صعود البحر الى الجنوب يكون (

١ - ابن سعيد المغربي، ابو الحسن علي، « بسط الارض في العلول والعرض »، تطوان، ممد مولاي الحسن، ١٩٥٨، ص ٧١ - ٧٥ .

قصر احمد (وهو آخر حد افريقية) حيث الطول ٤١ درجة ٢٢ دقيقة والعرض مع خط الاقليم الرابع . (وفي عرضه) قصور مسراته تمتد نحو ١٢ ميلا على زيتون ونخيل واهلها من هواره (تحت خفارة دباب ولهم غرام بحمل الخيل الى الاسكندرية وتجد منهم الحجاج معونة في تلك الطريق الشاقة . فأول ما يلقاك من حد برقة جون زديق المذكور وما بعده قد ذكر في الاقليم الثالث وشرقيه حيث بئر السدرة اول بحالات هيب الى العقبة الصغيرة من ارض الاسكندرية . ويقع في دخلة البرين جوف برنيق ورأس الى طليثا وهي فرضة مشهورة هنالك وبها قصر فيه اليهود الذين تحت خفارة العرب وموضوعها حيث الطول ٤٤ درجة والعرض ٣٣ درجة و ١٠ دقائق ، ومنها تحمل المراكب الكبريت والعسل والقمح والشعير . وفي شرقيها مدينة (برقة) التي كانت قاعدة البلاد البرقية فخرها العرب ويقال لها اليوم مدينة المرج) وبينها وبين طليثا ١٠ اميال (وخصب برقة الذي فيه الاشجار والخيرات هو في الدخلة التي في جنوبها مسافته نحو ١٠ مراحل من غرب الى شرق ومن جاره الى غرب هيب فله الصولة ومن جبالها ينزل نهر درنا ويصب في البحر المالح ولم ار في جميع بلاد برقة على طولها نهرا غيره ، وفي جنوبيه الصحراء المقفرة وتقع درنا حيث الطول ٤٦ درجة والعرض ٣٥ درجة و ١٧ دقيقة وكانت من مدن برقة المذكورة فخرها العرب . وهي الآن محسوبة من قصور العرب التي تأوي اليها اليهود وكلامهم على جزيتهم وفي ساحلها (رأس اوثنان (الذي) تأخذ البحريون على تعديته البشارة وهو (واقع) في الركن حيث الطول ٤٤ درجة والعرض ٣٤ درجة و ٥٢ دقيقة . (وفي شرقيه الهلال المشهور وهو جبل يظهر من بعيد في البحر وفي ميمنة جزيرة اقريطش الواقعة في الاقليم الخامس وبينه وبين رأس اوثنان مرحلتان ونصف وبينه وبين درنا وهي في شرقيه مرحلتان وفي شرقي درنا رأس تيني المشهور وهو في الركن الشرقي كما ان رأس اوثنان في الركن الغربي وموضوعه حيث الطول ٤٦ درجة و ٤٧ دقيقة والعرض ٣٥ درجة غير دقائق ومن هنالك يأخذ البحر في الصعود الى الجنوب فيكون في جنوبيه من المراسي

المشورة القريسي ثم طبرق، وهي كانت قاعدة البلاد في ايام الروم . وكانت البلاد تعرف بانطابلس فسمتها العرب برقة لما رأتها كثيرة الحجارة المختلطة بالرمل . ولطبرق مرسى قل ان يكون له نظير على هذا البحر ما للرياح عليه سبيل كأنه حوض منقور في حجر وبقايا اسوار هذه المدينة تدل على قديمها وهي حيث الطول ٤٧ درجة و ٢٢ دقيقة والعرض ٣٢ درجة و ٥٥ دقيقة وفي جهتها المجرى المعروف بالطنان وفي شرقي ذلك من القصور المشورة عند العرب لك وقمار . في شرقها (العقبة الكبيرة وهي اول حد الديار المصرية) وهناك مرسى المسلم من المراسي المذكورة والعقبة (حيث الطول ٤٨ درجة والعرض ٣٢ درجة و ٢٥ دقيقة وفي شرقها العقبة الصغيرة حيث الطول ٤٩ درجة والعرض ٣٢ دقيقة (وهناك دخلة هواره المشورة وهي دخلة في البحر وفي شمالها مرسى الكنائس المشورة ومن هنالك مجالات هواره ثم مجالات زارة الى آخر البحيرة . وتقع (الاسكندرية (المشورة التي هي ركاب بحر الهند وبحر الروم) حيث الطول ٥١ درجة و ٢٠ دقيقة والعرض ٣١ درجة و ٣١ دقيقة (ولها بجران مثل سبتة والمهدي الا ان الاسكندرية يفضل بين طرفيها الطرف الخارج امامها المعروف بالجزيرة وفيها المنار المشهور الذي تهدي به المراكب بالنهار وبنوره بالليل . وطولها في زماننا ٣٤ قامة وطول مأذنة اشبيلية ٣٥ قامة وطول مأذنة مراكش ٣٦ قامة وطول عمود السواري الذي بظاهر الاسكندرية ١٠٠ ذراع ودوره ٤٠ شبراً . وللأسكندرية خليج في جنوبها يدخل اليه الماء من النيل ايام الزيادة فتأتي في المراكب من سائر السواحل المصرية بأنواع الغلال والخيرات فاذا تعطل هذا الخليج عملت البحيرة التي في شرقها وهي مالحة يدخل ماء البحر فيها بين الاسكندرية ورشيد ويسافر فيه المراكب الى البلاد التي على النيل من خليج يعرف بالحافر حفر في زمان العادل من بني ايوب . وعلى ٤٠ ميلاً من الاسكندرية تروجة وهي في الجنوب بميلة الى الغرب يسوق اليها عرب البحيرة وعرب برقة ولها شجرة بذلك والعنب التروجي في نهاية الطيب وحسن المنظر ويقال انه كان يجتهد من الغرب مدينة قديمة فيها لقي اهل مصر

المزالمبيدي حين قدم من افريقية ، ثم خربت بالفتن . وفي شرق اسكندرية وجنوبها
 دمنهور على نحو ٥٠ ميلاً وهي قاعدة البحيرة ولها خليج من خليج الاسكندرية
 واكثر ما يسوق فيها عرب البحيرة واكثرهم زيادة ولوالة وتقع (رشيد) التي
 على غربي النيل عند مصبه في البحر (حيث الطول ٥٢ درجة و ٤ دقائق
 والعرض ٣٢ درجة ، وفي شرقيها بحيرة يستراة وليس في بحيرات الديار المصرية
 اكثر ضماناً منها ، بلغ في عصرنا ٢٥٠٠٠ ديناراً مصرية . وسائر بحيرات مصر
 تضمن بقيمة ٧٠٠٠ ديناراً وفي شرقيها رباط البرليس ومنه يصير البحر الى
 الجنوب) فتقع دمياط (المشهورة) على مصب النيل الشرقي حيث الطول ٥٤
 (فيكون في آخر الجزء الثالث) والعرض ٣١ درجة و ٢٠ دقيقة وتقع المحلة
 (قاعدة الغربية التي بين النيلين) حيث الطول ٥٣ درجة و ٢٢ دقيقة والعرض
 ٣١ درجة و ٦ دقائق . (وتقع المنصورة التي بنيت في عصرنا رباطاً على خليج
 اشمون الخارج من النيل الشرقي حتى يصب في بحيرة تنيس حيث الطول ٥٣
 درجة و ٣٠ دقيقة والعرض ٣١ درجة غير دقائق) . ١٤

الفصل السادس

الموسوعات

يمتاز عصر المماليك البرجية بالنضج في الحياة العلمية في مصر والشام ، كما يمتاز بالعناية بالمدارس ونواحي الحياة الفنية المختلفة . ولبعض المؤلفات التي وصلتنا من هذا العصر ميزة خاصة هي الاحاطة والشمول ، او ما يجوز ان نسميه كتابة الموسوعات . فقد اهتم المؤلفون باخراج كتب تشمل اللغة والادب والجغرافيه والتاريخ واصول الشرع والادارة وقواعد المخاطبات السلطانية ، وغير ذلك مما يحتاجه ارباب الدواوين واصحاب الوظائف والعمال . وقد وصلت اليينا ثلاثة كتب من هذا النوع هي نهاية الارب للنويري ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري وصبح الاعشى للقلقشندي .

النويري

شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب المعروف بالنويري من اهل القرن الرابع عشر ، فقد ولد في سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م وتوفي سنة ٧٣٣ / ١٣٣٣ . وقد ولي

كتابة الانشاء ، كما انه كان في وقت من اوقات حياته ناظراً للجيش في طرابلس الشام .

ترجم له الادفوي صاحب الطالع السعيد قال « احمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكري ، ينعت بالشهاب النويري المحدث القوسي المولد والمنشأ . سمع الحديث على الشريف موسى بن علي بن أبي طالب . وعلى يعقوب بن احمد بن الصابوني . واحمد الحجار . وزينب بنت منجي . وقاضي القضاة أبي عبد الله محمد بن ابراهيم بن جماعة وغيرهم . وكتب كثيراً كتب البخاري مرات . وجمع تاريخاً كبيراً في ثلاثين مجلداً وحصل له قرب من السلطان الناصر ووكله في بعض أموره وعمل عليه حق ، رافع بن عبادة وهو الذي قربته من السلطان فضربه بالمقارع . ثم عفا عنه ابن عبادة . وتقلب في الخدم الديوانية . وباشر نظر الجيش بطرابلس . وتولى نظر الديوان بالدهقلية والمراتحية . وكان ذكي الفطرة . حسن الشكل . وفيه مكرمة وأريحية وود لأصحابه . وصام رمضان سنة وفاته . وحصل له انه وأظب على القراءة فكان كل يوم بعد العصر يستفتح قراءة القرآن الى قريب المغرب . ثم حصل له وجع في أصابع يديه وكان سبب وفاته . توفي يوم الحادي والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاثة وثلاثين وسبعمائة وله نظم يسير ونثر لا بأس به . وكان صاحبنا رحمه الله . »^١

وكتابه نهاية الارب في فنون الادب ، وضعه لمصلحة كتاب الدواوين والانشاء . والكتاب في ثلاثين مجلداً لم يطبع منها بعد سوى ستة عشر مجلداً . والنويري ، مثل غيره من مؤلفي مثل هذه الكتب ، رغب في وضع الكتاب

١ - الادفوي ، كمال الدين ابو الفضل ، « الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى السعيد » ، القاهرة ، المطبعة الجمالية ، ١٩٢٤ ، ص ٤٦ .

اثبتنا ساساً به ، ثم افاد منه غيره . وقد قال في فاتحة كتابه « وكنت ممن عدل في مباديه ، عن الامام بناديه ، وجعل صناعة الكتابة فنَّه الذي يستظل بوارفه ، وفنَّه الذي جمع له فيه بين تليده وطارفه . فعرفت جليها ، وكشفت خفيها ، وبسطت الخرائد ونظمت منها الارتفاع ، وكنت فيها كموقد نار على يفاع ، واسترفعت القوانين ، ووضعت الموازين ، وعانيت المقترحات ، وأعتمدت على المقاييس ، وفذلكت على الأصل وما أضيف اليه ، وحررت ما بعد الفذلكة فكان العمل على ما أستقرت الجملة عليه ، واستخرجت وحصلت ، وجلت من عرضه وحصلت ، وسقت الحواصل ، وأوردت المحاسيب وفذلكت على الواصل ، وطردت ما أنساق الى الباقي والموقوف ، ونضدت شواهد المصروف ، وشطبت شواهد الارتفاع ، وقرنت أعمال المبيع بالمبتاع ، واستوفيت أعمال الاعتصار وتوالي الفسلات ، وتأملت سياق الأصناف والآلات ، ونظرت في سياقات العلوفات والعوامل ، وأجبت عن المخرج والمردود فأعجزت المناظر والمناضل ، وأتقنت مواد هذه الصناعة ، وتاجرت فيها بأنفس بضاعة .

ثم نبذتها وراء ظهري ، وعزمت على تركها في سري دون جهري ، وسألت الله تعالى للغنية عنها ، وتضرعت اليه فيما هو خير منها . ورغبت في صناعة الآداب وتعلقت بأهدابها ، وانتظمت في سلك أربابها ، فرأيت غرضي لا يتم بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاهاً ، وموردي منها لا يصفو ما لم أجرد العزم سفاهاً .

فامتطيت جواد المطالعة ، وركضت في ميدان المراجعة . وحيث ذلَّ لي مركبها ، وصفالي مشربها ، آثرت ان أجرد منها كتاباً أستأنس به وأرجع اليه ، وأعول فيما يعرض لي من المهمات عليه . فأستخرت الله سبحانه وتعالى وأثبت منها خمسة فنون حسنة الترتيب ، بينة التقسيم والتبويب : كل فن منها يحتوي على خمسة أقسام

« الفن الاول في السماء والآثار العلوية والارض والمعالـم السفلية ، والفن الثاني في الانسان وما يتعلق به ، والفن الثالث في الحيوان الصامت ، والفن الرابع في النبات ، والفن الخامس في التاريخ وترجمته بنهاية الارب في فنون الادب .

« واتيت فيه بالمقصود والغرض ، وأثبت الجوهر ونفيت المرض ، وطوقته بقلائد من مقولي ، ورصغته بفرائد من منقولي . فكلامي فيه كالسارية تلتها السحاب ، او السرية ردفها الكتائب ، فما هو الا مترجم عن فنونه وحاجب لعيونه .

« وما أوردت فيه الا ما غلب على ظني ان النفوس تميل اليه ، وان الخواطر تشتمل عليه . ولو علمت ان فيه خطأ لقبضت بنائي ، وغضضت طرني ، ولو خبرت طريق المعترض لمطفت عنائي ، وثنيت عطفي . لكنني تبعت فيه آثار الفضلاء قبلي ، وسلكت منهجهم فوصلت بحبالهم حبلي . فان يكن اعتراض ، فعلى علام لا على العار . وقد علمت أنه من صنف كتاباً فقد استهدف ، وأصم الأسماع وان كان لبعضها قد شنف .

« وخليق للواقف عليه ان يسد ما يجد به من خلل ، وان يغفر ما يلح فيه من زلل .

فأسبل عليها ستر معروفك الذي سترت به قدماً على عواري

« والذي أدى اليه اجتهادي من تأليفه فقد أصدرته ، والذي وقفت عنده غايقي فقد أوردته . قد تبلغت فيه وسمي ، لكن ليس من عثرة الكتاب أمان . وبالله سبحانه المستعان ا وعليه أتوكل ، واليه أتضرع في التيسير وأتوسل ، ومن فضله أستمد الصواب وباسمه استفتح الكتاب ا ،^١

١ - النويري ، شهاب الدين احمد ، « نهاية الارب في فنون العرب » ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ ، ج ١ ص ٢ - ٢٦ .

العمري

شهاب الدين ابن فضل الله العمري هو صاحب كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار . وهو متحدر من اسرة سورية كانت لها مشاركة كبيرة في شؤون الدولة والادارة في ايام المماليك ، وخاصة في تنظيم امور البريد . ولد الرجل في دمشق سنة ٧٠٠ / ١٣٠١ وتوفي فيها منفيًا سنة ٧٤٨ / ١٣٤٧ ، وقد تولى القضاء قبل وصوله الى ديوان الانشاء

وقد ترجم له صاحب الدرر الكامنة قال « احمد بن يحيى بن فضل الله ... ولد في ثالث شوال سنة سبعمائة وقرأ العربية على كمال الدين ابن قاضي شعبة والفقه على ابن الفركاح وشهاب الدين ابن المجد والشيخ برهان الدين ابن الفركاح وقرأ الاحكام الصغرى عين ابن تيمية وتخرج في الادب بالشهاب محمود وبالوداعي وشمس الدين بن الصائغ الكبير وابن الزملكاني وابي حيان وسمع الحديث على جماعة كست الوزراء والحجار وكان يتوقد ذكاه مع حافظة قوية وصورة جميلة واقتدار على النظم والنثر حتى كان يكتب من رأس القلم ما يعجز عنه غيره في مدة مع سعة الصدر وحسن الخلق وبشر الحيا كتب الانشاء بمصر ودمشق ولما ولي ابوه كتابة السر كان هو يقرأ كتب البريد على السلطان ثم غضب عليه السلطان وذلك في سابع عشر ذي الحجة سنة ٤٠٠ وولاه كتابة السر بدمشق ... وعمل مسالك الابصار في ازيد من عشرين مجلداً والتعريف بالمصطلح الشريف واشياء لطاف كثيرة وله شعر كثير جداً لكنه وسط ذكره الذهبي في المعجم المختص فقال ولد سنة ٧٠٠ وسمع الحديث وقرأ على الشيوخ وسمع معي من ست القضاة بنت الشيرازي وله تصانيف كثيرة أدبية وباع طويل في الصناعتين وبراعة في البلاغتين والله اعلم . »

١ - ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين ، « الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة » ، حيدر اباد مجلس دائرة المعارف ١٩٢٩ ، ج ١ ص ٣٣١ - ٣٣٣ .

وقد قدم لنا العمري كتابه بنفسه فقال :

« ولقد طالعت الكتب الموضوعة في أحوال الأقاليم وما فيها ، فلم أجد من قن أحوالها ، ومثل في الأفهام صورها ، لأن غالب تلك الكتب لا تتضمن سوى الأخبار القديمة ، وأحوال الملوك السالفة والأمم البائدة وبعض مصطلحات ذهبت بذهاب أهلها ولم يبق في مجرد ذكرها عظيم فائدة ، ولا كبير أمر . وخير القول أصدقه ، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم .

« فاستخرت الله تعالى في اثبات نبذة دالة على المقصود في ذكر الأرض وما فيها ومن فيها : الأظهر فالأظهر ، والأشهر فالأشهر ، وما لم أجد بداً من ذكره في ذلك ومثله وحالة كل مملكة ، وما هي عليه ، هي وأهلها في وقتنا هذا بما ضمه نطاق تلك المملكة ، واجتمع عليه طرفا تلك الدائرة . لأقرب الى الأفهام البعيدة غالب ما هي عليه أم كل مملكة من المصطلح والمعاملات ، وما يوجد فيها غالباً : ليبصر أهل كل قطر القطر الآخر . وبينته بالتصوير : ليعرف كيف هو ، كأنه قدام عيونهم بالمشاهدة والعيان مما اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له ، فيما رأيته بالمشاهدة ، وفيما لم أره بالنقل من يعرف أحوال المملكة المنقول عنه أخبارها ، مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأذنه

« ولم أنقل الا عن أعيان الثقات ، من ذوي التدقيق في النظر ، والتحقيق للرواية . واستكثر ما أمكنني من السؤال عن كل مملكة ، لأمن من تغفل الغفلاء ، وتخيل الجهالات الضالة ، وتحريف الأفهام الفاسدة

« فان نقلت بعض الكتب المصنفة في هذا الشأن ، فهو من الموثوق به فيما لا بد منه : كتقسيم الأقاليم ، وما فيها من اقوال القدماء ، واختلاف آراء الحكماء ، الى غير ذلك من غرائب وعجائب ، وأخبار ملل ودول ، وذكر مشاهير أعلام ، وتاريخ سنين وشهور وأيام . مما هو مسرح أمل ، ومطمح ذي عمل ، لأجل به كلامي ، وأكمل به نقصي ، وأتم بهجته النظر ، ورونق الصفحات : كالطراز في الثوب ، والحال في الخلد . لا لأكثر به سواد السطور ،

وأكبر به حجم الكتاب . ولم أقتصر بذكر الأقاليم ، عند ذكر الممالك ، مقصد الجغرافيا ، كالأول والثاني والثالث ، ولا بما تطلق عليه المسميات ، كالعراق وخراسان وأذربيجان .

« بل أذكر ما اشتملت عليه مملكة كل سلطان ، جملة لا تفصيلا ، على ما هي عليه المدينة التي هي قاعدة الملك : كقرشي والسراي من قسمي توران وتوريز من إيران ، أو ما لا بد من ذكره معها ، والغالب في تلك المملكة من أوضاعها ، والأكثر من مصطلح أهلها .

« ولا أعني ذوي الممالك الصغار ، إذا كانوا في مملكة سلطان قاهر عليهم ، أمر فيهم : اذ هم جزء من كل . بل الذكر لكل سلطان يستحق اسم السلطنة : لاتساع ممالك وأعمال ، وكثر جنود وأموال ، ويتغنى بذيله من لعله يكون في مملكته من ذوي الممالك الصغار : كصاحب حماة مع صاحب مصر ، وصاحب ماردين مع صاحب إيران . اللهم الا أن تكون تلك المملكة مفردة للملك أو ملوك ، وليس عليهم سلطان يجمعهم حكمه ، ويغني فيهم أمره ، كملوك الجليل ، وملوك جبال البربر وما يجري هذا الجرى ، ويسري كوكبه هذا المسرى .

« ولم آل جهدا في تصحيح ما كتبت به بحسب الطاقة ، من غير استيساب ولا تطويل . ولم أعرج الى ملوك الكفار ركابي ، ولا أرسيت يجزائر البحر سفني ، ولا اسهرت في الظلمات عيني ، ولا أتعبت في المحفورة يدي . إلا ما ألمت منه المامة الطيف المنفر ، ونغبت منه نغمة الطائر الحذر ، لأن غالب ما يقال (والله أعلم) أسماء لا يعرف لها حقيقة ، ومجاهل لا توصل اليها طريق .

« ولم أقصد في المعمورة سوى الممالك العظيمة ، ولا خرجت في جهاتها عن الطريق المستقيمة : اكتفاء بالحق الواضح والصدق الظاهر ، مما اتصلت بنا حقيقة أخباره ، وصحت عندنا جلية أحواله .

« وقنعت بما بلغه ملك هذه الامة ، وتمت بكلمة الاسلام على أهله النعمة . ولم أتجاوز حدها ، ولا مشيت خطوة بعدها ، الا ما جره سياق الكلام ، أو طارح

به شجون الحديث : مما أندرج في اثناء ذلك ، أو اضطرت اليه تعريجات السالك ،
أو اقتضاه سبب ، أو دخل مع غيره في ذمة حسب .

« وان كان في العمر فسحة ، وفي الجسم صحة ، وللهمة نشاط ، وللنفس
انبساط ، (وما ذلك على الله بعزيز ، ولا من عوائد ألطافه الخفية بعجيب) ،
لأذيلن بمالك الكفار هذا التصنيف ، وأجيب بفارسه المعلم وخلفه من
سديم رديف .

لكنني لم آت في هذا الكتاب بذكر ممالكهم (على اتساع بلادها) الا
عرضا ، ولا سطرت من تفصيلها الا جملا : توفيراً للمادة ، وتيسيراً للجادة ،
ولأتمتع برونق الأنوار ، ولا أشوب بسواد الليل بياض النهار .

« على أنني ربما ذكرت في مكان ما قاربه من بلاد الكفار ، وذكرته للمجاورة
رجاء ان يؤخذ بشقعة الجوار .

« ولم أذكر عجيبة حق فحصت عنها ، ولا غريبة حق ذكرت الناقل ،
لتكون عهدتها عليه ، وتبرأت منها . وقد يقع الانكار لأكثر الحقائق من الناس :
لنقصان العقول . لأن الذي يعرف الجائز والمستحيل ، يعلم ان كل مقدور
بالإضافة الى قدرة الله تعالى قليل . وقد وصف الله تعالى الجهال بعدم العقل ،
فقال : « أم تحسب ان أكثرهم يسمعون او يعقلون » . وقد أودع الله من عجائب
المصنوعات ، في الأرض والسموات ، كما قال تعالى : « وكأين من آية في السماوات
والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون » . وقد أرانا من عظيم قدرته ، وبدائع
صنعه ، ما جلا الشك ، وأوضح الحق . فماذا بعد الحق الا الضلال ؟

« وأول ما أبدأ بالمشرق ، لأن منه يتفتح نوار الأنوار ، وتجري أنهار النهار .
الى ان أختمه بنهاية المغرب ، الى البحر المحيط . لأنه الغاية ، واليه النهاية . الا
فيما لم أجد بدا من الابتداء به من المغرب الى المشرق : كتخريج الأقاليم ، لابتداء

الأطوال من الجزائر الخالدات بالبحر الغربي ، أو ما هذا حكمه ، أو وقع عليه قسمه .

« وقطعت فيه عمر الأيام والليالي ، وأثبت فيه بالأقلام أخبار العوالي . وشغلت به الحين بعد الحين ، واشتغلت ولم أسمع قول اللاحين . وحرصت عليه حرص الضنين ، وخلصت اليه بعد أن أجريت ورائي السنين .

« وشرعت فيه في أيام من مانتنا بأحسنه ، وأمننا في سلطانه : سيدنا ومولانا ، ومالك رقابنا ، السلطان ابن السلطان ، السيد الكبير الملك الناصر ، العالم العادل المجاهد الم رابط المناغر والمؤيد المظفر المنصور ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين ، وارث الملك ، ملك العرب والمعجم والترك ، نائب الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ملك البحرين ، خادم الحرمين ، حامي القبلتين ، مبايع الخليفتين ، بهلوان جهان ، اسكندر الزمان ، ناشر علم العدل والاحسان ، بملك اصحاب المنابر والأسرة والتخوت والتيجان ، جامع ذيول الأقطار ، مبيد البغاة والطفاة والكفار ، هازم الروم والفِرِنج والكرج والأرمن والتتار ، سلطان البسيطة ، مثبت أركان الحيطه ، امام المتقين ، ولي أمور المؤمنين ، متعهد حج بيت الله الحرام وزيارة سيد المرسلين ، أبي المعالي محمد بن مولانا السلطان الكبير الشهيد أبي المظفر قلاوون ، سيد ملوك الأرض على الاجماع ، المخصوص بملك أشرف البقاع .

سل عنه وانطق به وانظر اليه تجد ملء المسامع والأفواه والمقل

« فأدام الله أيامه ، وادار على مفارق النجوم أعلامه !

« وسميته : مسالك الابصار في ممالك الامصار . وعلى الله أعتمد ، ومنه استمد ، وإياه أسأل التوفيق والاعانة ، وأبرأ من الحول والقوة الا به . وهو

حسبي ونعم الوكيل ! وفهرست ما تضمنه وجملة قسمان : القسم الأول في الأرض . القسم الثاني - في سكان الأرض . ١٥

القلقشندي

شهاب الدين احمد القلقشندي ، ولد سنة ٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م في قلقشندة من أعمال قليوب في دلتا مصر ، واقام في الاسكندرية حيث تفقه ومهر ، وتعانى الأدب وكتب في الانشاء ، واجيز بالفتيا والتدريس ولم تكن سنه اذ ذاك تتعدى احدى وعشرين سنة . وتصدر للافادة فانتفع الكثيرون من علمه . ثم نزل القاهرة والتحق بديوان الانشاء بالابواب السلطانية بالديار المصرية ، وفي منصبه هذا الف كتابه صبح الاعشى ، وهو اشهر كتبه واعظمها قيمة . على انه وصلت اليها من مؤلفاته « ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المشر » وكتاب « الغيوث الهوامع » و « نهاية الارب في معرفة قبائل العرب »

والكتاب الذي نحن بصدده الآن هو صبح الاعشى ، كتبه المؤلف وهو بديوان الانشاء بمصر . وقد تناول الكاتب في خطبة الكتاب بالتفصيل الغاية التي من اجلها كتب والف . وهذه الخطبة هي في الوقت ذاته نقد فني لمن سبقه من المنشئين فهو يقول : « والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف ، وتباينت موارد في الجمع والتأليف . ففرقة اخذت في بيان اصول الصنعة وذكر شواهد لها ، واخرى جنحت الى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها . . . ولم يكن فيها تصنيف جامع لمقاصدها . . . بل اكثر الكتب المصنفة في بابها والتأليف الدائرة بين اربابها ، لا يخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها اليه ،

١ - العمري ، احمد بن يحيى ابن فضل الله ، « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٢٤ ، ص ٢ - ٦ .

او الالفاظ الرائقة فيما وقع الاختيار عليه ،^١ . ثم يعرض القلقشندي لكتابين فينقدهما : الاول التعريف بالمصلح الشريف للمقر الشهابي بن فضل الله العمري ، والثاني تثقيف التعريف لابن ناظر الجيش . فيقول عن الاول « انه قد اهل من مقاصد المصطلح اموراً لا يسوغ تركها كالبطائق والملطفات » واما الثاني فقد ترك الوصايا والافصاف ومراكز البريد وابراج الحمام^٢ . ثم يحمل القول في الاثنين « فصار كل من الدستورين منفرداً عن الآخر بقدر زائد » ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر ، وان كانا في معنى واحد .^٣

والكتاب مرتب على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة بناها بالاجمال على التعريف بحقيقة ديوان الانشاء واصله في الاسلام وانتشاره بعد ذلك في العالم الاسلامي . وتناول ما يحتاج اليه كاتب الانشاء من الامور العلمية والعملية . فالحظ وتوابعه ولواحقه فيه موضحة ، ومعرفة المسالك والممالك فيه مبوبة ، ومشاركة المكاتبات والولايات والالقب والاسماء والكنى والمواضع فيه مبوبة ، هذا الى وصف الولايات وطبقاتها والبيعات والعهود ، وذكر الوصايا الدينية وما يكتب فيها ، والاقطاعات واصولها في الشرع وعقود الامانات . وتكلم فيه عن البريد ووضعه في الجاهلية والاسلام وبين معالجه ومواضعه . والحق انه على قول مصححه المرحوم الاستاذ محمد عبد الرسول ابراهيم : « كتاب متمم ودائرة معارف ادبية كبرى ، يشهد مؤلفه بالفطنة والذكاء وطول الباع في فن كتابة الانشاء . »^٤

١ - القلقشندي ، ابوالعباس احمد ، صبح الاعشى ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ١٩١٣

ج ١ ، ص ٧ .

٢ - نفس المكان ج ١ ، ص ٨

٣ - نفس المكان ، ج ١ ، ص ٨ .

٤ - نفس المكان ، ج ١٤ ص ١٣ من المقدمة .

ونحن نكتفي بناحية او اثنتين من نواحيه المتعددة نتناولها بشيء من التفصيل . فاننا نجد ان الفصل الثالث من الباب الاول من المقالة الاولى يتناول معرفة الازمنة والاقوات وايام الشهور والسنين على اختلاف الاسم فيها ، وتفاصيل اجزائها والطرق الموصلة اليها ومعرفة اعياد الامم . وهو يتناول كل هذه بتفصيل من الناحيتين الشرعية والفلكية ، فيحكي المذاهب المختلفة ثم يلاحظ في دقة ان اليوم ينظر اليه باعتبارين . اما الطبيعي فالليل من لدن غروب الشمس الى طلوعها وظهورها من الافق ، والنهار من طلوع نصف قرص الشمس من المشرق الى غيبوبته . واما الشرعي فالليل من غروب الشمس الى طلوع الفجر الثاني ... والنهار منه الى غروب الشمس .

وتراه ينتقل من الايام الى الشهور فيذكر انواعها ويقارن الشمسية منها بالقمرية ، ويعين ابتداء القبطية منها بالنسبة الى الشمسية . والسنة عنده اما طبيعية وهي القمرية ، واما اصطلاحية وهي الشمسية ويتناول في هذه مصطلحات القبط والفرس والسيان ثم مصطلح المنجمين ، ويوضح علاقاتها ببعضها البعض . ويعقد صاحبنا فصلاً في التوفيق بين السنين وعلاقة ذلك بالخراج والاعشار لارتباط المنتج الزراعي بالسنين على اختلاف الاصطلاح . وهذا الفصل من خير ما عثرت عليه عند كتاب العرب عن الموضوع .

واذ ينقلنا الى الحديث عن الفصول نشعر ان المؤلف دقيق الاحساس رقيقه هذا الى طول باع في رواية الشعر الرفيع . فهو يتحدث عن الفصول ويروي فيها الاشعار والقصائد .

والمقالة الثانية من كتاب الصبح في المسالك والممالك . فيها تعرض المؤلف لذكر الارض على وجه الاجمال . فتعرف الى شكلها واحاطة البحر بها واقاليمها الطبيعية وانواع البحار وحدثنا عن كيفية استخراج جهات البلدان والابعاد

الواقعة بينها . ثم بحث الخلافة ومن وليها من الخلفاء ومقراتهم وما انطوت عليه الخلافة من الممالك في القديم وما كانت عليه من الترتيب الى عصره . ووصف وظائف ارباب الاقلام والسيوف ، ثم تناول دول الارض دولة دولة ، فبدأ بالملكة المصرية ومضافاتها ووضعها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وزرعها ورياحينها ومطعموها وحيوانها وطيورها وقواعدها . ثم فصل كورها ومدنها وأخبارها وملوكها جاهلية واسلاما، وترتيب احوالها في معاملاتها ونقودها وأنواع اراضيها ودواوينها وجيوشها ومواكب امرائها وملوكها . وانتقل من المملكة المصرية الى بقية اقطار العالم الاسلامي اولا ثم الى ما خرج عنه . وهو في اخباره وانبائه دقيق الملاحظة ، شديد العناية باسناد ما ينقله عن غيره ، سريع الى النقد . فيقول مثلا : « اما شكل الارض فقد تقرر في علم الهيئة ان الارض كُرِّيَّة الشكل ... وقيل هي مسطحة وقيل كالترس وقيل كالطبلى . والتحقيق الاول »^١ . ويحدثنا عن خطوط الطول والعرض ثم يلاحظ ان اكثر المعمور من الارض انما هو في النصف الشمالي والعمارة فيه فيما بين خط الاستواء الى نهاية ست وستين درجة ونصف في الارض . ويقسم المعمور من الارض الى اقاليم سبعة ينقلها وحدودها عن ابي الفداء .

ويحظى البحر المتوسط بقسط وافر من عناية الكاتب ، وهو يسميه ، مثل بقية الجغرافيين المعاصرين له ، ببحر الروم ، ولكنه يذكرنا انه يسمى البحر الشامي ايضا . فالمدن الموجودة عليه تذكر كلها ، وتعين اعراضها واطوالها وتبين المسافات التي تفضل بينها .

ويتحدث عن الخلافة وشعارها وهي الخاتم والبردة والقضيب ، وثياب الخلافة والاعلام والخلع بالوانها مفصلة في هذا الباب^٢ . كما نجد تفصيل الوظائف

١ - نفس المكان ، ج ٣ ، ص ٢٢٧ .

٢ - نفس المكان ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

الوزارية وغيرها كالحجابة وهي حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه ،
 وولاية المظالم ، والنقابة على ذوي الانساب والقضاء والحسبة والولاية على
 المساجد^١ . فاذا فرغ من ذكر الترتيبات على ما عرفت قبلا ، اي قبل انتقال
 الخلافة الى مصر ، تخلص الى ذكر ما اصابها بعد ذلك ، فقال « والذي استقر
 عليه حال الخلفاء بالديار المصرية ان الخليفة يفوض الامور العامة الى السلطان
 ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر الا في مصلتي
 السلطان خاصة ... ويستبد السلطان بما عدا ذلك ، من الولاية والعزل واقطاع
 الاقطاعات حتى للخليفة نفسه ، ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك^٢ . »

والفصول الاخيرة في صبح الاعشى تتناول الكلام على البريد ومطارات
 الحمام الرسائي وهجن الثلج ومراكبه والمناور والمحركات .

فما يقوله عن البريد انه كان له الواح من فضة غلدة بديوان الانشاء تحت
 امر كاتب السر بالابواب السلطانية منقوش على وجهي اللوح نقشا مزدوجا ما
 صورته « لا اله الا الله محمد رسول الله » ارسله بالهدى ودين الحق
 ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة . وعلى
 الوجه الآخر « عز مولانا السلطان الملك الفلاني : فلان الدنيا والدين خلد الله
 ملكه^٣ . » وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير اصفر ذات بنتين
 يجعلها البريدي في عنقه متى خرج الى جهة من الجهات . فكل من رأى اللوح
 والشرابة علم انه بريدي وبواسطة ذلك تدعى له ارباب المراكز بتسليم خيل
 البريد .

ويختتم المؤلف حديثه عن البريد بذكر طرقه في مصر وبلاد الشام وما

١ - نفس المكان ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

٢ - نفس المكان ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .

٣ - نفس المكان ، ج ١٤ ، ص ٣٧١ .

جاورهما . ثم ينتقل الى ذكر الحمام الرسائلي . فيعدد انواعه ويذكر الوانه ويبين صفة الطائر الفاره ، ويقص اخبار من اعتني به من خلفاء بني العباس كالمهدي . وتنافس رؤساء الناس في العراق في اقتنائه ، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منه منه سبعمائة دينار وثمان البيضتين منه عشرين دينارا .^١

وآخر فصل في صبح الاعشى يتناول نقل الثلج من الشام الى مصر . فقد كانت له هجن تنقله في البر وسفن تنقله في البحر ، حتى يصل الى قلعة القاهرة . وقد كانت هذه المراكب ثلاثا في السنة في ايام الملك الظاهر بيبرس ثم اخذت في الزيادة حتى بلغت احد عشر مركبا . والمراكب تأتي دمياط في البحر ثم يخرج الثلج في النيل الى ساحل بولاق فينقل منه على البغال السلطانية ويحمل الى الشرايخانة الشريفة .^٢

ومما حدث في زمن الدولة الناصرية استعمال الهجين لنقل الثلج ، وكانت هذه الهجن تخرج من دمشق الى الصنمين ثم الى بانياس ثم الى اربد ثم الى بيسان فيجنين فقااقون فاللد فغزة فالعريش فالمطيلب فقطيا ثم منها الى القصير فالصالحية فبلبيس فالقلعة . والمستقر في كل مركز ست هجن ، خمسة للاجمال وهجن للهجات ، تكون كل نقلة خمسة اجمال .^٣

ليس الذي عرضنا له واستشهدنا به الا القليل مما عند القلقشندي . وليس باستطاعتنا ان نفعل غير ذلك . فثمة فصول وابواب لم نشر حتى الى اسمائها كالفصول التي تناول فيها المؤلف الايمان واحكامها في الشرع واثرها في المعاهدات وتلك التي بحث فيها الخط ورسم الحروف وقاعد الكتابة وتطور الخطوط وفي الكتاب مئات من الرسائل البليغة كان المؤلف كتبها في مناسبات مختلفة فاستشهد بها وضمنها كتابه .

-
- ١ - نفس المكان ج ١٤ ، ص ٣٩٠ .
 - ٢ - نفس المكان ، ج ١٤ ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .
 - ٣ - نفس المكان ، ج ١٤ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

وقد اقبل الأدباء والمتأدبون على صبح الاعشى اقبالا قال فيه المؤلف: «لكنني
احمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي ونفاق سلعته ، والمسارة الى استكتابه
قبل انقضاء تأليفه . حتى أن قلبي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس
الى اكتتابه ، ومرتقب نجازه للاستنساخ ويساهمان في ارتقابه ، فضلا من الله
ونعمة ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .^١

مختارات من نهاية الارب

في الاقاليم السبعة :

« ذهب أصحاب الزيجات إلى أن كل اقليم منها كأنه بساط ممدود ، طوله من
المغرب الى المشرق ، وعرضه من الجنوب الى الشمال .

« ١ - فأما الاقليم الأول فببؤه من مشرق أرض الصين الى مدائن أبوابها .
وهي الانهار التي تدخل السفن فيها من البحر الى المدائن الجلية ، مثل خانقو
وخانفور . وفيه جزيرة سرنديب . ومن أرض اليمن ما كان جنوبياً من صنعاء
مثل ظفار وحضرموت وعدن . وفيه من بلد النوبة دنقلة ، ومن بلد السودان
غانة . ثم ينتهي الى البحر المحيط . وعرضه من خط الاستواء الى مقدار ما يبعد
عنه عشرون درجة وثلاث عشرة دقيقة .

« وذهب بعض الناس الى أن أول المعمور من حيث يكون العرض وخط
الاستواء اثني عشرة درجة ، ونصف وربع درجة ، وفيما بين هذا العرض وخط
الاستواء مسكون بطوائف من السودان في عداد الوحوش والبهايم . وعد فيه
بطليموس من البلاد ذوات العروش ستين مدينة . وأهل هذا الاقليم سود ، وهو
قليل الساكن لافراط حره .

١ - نفس المكان ، ج ١٤ ، ص ٤٠٣ .

« ٢ - وأما الاقليم الثاني . فيبتدىء من بلاد الصين ، ويمر على بعض بلاد الهند الساحلية ، مثل تانة ، وصيمور ، وسندان ، ومن بلاد السند على المنصورة وديبل ، ثم يبلغ عمان . ويكون فيه من أرض العرب : نجران ، وهجر ، وجنابة ، ومهرة وسبا ، وتباله ، والطائف ، وجدة ، ومكة والمدينة ، ومملكة الحبشة ، وأرض البجة ، وأسوان ، وقوص ، والصعيد الأعلى وجنوب بلاد المغرب حتى ينتهي الى البحر المحيط ، وعرضه من غاية الاقليم الأول الى سبع وعشرين درجة واثنى عشرة دقيقة .

« وزعم بطليموس أن فيه أربعمائة وخمسين مدينة . وأهلها بين السمرة والسواد وهو كثير الذهب .

« ٣ - وأما الاقليم الثالث . فمبدؤه من شرق أرض الصين ، وفيه مدينة مملكتها حمدان ، وفيه من بلاد الهند تانش والقندهار ، ومن بلاد السند المولتان وقزدار . ثم يمر ببلاد سجستان ، وكرمان ، وفارس ، وأصبهان ، والأهواز ، والبصرة والكوفة ، وأرض بابل ، وبلاد الجزيرة ، والشام ، وفلسطين ، وبيت المقدس ، والقلزم ، والته ، وأرض مصر ، والاسكندرية ، وبلاد برقة ، وإفريقية ، وناهرت ، وبلاد طنجة ، والسوس ، وينتهي الى البحر المحيط . وعرضه من غاية الاقليم الثاني في العرض الى تمام ثلاث وثلاثين درجة وتسع وأربعين دقيقة .

« وزعم بطليموس أن فيه تسعا وخمسين مدينة . وأهلها سمر .

« ٤ - وأما الاقليم الرابع . فمبدؤه من أرض الصين ، ويمر على التبت والحنق ، ثم على جبال قشмир ، ووخان ، وتل حسان ، وكابل ، والغور ، وهراة ، وبلخ ، وطخارستان ، ويمتد الى الري ، وقم ، وهمدان ، وحلوان ، وبغداد ، والموصل ، وأذربيجان . ويمتد على منبج ، وطرسوس ، والشغور ، وانطاكية ، وجزيرة قبرس ، وصقلية ، ثل على الزقاق الى البحر المحيط ، وعرضه من غاية الاقليم الثالث في العرض الى تسعة وثلاثين درجة وعشرين دقيقة .

« وزعم بطليموس ان فيه مائة وثلانين مدينة . وأهله بين السمرة والبياض .

« ٥ - وأما الاقليم الخامس فمبدؤه من أرض الترك المشرفين على يأجوج ومأجوج الى كاشغر ، وبلاساغون ، وفرغانة ، واسديجاب ، والشاش ، وأشروسنة وسمرقند ، وبخارى ، وخوارزم ، وبحر الخزر الى باب الأبواب ، وبرذعة ، وميفارقين ، ودروب الروم ، وبلادهم ثم يمر على رومية الكبرى وأرض الجلالة ، وبلاد الأندلس ، وينتهي الى البحر المحيط . وعرضه من غاية الأقليم الرابع الى تمام ثلاث وأربعين درجة وثمانى عشرة دقيقة .

« وذكر بطليموس ان فيه سبعا وتسعين مدينة . وأكثر أهل بيض .

٦ - وأما الاقليم السادس . فمبدؤه من مساكن ترك المشرق ، وهم الخرخيز ، والكياك ، والتغزغز ، ثم على بلاد الخوز من شمال تخومها ، واللان ، والسرير ، وأرض برجان ، ثم على قسطنطينية ، وأفرنجة ، وشمال الأندلس ، وينتهي الى البحر المحيط ، وعرضه من غاية الاقليم الخامس الى تمام سبع وأربعين درجة وخمس عشرة دقيقة .^١

وأما البصرة وما اختصت به

« فمن خصائصها أن للغربان بها ضرباً من العجب . وذلك أنها تقع اليها بالحريف حتى تكون الأرض بها سوداء ، وتقع على كل نخلة أصرم ثمرها ، ولا تقع على ما لم تصرم ، ولو بقي عليها عذق واحد .

« ومن عجائبها أيضاً ، أن التمر يكون مصبوباً في بيادره ، فلا يقع عليه شيء من الذباب لا في الليل ولا في النهار .

« وأهل البصرة يتخذون المظلات على التمر والعجوة خوفاً عليها من الحفاش .

١ - النويري ، ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٢ .

ومن عادة الذباب الفرار من الشمس الى الظل ، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه البتة . فيتوهم المتوهم أن هاتين الحالتين من طلسم ، له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب . وليس كذلك ، وانما هو من حماية الله ووقايته .

« ووصف خالد بن صفوان البصرة ، فقال : منابتها قصب ، وأنهارها عجب وسماؤها رطب ، وأرضها ذهب . »^١

ومن المباني القديمة القليس

« وهي كنيسة كانت باليمن بناها أبرهة بن الصباح ملك المين بصنعاء . ونقل اليها الرخام المجزع والملون ، والحجارة المنقوشة بالذهب من قصر بلقيس . وكان أراد أن يرفع بناءها حتى يشرف منها على بحر عدن . فلما أهلكه الله تعالى وفرق ملكه ، أقفر ما حول هذه الكنيسة ، وكثرت حولها السباع والحشرات وبقيت الى زمن السفاح فذكر له أمرها ، فبعث اليها من خربها وأخذ ما كان فيها . حكى ذلك السهيلي في « الروض الأنف » .

« وحكي أن كيفية بناء هذه الكنيسة أنه كان لها باب من نحاس طوله عشرة أذرع وعرضه أربعة أذرع ، يدخل منه الى بيت طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون ذراعاً ، مسقف بالساج المنقوش ، مسمر بمسامير الذهب والفضة ثم يدخل من البيت الى ايوان معقود طوله أربعون ذراعاً ، عن يمينه ويساره عقود مزخرفة ، ثم يدخل من الايوان الى قبة ثلاثون ذراعاً في ثلاثين ذراعاً ، جدرانها مموهة بالذهب والفضة ، وفي صدر القبة منبر من الآبنوس المرصع بالعاج المصنوع بالذهب والفضة . »^٢

١ - نفس المكان ، ج ١ ص ٣٥٩ - ٣٦٠

٢ - نفس المكان ، ج ١ ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

ومن المباني القديمة ملعبا بعلبك

« هما كبير وصغير .

« فالكبير ، يحكى أنه من بناء سليمان بن داود عليها السلام ، وهو مبني على عمد شاهقة ، وحجارته منها ما هو عشرة أذرع وأكثر .

« والملاعب الصغير تهدم أكثره ، وبقي منه حائط طوله عشرون ذراعاً وارتفاعه كذلك ، ليس فيه الا سبعة أحجار : واحد من أسفله ، وحجرات فوقه ، وأربعة أحجار فوقهما .

« ويقال انه البيت الذي كان فيه الصنم الذي كان يدعى « بعل » .^١

فأما غمدان

« فكان بصنعاء ، زعم بعض المؤرخين أن بانيه حام بن نوح ، وزعم آخرون أن بيوراسب بناه على اسم الزهرة .

« وقال ابن هشام ان الذي أسسه يعرب بن قحطان ، وأكمله بعده وائل بن حمير بن سبا بن يعرب ، وخربه عثمان بن عفان رضي الله عنه .

« وقيل في صفته ان كان مربعاً ، أحد أركانه مبني بالرخام الابيض ، والثاني بالرخام الأصفر ، والثالث بالرخام الأخضر ، والرابع الأحمر ، وفيه سبعة سقوف طباقاً ، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعاً . وعلى كل ركن تمثال أسد من نحاس ، اذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فيه ، فيسمع لها صوت كزثير الأسد .^٢

متنزهات الدنيا

« اتفق جوابر الأقطار أن مستنزهات الدنيا أربعة مواضع ، وهي صغد سمرقند

١ - نفس المكان ، ج ١ ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

٢ - نفس المكان ، ج ١ ص ٣٨٤ .

وشعب بوان، ونهر الأبله، وغوطة دمشق، وقد رأيت ان اصف هذه المستنزهات
بصفاتها التي شاهدها ونقلت إلي ، واخبارها التي عاينتها وقصت انبائها علي ،
فقلت في ذلك : ألد ما تمتعت بحسنه النواظر ، وابهى ما ارتاحت النفوس الى
ازهاره النواضر ، وصف رياض تاهت الأرض على السماء بأزهارها ، وباهت
انوار الكواكب بنورها ونوارها .

« ففنها صغد سمرقند - الذي تحف به بساتين كست زهرتها من الأرض عاريا
واصبح للسماء بكاء في جوانبها وللروض ابتسام في نواحيها ، تتخللها قصور
يتضاءل سنا النجم في آفاقها ، وتحتجب الغزالة عند طلوعها حياء من بهجتها
واشراقها .

« ومنها شعب بوان - الذي غدت مغانيه مغاني للزمان ، وقصرت الألسن
عن وصف محاسنه وطالت الى اقتطاف ثمره البنان ، تكاد شمسه تغرب عند
الاشراق ، ولا تتخلل اشجاره الا والحياء يعيدها في قبضة الاطراق ، يستغني
بغدرانها عن صوب الصيب . »^١

« ومنها نهر الأبله - الذي طوله اربع فراسخ، ورؤس نخله على وجه الارض
شوارف واصولها في الثرى رواسخ ، يحانبه بساتين ان هب النسيم بأغصانها
تعانقت وتمايلت ، وان لعب بأفنانها تناظرت وتماثلت ، كأنما غرست في يوم
واحد شجراته ، وقامت على خط الاستواء نخلاته ، وفيه يقول التنوخي
شاعر اليتيمة :

واذا نظرت الأبله خلقتها	من جنة الفردوس حين تخيل
كم منزل في نهرها آلى السرو	ر بأنه في غيره لا ينزل
فكأنما تلك القصور عرائس	والزهر وشى فهي فيه ترفل

١ - نفس المكان ، ج ١١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

غنت قيان الطير في ارجائه هزجا يقل له الثقيل الأول
وتعانقت تلك الغصون فأذكرت يوم الوداع وعيرهم تترحل
ربيع الربيع بها فحاكت كفه حللا سا عقد الهموم تحلل
فمدبج وموشح ومدنر ومعمد محبر ومهلل
فتخال ذا عينا وذا ثغرا وذا خذا بعض تارة ويقبل

« ومنها غوطة دمشق - التي هي شرك العقول وقيد الخواطر ، وعقال النفوس ونزعة النواظر ، خلخلت الأنهار أسواق أشجارها ، وجاست المياه خلال ديارها ، وصافحت أيدي النسيم أكف غدرانها ، ومثلت في باطنها مواس أغصانها ، يخال سالكها أن الشمس قد نثرت على أثوابه دنانير لا يستطيع أن يقبضها ببنان ، ويتوهم المتأمل لثمراتها أنها أشربة قد وقفت بغير أوان في كل أوان ، فيا لها من رياض من لم يطف بزهرها من قبل أن يخلق فقد قصر ، ومن غياض من لم يشاهدها في ابانها فقد فاتته من عمره الأكثر .

« وهذه الأربعة الأماكن أجمع جوابو الأقطار على تفضيلها على ما عداها ، وتمييزها على ما سواها . »^١

مختارات من مسالك الابصار

نهر النيل

« ومن ذلك نهر النيل . وهو النهر الأعظم الذي لا يعدله في عظيم نفعه شيء : لعظم ما عليه من البلاد وطوله في الأمم . وهو ينصب من جبل القمر . وقد قدمنا عند ذكر الجبال طرفا فيه ، وإن كان لا مقال يوفيه ، لأنه إحدى الكبر ، وأولى العبر ، آية من آيات الله في أرضه ، وعجيبة لمن تأمل من خلقه . ساقه الله تعالى إلى مصر وأحيا به بلدة ميتا وسقاه أمة عظمى . وإن لم تكن هي المتفردة بنفعه ، فإنها كالتفردة به : لعظيم منفعتها منه وعميم مصلحتها به . يجيء

١ - نفس المكان ، ج ١١ ص ٢٦٠ - ٢٦٢ .

اليها أحوج ما كانت الى مجيئه ، وينصرف أحوج ما كانت الى انصرافه . وذلك تقدير العزيز العليم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

« وفيه يقول القاضي الفاضل : « النيل المصري الذي يكسو الفضاء ثوبا فضيئا ، ويذكي في الأرض ماؤه سراجا من النور مضيا ، ويتدافع تياره دافعا في صدر الجذب بيد الخصب ، وترضع أمهات خلجانه المزارع ، فتأتي ابناؤها بالعصف والأب ، « وفيه يقول ايضا : « وأما النيل فقد امتدت اصابعه ، وتكسرت بالموج أضالعه ، ولا يعرف الان بمصر قاطبة نهر سواء ، ولا من يرجى ويخاف الاياه . »

« ونحن نذكر كيف هو ، فنقول والله اعلم : ان النيل ينصب عشرة أنهار من جبل القمر المتقدم الذكر . كل خمسة أنهار من شعبة . ثم تتبعر تلك العشرة الأنهار في بحيرتين : كل خمسة أنهار تبعر بحيرة بذاتها . ثم يخرج من البحيرة الشرقية منها بحر لطيف يأخذ شرقا على جبل قاقولى ، ويمتد الى مدن هناك . ثم يصب في البحر الهندي . ثم يخرج من تينك البحيرتين ستة أنهار . من كل بحيرة ثلاثة أنهار . ثم تجتمع تلك الستة الأنهار في بحيرة متشعبة .

« حدثني أفضى القضاة شرف الدين ابو الروح عيسى الزواوي ، أن الأمير أبا دبوس ابن أبي العلى أبي دبوس ووالده آخر سلاطين بر العدو من بني عبد المؤمن حدثه أنه وصل الى هذه البحيرة ، في أيام هربه من بني عبد الحق ، ملوك بني مرين القائمين الآن .

« رجعنا الى ذكر مجتمع تلك الأنهار الستة في تلك البحيرة وبعضهم يسميها: البطيحة . فنقول :

« وفي تلك البطيحة قصرية جيل : يفرق بها الماء نصفين .

« يخرج النصف الواحد من غربي البحيرة . وهذا النصف هو المعروف بنيل السودان . ويستقل نهرأ يسمى بحر الدمام . يأخذ مغربا ما بين سمغرة وغانة ،

على جنوبي سمغرة وشالي غانه . ثم ينعطف هناك منه فرقة ترجع جنوباً الى غانة
ثم تمر على مدينة برنسة ، ويأخذ تحت جبل في جنوبها خارج عن خط الاستواء
الى رقيلة . ثم يتبحر في بحيرة هناك . وتستمر الفرقة الثانية مغربة الى بلاد
مالي والتكرور حتى تنصب في البحر المحيط ، شمالي مدينة قليبو .

« ويخرج النصف الآخر متشاملاً آخذاً على الشمال الى شرقي مدينة جيمي .
ثم يتشعب منه هناك شعبة تأخذ شرفاً الى مدينة سحرته . ثم ترجع جنوباً . ثم
تعطف شرقاً يجنوب الى مدينة سحرته . ثم الى مدينة مركة ، منتهيها في العود
هناك الى خط الاستواء حيث الطول خمس وستون درجة علم عليها في لوح الرسم
سه . ويبهر بحيرة هناك .

« ويستمر عمود النيل من قبالة تلك الشعبة شرقي مدينة شيمي متشاملاً آخذاً
على أطراف بلاد الحبش . ثم يتشامل على بلاد السودان الى دنقلة ، حتى يرمى
على الجنادل الى اسوان الى قوص ، منحدرأ يشق بلاد الصعيد شقاً ، حتى يقابل
قرية تعرف بدروة سربام . وقد تعرف الآن بدروة الشريف : نسبة الى الشريف
ابن ثعلب ، الثائر في الأيام الظاهرية الركنية بالصعيد لمقامه بها .

« ويتشعب منه في غريبه شعبة تسمى المنهى . تستقل نهراً يصل الى الفيوم .
يقال ان يوسف (عليه السلام) احتفراه ايام توليه لأمر ملك مصر . وهو يعرف
الى الآن ببحر يوسف . وهو نهر لا ينقطع جريانه في وقت من اوقات السنة ،
بخلاف بقية ما يتشعب بالديار المصرية من خلجان النيل . فيسقي الفيوم عامة ،
سقياً دائماً لا ينقطع . ثم يبحر فاضل مائه في بحيرة هناك .

« ومن العجب — وهو مما رايت به بعيني انه ينقطع مأؤه من فوهته اوان انقطاع
المياه من خلجان الديار المصرية ، ويندبى دون فوهته ، ثم يكون له بلبل دون
المكان المندى ثم يجري جرياً ضعيفاً دون مكان البلبل ، ثم يستقل نهراً جارياً
لا ينقطع الا بالسفن . ويتشعب منه انهار ، وتنقسم قسماً تعم الفيوم لسقي
قراه ومزارعه وبساتينه وعامة اماكنه

ثم نعود الى ذكر عمود النيل الممتد : فنقول

« انه من دروة سريام حيث يتشعب المنهى يستمر في بقية الصعيد، يشقه شقا الى مدينة القسوط (وهي التي يسميها الآن عامة أهل مصر بمصر) حتى يتعدها. ثم يتفرق فرقتين : تأخذ احدهما على دمياط ، والأخرى على رشيد . وعندهما انتهاء النيل ، ويصب في البحر الشامي .

« ومن مبدأ هبوطه من اسوان مارا في الصعيد الى ان تصب فرقتاه في البحر الشامي ، تقسم منه البحار والأنهار ، وتتشعب منه الخلج والمساقى . تجري في زيادته ، وتنقطع في نقصه .

« وحدثني الشيخ الثبت سعيد الدكالي (وهو من أقام بمالي خمسا وثلاثين سنة، مضطرباً في بلادها، مجتمعاً بأهلها)، قال : « المستفيض ببلاد السودان ان النيل في أصله ينحدر من جبال سود تبان على بعد كأن عليها الغمام . ثم يتفرق نهرين : يصب أحدهما في البحر المحيط الى جهة بحر الظلمة الجنوبي ، والآخر يصل الى مصر حتى يصب في البحر الشامي » .

« قال الشيخ سعيد الدكالي « ولقد توغلت في أسفاري في الجنوب مع النيل . فرأيت متفرقا على سبعة أنهر ، تدخل في صحراء منقطعة ، ثم تجتمع تلك الأنهر السبعة ، وتخرج من تلك الصحراء نهراً واحداً مجتمعاً . كلا الرؤيتين في بلاد السودان . ولم أره لما اجتمع بالصحراء لأننا لم ندخلها ، اذ لم يكن بنا حاجة الى الدخول اليها » .

« قلت : والأقوال في اول مجرى النيل كثيرة . ذكر فيها المسعودي وغيره ما لا فائدة فيه .

« والشائع على ألسنة الناس أن احدا ما وقف على أوله بالمشاهدة. وجعل كل واحد منهم سببا لعدم الوقوف على حقيقة أوله . »^١

١ - العمري ، « مسالك الأبحار » ج ١ ص ٦٧ - ٧١ .

نهر اشبيلية :

« فمن ذلك ، مما هو بحيزيرة الأندلس نهر اشبيلية ، ينصب من الجبل الفاصل بينها وبين قرطبة ، وينصب في البحر الشامي . وهو من أحسن الأنهار وأجلها ، محفوف بالبساتين والدور والقصور . ومضت فيه - أيام ملك المسلمين لها - أوقات مسرة وهو . وحكى الفتح بن خاقان ، قال : « ركب عبد الجليل بن وهبون ، وأبو الحسن غلام البكري من اشبيلية في ليلة أظلم من قلب الكافر ، وأشد سواداً من طرف الظبي النافر ، ومعه غلام وضيء قد أطلع وجهه البدر ليلة تمامه ، على غصن بان من قوامه ، وبين أيديهم شمعتان قد أزرتا بنجوم السماء ، ومزقتا رداء الظلماء ، وموهتا بذهب نورهما لجين الماء . فقال عبد الجليل ارتجالاً :

كأنما الشمعتان اذ سمتا خدا غلام محسن الغيد
وفي حشا النهر من شعاعها طريق نار الهوى الى كبدي
وقال غلام البكري :

أحبت بمنظر ليلة ليلاء تجنى بها اللذات فوق الماء
في زورق يزهى بغرة اغيد يختال مثل البانة الغيناء
قرنت يداه الشمعتين ويجهه كالبدري بين النسر والجوزاء
والتاج فوق الماء ضوء منهما كالبرق يخفق في غمام سماء

« قلت : ومن هذا النهر أخذت اشبيلية ، فقال بعضهم « لسبب اشبيلية عقرها ، وساورها أرقمها » . يريد بالعقر شرفها المطل ، وهو عقر بني الشكل ، وبالأرقم نهرها . قالوا : وهو من العجائب .

« وحكى ابن ظافر ، قال : « ركب [الأستاذ] أبو محمد بن صارة [مع أصحاب له] في نهر اشبيلية في عشية سال أصيلها على لجين الماء عقيانا ، وطارت زواريقها في سماء اللهو عقباناً ، وأبدى نسيمها من الامواج والدارات سرراً

وأعكنا ، في زورق يجول جولان الطرف ، ويسود اسوداد الطرف
فقال بديها :

تأمل حالنا والجو طلق بحياه ، وقد طفل المساء
وقد جالت بنا عذراء حبلى تجاذب مرطها ريح رخاء
بنهر كالسجنجل كوثري تعبس وجهها فيه السماء

« ولما وقف عليها ابن خفاجة ، استحسناها واستظرفها واستطابها . فقال
يعارضها ، على وزنها ورويا وطريقها :

ألا يا حبذا ضحك الحميا بجانتها ، وقد عبس المساء
وأدهم من جياذ المساء نهد تنازع حبله ريح رخاء
إذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت الأرض تجدها السماء

« ونهر سرقسطة . وهو نهر جليل كبير متسع الجوانب .

« وذكر ابن خاقان أن المستعين بن هود ركب هذا النهر يوماً لتفقد بعض
معاقله ، المنتظمة بجيد ساحله . وهو نهر غزر ماءؤه وراق ، وأزرى على نيل
مصر ودجلة العراق . قد اكتنفته البساتين من جانبيه ، وألقت ظلها عليه ،
فما تكاد عين الشمس تنظر إليه . هذا على اتساع عرضه ، وبعد سطح مائه
وأرضه . وقد توسط زورقه زوارق حاشيته توسط البدر للاله ، وأحاطت به
احاطة الطفافة بالغزاله . وقد أعدوا من مكاييد الصيد ما استخرج ذخائر الماء
وأخاف حتى حوت السماء . وأهله الهالات طالعة من الموج في سحاب ، وقانصة من
بنات الماء كل طائفة كالشهاب . فلا ترى الا صيوداً كصيد الصوارم ، وقدود
اللاهزم ، ومعاصم الأبكار النواعم . فقال الوزير أبو الفضل بن حسداي ،
والطرب قد استهواه ، وبديع ذلك المرأى قد استرق هواه ، وارتجل :

لله يوم أنيق واضح الغرر مفضض مذهب الأصال والبكر

كأنما الدهر لما ساء اعتبنا فيه بعثى وأبدى صفح معتذر
 نسير في زورق حف السفين به من جانبيه بمنظوم ومنتثر
 مد الشراع به نشرأ على ملك بذ الاوائل في أيامه الآخر
 هو الامام الهمام المستعين حوى علياء مؤتمن في هدي مقتدر
 تحوى السفينة منه آية عجباً بحر تجمع حق صار في نهر
 تثار من قعره النينان مصعدة صيدا كما ظفر الغواص بالدرر
 وللندامى به عب ومرتشف كالراح تعذب في ولد وفي صدر
 والشرب في ود مولى خلقه زهر يذكو ، وغرته أهى من القمر ،^١

ديارات

« دير قوطا — وهو بالبردان ، على شاطئ دجلة .

« قال الشابشي : وبينه وبين بغداد بساتين متصلة ، ومتزهات منتظمة . كل ذلك شجر وكروم كثيرة الطرّاق . قال : وهذا الدير يجمع اموالا كثيرة : من عمارته وكثرة فواكهه وما يطلبه أهل البطالة فيه . ولعبد الله بن العباس الربيعي فيه :

يا دير قوطا ، لقد هيئت لي طربا أزاح عن قلبي الأحزان والكربا
 بشادن ما رأت عيني له شبيها في الناس ، لا عجا منهم ولا عربا
 والله ، لو سامني نفس سمحت بها وما بخلت عليه بالذي طلبا
 وأنشد الشابشي له فيه قوله :

يا حبذا يومي بالدالية نشرها قفصية صافية

١ — نفس المكان ، ص ٧٤ — ٧٧

مع كل قرم متلف ماله لم تبق في الدنيا له باقية
فخذ من الدنيا ولذاتها ، فانما نحن بها عارية !^١
« دير الرصافة - هو بالشام ، قريب رصافة هشام بن عبد الملك . وموضعه
حسن . وفيه قيل :

نراك جزعت يا دير الرصافة غداة تحولت عنك الخلافة
فلا تجزع وتذري الدمع حزنا ، فان لكل مجتمعين آفه
وُحكي أن أبا نواس مر به ، فبات فيه . فلما رحل عنه ، قال :
ليس الا دير الرصافة دير فيه ما تشتهي النفوس وتهوى
بته ليلة فقضيت اوطا را ويوما ملأت قطريه لهوا
« وقد ذكره ابو الفرج وقال : ان ابن حمدون حكى أن المتوكل لما اتى دمشق ،
ركب يوما الى رصافة هشام ، يزور دوره وقصوره . ثم خرج فأتى الدير وهو
من بناء الروم ، حسن البناء ، بين مزارع وانهار . فبينما هو يدور ، اذ بصر
برقعة قد ألصقت في صدره . فأمر بها ان تقلع ويؤتى بها . فقلعت واذا فيها :

أيا منزلا بالدير أصبح خاليا
كأنك لم تسكنك بيض أو انس
وأبناء أملاك عباشم سادة
إذا لبسوا أذراعهم فضراغم
ليالي هشام بالرصافة قاطن
اذ العيش غض والخلافة لدنه
تلاعب فيه شمال ودبور
ولم تلبختر في فنائك حور
أصاغرهم عند الأنام كبير
وان لبسوا تيجانهم فبدور
وفيك ابنه يادير وهو أمير
وأنت طيرير والزمان غرير

١ - نفس المكان ص ٢٨٠ .

وروضك فينان يذوب نضارة وعيش بنى مروان فيك نضير
 رويدك ان اليوم يتبعه غد وان صروف الدائرات تدور
 « فلما قرأها المتوكل ، ارتاع وتطير . وقال أعوذ بالله من شر أقداره ! ثم عاد
 بالديراني وقال : من كتب هذا ؟ قال : والله لا أدري . لأنني منذ نزل أمير
 المؤمنين هنا ، لا أملك من أمور هذا الدير شيئاً . يدخله الجند والشاكرية .
 وغاية قدرتي أني متوار في قلایتي . فهم بضرب عنقه واخراب الدير . فلم يزل به
 الفتح بن خاقان حتى كف . ثم ظهر أن الذي كتبها رجل من ولد روح بن
 زنباع ، صاحب عبد الملك ، وأمه مولاة لهشام . »^١
 « دير السيق - قبلي البيت المقدس . على نشز عال ، مشرف على الغور ،
 غور أريحا . يطل على تلك البساتط الحضر ويجرى الشريعة . وبه رهبان ظراف
 اكياس ، ولا يأتهم الا قاصد لهم او مزار في مزارع الغور . تحتهم وفوقهم
 الطريق الآخذة الى الكتيب الأحمر . وقبر موسى عليه السلام في القبة التي
 بناها عليه الملك الظاهر بيبرس .

وفي هذا الدير ومشترفه ، واطلال قلاليه وغرفه ، قلت :

ارى حسن دير السيق يزداد كلما نظرت اليه والفضاء به نضر
 بنوه على نجد على الغور مشرف كتخت مليك تحته بسط خضر
 وأشرق في سود الغمام كأنما تشقق ليلا عن جلايبه الفجر
 وقام على طود علي كأنما مصابيعه تحت الدجى الأنجم الزهر
 وزفت اليه الشمس من جنب خدرها وناغاه جنح الليل في افقه البدر
 والقت اليه الريح فضل عنانها واحنى عليها لا قبل له عذر

١ - نفس المكان ، ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

ولو كان كالنسرين هان ارتقاؤه ولكن قد حظ من دونه النسر
علا نهر ريمحا والمجرة فوقه فمن فوقه نهر ومن تحته نهر^١

طرابلس

« قال » ابن فضل الله : ولها نهر يحكم على دورها وطبقاتها بحيث يجري الماء في الاماكن العالية من الدور التي يرقى اليها بالدرج . وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات اشجار وكروم ومروج واغنام وبقر . ويجتمع فيها الجوز واللوز وقصب السكر والثلج . ويعمل بها السكر . وتأثيها وفود البحر وترسي بها مراكبهم وهي موضع زرع وضرع . وهي الان مدينة كثيرة الرخام بها مارستانان ومساجد ومدارس وزوايا وحمامات حسان موصوفة واسواق جليلة وجميع بانياتها بالحجر والكس مبيضة ظاهراً وباطناً . بها غوطة ويحيط بغوطتها مواضع من مزدرعاتها .^٢

مختارات من صبح الاعشى

تونس

« قال البكري : ودور هذه البحيرة نحو اربعة وعشرين ميلاً . قال في « العزيزي » : وهي مدينة جليلة ، لها مياه ضعيفة جارية يزرع عليها ، وفيها الخصب وكثرة الغلات وهي في وطأة من الأرض في سفح جبل يعرف بأمر عمرو يستدير بها خندق وسور حصين ، ولها ثلاثة ارباض كبيرة من جهاتها ، وارضها سبخة ، وجميع بنائها بالحجر والاجر ، وابنيته مسقفة بالأخشاب ، ودور اكبرها مفروشة بالرخام . وذم في « الروض المعطار » بيوتها فقال هي كما يقال :

١ - نفس المكان ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

٢ - العمري عن ابن الشحنة ، « الدر المنخب في تاريخ مملكة حلب » ، بيروت ، المطبعة

الكاثوليكية ، ١٩٠٩ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

ظاهرها رخام ، وباطنها سخام . وشرب أهلها من الآبار ، وبيوتها صهاريج يجمع فيها ماء المطر لغسل القماش ونحوه ، وبها الحماطات والأسواق الجليلة ، وبها ثلاث مدارس : وهي الشاعية والفرضية ، ومدرسة الهواء ، وبها البساتين البعيدة والقريبة منها ، والبساتين محيطة ببحيرتها المقدّم ذكرها من جنوبها .

« قال في «مسالك الأبصار» : ومذ خلا الأندلس من أهله ، واوروا الى جناح ملوكها ، مصرّوا اقليمها ، ونوّعوا بها الغراس ، فكثرت مستنزهاتها ، وامتدّت بسيط بساتينها . قال : وبها يعمل القماش الافريقي : وهو ثياب رفّاع من القطن والكتان معاً ومن الكتان وحده ، وهو امتع من النّصافيّ البغدادي واحسن ، ومنه جلّ كساوى اهل المغرب . وللسلطان بها قلعة جليلة يسكنها ، يعبرون عنها بالقصبة كما هو مصطلح المغاربة في تسمية القلعة بالقصبة ، وللسلطان بها بستانان : احدهما ملاسق ارباض البلد يسمى براس الطابية ، والثاني بعيد من البساتين يسمى بأبي فهر ، بينه وبين البلد نحو ثلاثة اميال ، والماء منساق اليها من ساقية يجبل يعرف بجبل زغوان . »^١

سجلماسة

« وهي مدينة عظيمة اسلاميّة ، وبينها وبين البحر الرّومي خمس عشرة مرحلة ، وليس قبليّتها ولا غربيها عمران ، وبينها وبين غانة من بلاد السودان مسيرة شهرين في رمال وجبال قليلة الميابه ، لا يدخلها الا الابل المصبرة على العطش . اختطّتها يزيد بن الأسود من موالي العرب ، وقيل : مدرار بن عبدالله . وكان من أهل الحديث ، يقال انه لقي عكرمة مولى ابن عباس بأفريقية وسمع منه . وكان صاحب ماشية ، وكان ينتجع موضع سجلماسة بالصحراء ليرعى به ماشيته ، فكان يجتمع اليه أهل تلك الصحراء من مكناسة والبربر ، وكانوا

١ - ... القلعة شندبي ، ج ٥ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

يدينون بدين الصفرية من الخوارج ، فاجتمع عليه جماعة منهم فلما بلغوا أربعين رجلاً قدموا عليهم يزيد بن الأسود وخلعوا طاعة الخلفاء ، واختطوا هذه المدينة سنة أربعين ومائة من الهجرة . ولها اثنا عشر باباً ، وهي كثيرة العمارة ، كثيرة البساتين ، رائقة البقاع ، ذات قصور ومنازل رفيعة وعمارات متصلة ، على نهر كثير الماء يأتي من جهة المشرق من الصحراء ، يزيد في الصيف كزيادة النيل ، ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل ، والزرع عليه كثير الاصابة ، والمطر عندهم قليل : فاذا كانت السنة كثيرة الامطار ، نبت لهم ما حصدوه في العام السابق من غير بذر ، وربما حصدوه عند تناهيه وتركوا أصوله فتنبت ثانياً . ويقال : يزرع بها عاماً ويحصد ثلاثة أعوام ، وذلك أن أرضها مشقة ، وهي بلدة شديدة الحر ، فاذا يبس الزرع تنثر عند الحصاد ودخل في الشقوق ، فاذا كان العام الثاني وعلاه ماء النهر وخرج عنه حرثوه بلا بذر فينبت ما في الشقوق ، ويبقى كذلك ثلاث سنين .^١

مدينة مواكش

« بفتح الميم وتشديد الراء المهمة وفتحها وألف ساكنة ثم كاف ثم شين معجمة . وهي مدينة واقعة في أول الاقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول احدى عشرة درجة ، والعرض تسع وعشرون درجة . بناها امير المسلمين « يوسف بن تاشفين » ملك المرابطين في أرض صحراوية ، وجلب اليها المياه . قال ابن سعيد : واول ما بنى بها القصر المعروف (بقصر الحجر) ثم بنى الناس حوله ، ثم زادها يعقوب بن عبد المؤمن ، وكبرها ومصرها ، وفتحها وضخمها ، وجلب اليها المياه والغراس . قال في « تقويم البلدان » : ودورها سبعة أميال ، ولها سبعة عشر باباً ، قال في « الروض المعطار » : وبنى سورها علي بن يوسف بن تاشفين في سنة ست وعشرين

١ - نفس المكان ، ج ٥ ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

وخسمائة ، وقيل سنة أربع عشرة وخسمائة . قال : وطولها مائة وعشرون ميلا ، وعرضها قريب من ذلك ، وهي في وطأة من الأرض ليس حولها جبال الا جبل صغير منه قطع الحجر الذي بنى منه علي بن يوسف بن تاشفين قصره ، وعامة بنائها بالطين والطوب .

« قال ابن سعيد : وهي مما سكنت بها وعرفتھا ظاهراً وباطناً ، ولا أرى عبارة تفي بما تحتوي عليه ، ويكفي أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه ، وغير ذلك حتى ان الرئيس منهم يغلق بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج اليه ، ولا يخرج من بابه الى خارج داره الحاجة يحتاجها ، ولا يشتري شيئاً من السوق لما كل ، ولا يقرىء أولاده في مكتب ، ويخرج من بابه راكباً فلا تقع عليه العين راجلاً . قال : ولا أدري كيف أصل الى غاية من الوصف اصف بها ترتيب هذه المدينة المحدثه ، فانها من عجائب همت السلاطين ، ذات اسوار ضخمة وأبواب عالية .

« وبظاهرها مدينة اختطها المنصور « يعقوب بن عبد المؤمن » له ولخواصه تعرف بتما مراكش ، وبها قصر الخلافة الذي بناه به دور عظيمة ، وبها بستان يعرف بالبحيرة طوله اثنا عشر ميلا ، به بركة عظيمة لم يعمل مثلها قال العقيلي : طولها ثلثمائة وثمانون باعا ، على جانبها الواحد اربعمائة شجرة نارنج ، بين كل اثنتين منها ليمونة أو ريحانة . وهي أكثر بلاد الغرب بساتين ، وشجرها أكثر منها ، وبساتينها تسقي بالبئار وبئارها قريبة الرشاء على نحو قامتين من وجه الأرض ، وهي كثيرة الزرع والضرع ، وبها دار الضيافة المعروفة بدار الكرامة . وفيها يقول محمد بن محمد البربري من أبيات يمدحهم ويصفها :

خير قوم دعوا الى خير دار ، هي للملك نضرة وكامه

عالم السبعة الأقاليم فيها وهم في فنائها كالقلامه

« وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين ، طوله مائة وعشرة أذرع ، وعلى

بابه ساعات مرتفعة في الهواء خمسين ذراعاً ، كان يرمي فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم ، تتحرك لنزولها أجراس تسمع على بعد ، تسمى عندهم بالبحانة . قال في « تقويم البلدان » : الا ان الناس اكثروا فيها البساتين فكثروا فيها . قال في « الروض المعطار » : وقد هجاها أبو القاسم بن أبي عبد الله محمد بن ايوب بن نوح الغافقي من أهل بلنسية بأبيات أبلغ في ذمها فقال :

مراكش ان سألت عنها ، فانتها في البلاد عارا
هواؤها في الشتاء ثلج ، وحرها في الصيف نار
وكل ما ثم وهو خير من أهلها عقرب وفار
فان أكن قد مكنت فيها ، فان مكثي بها اضطرار !

المقصد الثاني

(بلاد الغرب الأقصى)

(في ذكر زروعها ، وحبوبها ، وفواكهها ، وبقولها ورياحينها ومواشيتها ، ومعاملاتها ، وصفات أهلها . وفيه خمس جمل)

الجملة الاولى :

(في ذكر زروعها ، وحبوبها ، وفواكهها ، وبقولها ، ورياحينها)

« أما زرعها فعلى المطر كما تقدم في افريقية .

« وأما حبوبها ، ففيها من أنواع الحبوب : القمح ، والشعير ، والفل ، والمختص ، والعدس ، والدخن ، والسلت وغير ذلك . أما الأرز فانه عندهم قليل ، بعضه يزرع في بعض الأماكن من برّ العدو ، وأكثره مجلوب اليهم من بلاد الفرنج . على انهم لا نهمة لهم في أكله ولا عناية به . وبها السمسم على قلّة :

ولا يعتصر منه بالمغرب شيرج لاستغنائهم عنه بالزيت حتى مزورات الضعفاء وكذلك يعملون الحلوى بالعسل والزيت ، وانما يستعمل الشيرج عندهم في الأمور الطبية .

« وأما فواكهها ، فبها أنواع الفواكه المستطابة اللذيذة المختلفة الأنواع : بين النخل ، والعنب ، والتين ، والرمان ، والزيتون ، والسفرجل ، والتفاح على أصناف ، وكذلك الكمثرى ، وتسمى عندهم الانجاص كما بدمشق ، وبها المشمش والتين ، والبرقوق ، والقراصيا ، والخوخ ، وغالب ذلك على عندة أنواع ، والتوت على قلة ، والجوز ، واللوز . ولا يوجد بها الفستق والبندق الا مجلوباً . وبها الاترج ، والليمون ، والليم ، والنارنج ، والزنبوع ، وهو المسمى بمصر والشام الكتّاد . وبها البطيخ الأصفر والأخضر واسمه عندهم الدلاع كما في سائر بلاد المغرب على قلة ، والموجود منه غير مستطاب . وبها الخيار ، والقثاء ، واللفت ، والباذنجان ، والقرع ، والجزر ، واللوبيا ، والكرنب ، والشمار ، والصعتر وسائر البقول . والموز موجود بها في بعض المواضع نادراً ، والقلقاس لا يزرع عندهم الا للتعرج على عروقه لا لأن يؤكل ، وبها قصب السكر بجزائر بني مزغنان وبسلا كثير ، ويعصر ثم يعمل منه القند ومن القند السكر على أنواع لا سيما بمرّاكش ، فانه يقال ان بها أربعين معصرة للسكر ، وان حمل حمار من القصب يساوي درهماً من دراهمهم : وهو ثلث درهم من الدراهم المصرية ، ويعمل منه المكرّر الفائق ، ومع ذلك فليس لهم به اهتمام لا كتفائهم عنه بعسل النحل مع كثرته عندهم ، وميلهم اليه أكثر من السكر ، حتى يقال انه لا يستعمل السكر عندهم الا الغرباء أو المرضى .

« وأما رباحينها ، فبها الورد ، والبنفسج ، والياسمين ، والأكس ، والزرجس ، والسوسن ، والبهار ، وغير ذلك . »^١

١ - نفس المكان ، ج ٥ ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

الفصل السابع

تونس وجغرافيو العرب

إذا فحصنا مؤلفات الجغرافيين العرب لوجدنا انهم بعد ان يتناولوا الارض بشكل عام ، يأخذون بالتحدث عن البحار والانهار وتشابه الاقاليم وما الى ذلك . ثم ينتقلون الى الاجزاء نفسها فيعالجونها قطراً او مملكة مملكة . فهذا المقدسي مثلاً يبدأ حديثه عن المغرب بقوله « هذا اقليم بهي ، كبير سري ، كثير المدن والقرى ، عجيب الخصائص والرخا . به ثغور جليلة وحصون كثيرة ورياض نزهة »^١ ويختم كلامه عنه بقوله « هو اقليم جليل ، كبير طويل ، يوجد فيه اكثر ما يوجد في سائر الاقاليم مع الرخص ، كثير النخيل والزيتون ، به مواضع الحر ومعادن البرد ... جيد الهواء والماء . فاما الحر فانك تجده من مصر الى السويس الاقصى ، الا في مواضع فان بها جبلاً وبلدناً باردة »^٢ والمغرب في عرف الجغرافيين العرب هو المنطقة الممتدة من مصر الى المحيط الاطلسي ، وكثيراً ما يدخلون الاندلس فيه . وسنقتصر في هذا الفصل على ما كتبه ابن حوقل في كتابه « صورة الارض » عن مدن مدن القطر التونسي . يقول ابن حوقل :

١ - المقدسي ص ٢١٥ .

٢ - نفس المكان ص ٢٣٦ .

« وقابس مدينة منها على ست مراحل الى جهة القيروان وجادة الطريق ، ذات مياه جارية ، واشجار متهدلة وفواكه رخيصة . وبها من البربر الكثير ولهم من الزروع والضياع ما ليس مثله لمن جاورهم ، الى زيتون وزيت وغللات . وعليها سور يحيط به خندق . ولها اسواق في ربضها وجهاز من الصوف كثير . ويعمل بها الحرير الكثير الغزير ، وبها جلود تدبغ بالقرظ وتعم اكثر المغرب فتأتي من طيب الرائحة ونعمة اللبس بمثل حال الاديم الجرشي . وبها صدقات وزكوات وضرائب وجوال على اليهود ، وسائمة كثيرة . ولها عامل بنفسه ، وهي خصبة في اكثر اوقاتها . . . وفي باديتهم شر شمر . . . وذلك انهم لا يخلون من الشراية والقول بالوعد والوعيد مع الغيلة لبني السبيل والاعتراض على اموالهم في الكثير والقليل . والويل لمن نام بينهم ، والحرب على من جاورهم واستجار بهم ، مخالفين اكثر ايامهم لسلطانهم ، مواريين في الحقوق عليهم . ولم تزل هذه العادة بهم الى ان سار منهم الكثير الى قابس فأحرقوا ربضها وحاصروها واستباحوا اموال تجارها واهل الذمة منها وامكن الله تعالى منهم فاهلك جميع من رصدها ثم سار عليهم زعيم صنهاجة فجعل عشرة منهم في كساء .

« ومدينة سفاقس مدينة جل غلاتها الزيتون والزيت ، وبها منه ما ليس بغيرها مثله . وكانت سعره عندهم فيما سلف من الزمان بحال غيرته الفتن . في وقتنا هذا ربما بلغ من ستين قفيزا بدينار الى مائة قفيز بدينار على حسب السنة وريمها . وزيت مصر في وقتنا هذا فمن ناحيتها يجلب لقلته بالشام . وهي ناحية على نحر البحر ولها مرسى ميت الماء . وعليها سور من حجارة وابواب حديد منيعة ، وفيها محارس مبنية للرباط بها . واسواقها عامرة وهي قليلة الكروم وفاكهتها من قابس تسد حاجة اهلها وشرب اهلها من مواجن بها ومواجنها صالحة الطعوم حافظة لما استودعت . ولهم من صيود السمك ما يكثر ويعظم

تصاد بمخاطر قد زربت وعملت في الماء فتؤخذ بأيسر سعي . وبناءها بالحجارة والجير وبينها وبين المهدي مرحلتان ولها عامل عليها لسلطان بذاته .^١

« والمهدي مدينة صغيرة استحدثها المهدي القائم بالمغرب وسماها بهذا الاسم وهي في نحر البحر وتحول اليها [من رقادة القيروان] في سنة ثمان وثلثمائة ، وهي من القيروان على مرحلتين . فوضة لما والاها من البلاد كثيرة التجارة ، حسنة السور والعمارة منيعة ، ولها سور من حجارة وله بابان ليس لها فيما رأيته من الارض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الراققة ، وعلى مثالها عملا ومثل شكلها اتخذها . كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور حسنة الحمامات والحنانات خصبة رפה الفواكه والغلات طيبة الداخل نزهة الخارج بهية المنظر . أدركتها سنة ست وثلثين وملوكها كفا وجيوشها حماة وتجارها طراة . وقد اختلفت احوالها والتاثر اعمالها وانتقل عنها رجالها بانتقال ملوكها عنها وبعدهم منها . وكان اول نحس أظللها ابو يزيد غلذ بن كيداد وخروجه بالمغرب على اهلها . وانتالت المناحس عليها الى الآن وقد بقي بها بعض رمق .^٢

« وأما سوسة فمدينة بين الجزيرة والمهدي طيبة رפה خصبة على نحر البحر ، ولها سور حصين ، وماؤها معين ، وبها مواجن قليلة ، واعمال صالحة نبيلة ، وفي اهلها دهقنة والغالب عليهم السلامة ، وهي احدى فرض البحر . ولها اسواق حسنة وفنادق وحمامات طيبة . وهي من القيروان على مرحلة . وكانت لها ضياع جمة ووجوه من الجباية غزيرة وغلات واسعة ورباطات كثيرة . وبين المهدي وسوسة رباط يسكنه امة من الناس على مر الايام والساعات يعرف بالمنستير ويقصده اهل افريقية لوقت من السنة فيقيمون به اياماً معلومة ويحضر

١ - نفس المكان من ٧٠ - ٧١ .

٢ - نفس المكان من ٧١ .

بفاخر الاطعمة ونفيس المآكل . وقيم جمعهم به مدة ثم يتفرقون الى اوطانهم وهو على نحر البحر . ١

« مدينة تونس وهي قديمة ازلية ذات مياه جارية قليلة والانتفاع بها كثير والعائدة الى اربابها صالحة . وهي خصبة في ذاتها متسع بغلاتها ويعمل بها غضار حسن الصباغ وخزف حسن كالعراقي المجلوب . وكان اسمها في قديم الزمان ترشيش فلما أحدث فيها المسلمون البنيان واستحدثوا البساتين والحيطان سميت تونس . وهي مصابة لقرطاجنة المشهور امرها بالطيب وكثرة الفواكه وحسنها وجودة الثمار وصحة الهواء واتساع الغلات . ومن غلاتها القطن ويحمل الى القيروان فيظهر الانتفاع به وكذلك القنب والكرويا والعُصْفُرُ والعسل والسمن والحبوب والزيت ، وكثير من الماشية تختص بها . ٢ »

« وبزرت مدينة على البحر خصبة اصغر من سوسة في ذاتها وعامل المعونة ينزل من أعمالها في بزرت فيها ثمار كثيرة ، وانهار سطفورة واسعة غزيرة والارتفاع بها والجدي على السلطان قليل . والحيتان بها وتونس ما يزيد على الكثرة ولا يدانيه ما باطرابلس من الرخص والسعة . (ولها واد عجيب يخرج فيه في كل شهر نوع من السمك . واذا اهل الهلال لا تجدد من ذلك النوع واحدة ويظهر غيره) . واهل هذا الاقليم جلد وناسه ذوو بأس في البر والبحر صبر على الشقاء والكمد مع قلة الخور والضجر ، وان كان بلدهم في هذا الوقت قد خلا وجلا . ٣ »

« وطبرقه قرية وهي عدوة لاهل الاندلس اليها ينتهون ومنها الى الاندلس يركبون . (وهي قرية وبثة وبها عقارب قاتلة نحو عقارب عسكر مكرم في

١ - نفس المكان ص ٧٢ - ٧٣ .

٢ - نفس المكان ص ٧٣ - ٧٤ .

٣ - نفس المكان ص ٧٤ .

وحاء القتل وسرعه) ومضاء الميتة وقربها . ومن أراد طبرقه من تونس على الجادة اجتاز على مدينة باجه وهي مدينة قديمة ازلية كثيرة القمح والشعير ولها من الغلات والزروع ما ليس بجميع المغرب ، كهو عندي كثرة وجودة ونقاء الى جوهر في نفس حبوبها . وهي صحيحة الهواء كثيرة الرخاء واسعة الفضاء غزيرة الدخل على السلطان وافرة الارباح على تجارها والمزارعين بها وطبرقة المذكورة مع صغر مقدارها وتفه منزلتها فانما اشتهرت لكثرة ورود المراكب بالاندلسيين والتجار عليها ونزولهم فيها . وتعشيرهم كان في سالف الزمان بها وهي تجاه اوائل الاندلس من المكان الذي هي به وتحاذي ايضاً بعض بلاد افرنجه . ١

الفصل الثامن

السند وجغرافيو العرب

في القرن العاشر للميلاد (الرابع للهجرة) بلغت العناية بالجغرافية والاقاليم درجة كبيرة بين المواضيع التي طرقها المؤلفون العرب . وقد نبغ في هذا العصر عدد من الجغرافيين يمكن اعتبارهم اعلاما في بحوثهم ودراساتهم . ومن حسن الحظ ان الكثير من آثارهم قد وصل الينا . ومن الاسماء الالامعة في تلك الفترة ، ابن رسته (الاعلاق النفيسة) والاصطخري (مسالك الممالك) وابن حوقل (كتاب صورة الارض) والمقدسي (احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم) . يضاف الى هؤلاء الجغرافيين بالمعنى الدقيق رحالون وعلماء من نوع آخر . فمن بين هؤلاء هؤلاء بزرک بن شهریار (كتاب عجائب الهند) . هذه بعض الاسماء الالامعة التي ترجع الى ذلك القرن فقط

وبعد فما الذي يقدمه لنا هؤلاء الناس عن بلاد السند وهي القسم الاكبر من الباكستان الغربية ؟ ولندكر قبل كل شيء ان السند ، في الوقت الذي نتحدث عنه ، اي في القرن الرابع للهجرة ، كانت اقصى قطر في المملكة الاسلاميية شرقا . هذا ما يؤكد عليه كل الذين كتبوا عن السند في ذلك الوقت . ولندكر ثانية انه لم يكن بين هؤلاء الجغرافيين ما يمكن ان يسموا اليوم علماء اجتماع او علماء في السلائل البشرية . لذلك فالملاحظات حول هذه الامور قليلة . ومع ذلك ففي اخبارهم امور كثيرة تمت الى الاقتصاد والاجتماع والتاريخ والسياسة

بصلة كبيرة ، وتزود الباحث الصبور باخبار اقل ما يقال عنها انها نافعة ، اذ يمكن الافادة منها في اتمام الصورة التي يتوخاها الدارسون .

والذي ننوي ان نفعله في هذا الفصل هو ان نخرج من آثار هؤلاء الجغرافيين صورة لبحر الهند ، او كما نسميه اليوم المحيط الهندي ، وصورة اخرى لبلاد السند نفسها . ونود ان نشير الى ان بعض الروايات كانت لا تخلو من اخطاء ، لكن المهم هو ان نرى مقدار ما ادرك هؤلاء الناس وعرفوا ، وقد عاشوا قبل ايامنا بالف سنة !

اما بحر الهند وما فيه فنعتمد في رسم صورته على ابن رسته والمسعودي وبزرگ . فالاول عالـج البحر علماً ووصفاً ، والثاني سافر فيه والثالث جمع اخبار ربابنته اوناخوداه كما يسمى الفرس الربان . وبعد ان يعدد ابن رسته البحار العظام ومنها : بحر الهند وبحر الروم (البحر الابيض المتوسط) وبحر نبطس (البحر الاسود) ، ينتقل الى التخصيص فيقول «فاما البحر الهندي فانه يمد طوله من المغرب الى المشرق وذلك من اقصى الحبش الى اقصى الهند يكون ذلك مقدار ثمانية آلاف ميل في الفين وسبع مائة ميل ، ويجاوز جزيرة استواء الليل والنهار بالف وتسع مائة ميل . يخرج منه خليج عند ارض الحبش يمر الى ناحية البربر يسمى الخليج البربري يكون طوله مقدار خمس مائة ميل وعرض طرفه مائة ميل . ويخرج منه خليج آخر نحو ايلة طوله الف واربع مائة ميل وعرضه في الاصل سبع مائة ميل ومنتهاه اعني طرفه الادنى الذي يسمى البحر الاحمر مقدار مائتي ميل . ويخرج منه خليج الى ناحية فارس يسمى الخليج الفارسي طوله الف واربع مائة ميل وعرضه في الاصل خمس مائة ميل وطوله خمسون ومائة ميل . وبين هذين الخليجين ، خليج ايلة وخليج فارس ، ارض الحجاز واليمن وسائر بلاد العرب الف وخمس مائة ميل . ويخرج منه خليج آخر الى اقصى الهند عند تمامه يسمى الخليج الاخضر وطوله الف وخمس مائة ميل . وفي البحر الهندي هذا من الجزائر العامرة وغير العامرة الف وثلاثمائة وسبعون جزيرة منها جزيرة ضخمة في اقصى الهند مقابل

ارض الهند من ناحية ارض المشرق يسمى طبروباني يحيط بها ثلاثة آلاف ميل فيها جبال عظام وانهار كثيرة ومنها يخرج الياقوت الاحمر ولون السماء وحوالي هذه الجزيرة تسع عشرة جزيرة عامرة فيها مدائن وقرى كثيرة . ١

ويتم المسعودي الصورة بقوله « فهذا بحر الصين والهند وفارس وعمان والبحرة والبحرين واليمن والحبشة والحجاز والقفازم والزنج والسند ، ومن في جزائره ، ومن قد احاط به من الامم الكثيرة التي لا يعلم وصفهم وعددهم الا من خلقهم . ولكل قطعة منهم اسم يفرد من غيره والماء واحد متصل غير منفصل . وفي هذا البحر مفاصات الدر واللؤلؤ ، ومنه معادن ذهب وفضة نحو بلاد كله وسريه ، وحوله معادن حديد مما يصلي بلاد كرمان ، ونحاس بارض عمان ، وفيه انواع الطيب والافاويه والعنبر وانواع الادوية والعقاقير والساج والخشب المعروف بالدارزنجي والقنا والخيزران

« ولكل من يركب هذا البحر من الناس رياح يعرفونها في اوقات تكون منها مهابها ، قد علم ذلك بالعادات وظول التجارب ، يتوارثون علم ذلك قولاً وعملاً ، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها في ابان هيجانه ، واحوال ركوده وثورانه . هذا فيما سمينا من البحر الحبشي . ٢

اما بزرک الذي تقصى اخبار الملاحين في هذا البحر فنكتفي بنقل احدي قصصه قال : « ومن مصائب البحر المشهورة التي أثرت الى يومنا هذا ما حدثني به بعض التجار قال : خرجت في مركب من سيرا في سنة ٣٠٦ اريد صيمور وكان معنا مركب عبدالله بن الجنيد ومركب سبا . وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر والمراكب الموصوفة في البحر ، ونواخذتها مشهورون لهم قدر

١ - ابن رسته من ٨٣ - ٨٤ .

٢ - المسعودي ، ابو الحسن علي ، « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، باريس ، المطبعة الامبراطورية ، ١٨٦١ ج ١ من ٢٤١ - ١٠٧ .

ومنزلة في البحر. وكان في المراكب ١٣٠٠ رجل من التجار والنواخذة والبانانية وغيرهم من صنوف الناس. وفيها من الاموال والامتعة ما لا يعرف قدره لكثرة قلما سرنا ١١ يوماً رأينا أثر الجبال ولوائح ارض سندان وثانة وصيمور وما سار هذا السير السريع قبلهم احد فيا سمعنا فاستبشرنا وسررنا وبشرنا بعضنا بعضاً بالسلامة واخذنا في الاستعداد لأننا قدرنا اننا نصبح من غد الارض. ثم جاءتنا الريح من الجبال فلم نضبط الشرع واخذنا الحب والمطر والرعد والبرق. فقال الربانية والبانانية: نطرح الامتعة فمنعهم أحمد وقال لا أطرح الا بعد ان يخرج الامر عن يدي واعلم اني هالك. ونزل الرجال ينزفون الجثة من الجانبين والمركبان على مثل حالنا كل واحد منهما يمتظر صاحبه ما يفعل من طرح او غيره فيفعل مثله. وضج التجار وقالوا: له اطرح الامتعة وانت في الحل فانا نهلك. فقال لا اطرح البتة ولم يزل الامر يتزايد الى ان مضت ستة أيام. فلما كان في اليوم السادس وكاد المركب ان يغوص في البحر قال اطرحوا المحولة فلم يمكن طرح شيء لان الخواوي والاعدال ثقلت بالمطر وكان ما فيه خمس مائة من قد صار فيه الف وخمس مائة من بالمطر وعاجلهم الامر وطرحوا القارب الى الماء ونزل فيه ثلاثة وثلثون رجلاً وقيل لاحد قم فانزل في القارب فقال لا ابرح من مركبي فانه أرجا في السلامة من القارب وان تلفت معه فلا حظ لي في الرجوع بعد تلف مالي وهلك جميع اهل المراكب الثلاثة فلم يسلم منهم احد الا نفر من الذين كانوا في القارب وكان في جملتهم ربان المركب احمد. وكان اسمه بقي. وكان قد زاد تلف هذه المراكب وما فيها من المعاش في اختلال سيراف وصيمور لعظم ما كان فيها من الاموال ووجوه النواخذة والربان والتجار. ١٤

فاذا هالتنا صورة البحر بما فيه من موج يحمل السفن كالريش في مهب الرياح،

وانتقلنا الى البر لنضع اقدامنا على شيء ثابت ، وجدنا بغيتنا عند ثلاثة من جغرافيين القرن العاشر (الرابع) هم - الاصطخري وابن حوقل والمقدسي .

فالمقدسي يقدم الينا اقليم السند بقوله « هذا اقليم الذهب والتجارات ، والعقاقير والآلات ، والفانيذ والخيرات ، والارزاز والموز والاعجوبات ، به رخص وسعة ونخيل وتترات ، وعدل وانصاف وسياسات . وبه خصائص وفوائد وبضاعات ، ومنافع ومفاخر ومتاجر وصناعات ، ومصر جليل ومدن سرية وقصبات ، وسلامة وعافية وثم امانات . قد جاور البحر ، وشقة النهر ، وحوى النخل ، وله سهل وزرع على البعل . مصر ظريف ، ونهر شريف ؛ وامره طريف ، غير ان ذمته مشركون والعلماء به قليلون ولا تصل اليه الا بعد اخطار البر واهوال البحر ، بعد الشق وضيق الصدر وهذا مثاله وشكله »
« واعلم اني قد درت على تخوم هذا الاقليم وبلغت سواحه كلها ورأيت وسمعت ما ساذكره واكثرث السؤال عن اساميه وتفحصت عن اخباره وعرفت مدنه ومع هذا فلا اضمن من وصفه ما اضمن من غيره ، ولا اصف الا امصاره ولا استقصي في شرحه لما روى كفى بالمرء الكذب ان يحدث بكلمة يسمع ولقوله صلعم ليس الخبر كالمعاينة . ولولا خشية ان يختل هذا الاصل ويبقى من الاسلام صدر لاعرضنا من الكلام فيه . »^١

ويتحدث هؤلاء بعد ذلك عن اجزاء السند المتاخمة للهند على قولهم ، « الغالب على هذه الناحية الكفر وفيها مسلمون ولا يلي عليهم من قبل بلهرا الذي في زماننا هذا الا مسلم يستخلفه عليهم كذلك العادة وجدتها في كثير من بلدان الاطراف ، التي يغلب عليها املاك الكفر كالخزر والسير واللان وغانه ، وكوغه . والمسلمون لا يقبلون ان يحكم عليهم الا مسلم منهم ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة الا من في دعوتهم وان قل عددهم في بعض الممالك قبلوا من

١ - المقدسي ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

اهل الممالك المشار اليه في العفة فان جرحه الخصم وزكاه المسلمون أمضيت شهادته واخذ الحق بقوله من المسلمين . وبلاد بلهرا المساجد تجمع فيها الجمعات ويقام بسائر الصلوات بالأذان في المنار والاعلان بالتكبير والتهليل .^١
والمدن الرئيسية التي كانت في السند في تلك الأزمنة هي المنصورة والمثلثان وبسمد والديبل والبيرون والرور .

فالمنصورة مدينة مقدارها في الطول والعرض نحو ميل في مثله ويحيط بها خليج من نهر مهران وهي في شبيه الجزيرة واهلها مسلمون . ملكها من قریش من ولد هبار بن الاسود وقد تغلب عليها اجداده وساسوهم سياسة اوجبت رغبة الرعية فيهم وايتارهم على من سواهم ، غير ان الخطبة لبني العباس . وهي مدينة جرومية حارة بها نخيل وليس بها عنب ولا تفاح ولا جوز (ولا كثري) ، ولهم قصب سكر يعقد منه القند الغزير الكثير . وبارضهم ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمونة حامضة شديدة الحموضة ولهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الانبج تقارب طعم الخوخ ، واسعارهم رخيصة وبها خصب .^٢

« والمنصورة هي قسبة السند ومصر الاقليم تكون مثل دمشق . بناؤهم خشب وطين والجامع من حجر وآجر كبير مثل جامع عمان على سوارى ساج ، لها اربعة ابواب باب البحر باب طوران باب سندان باب المثلثان ولهم نهر يحوط بالبلد . اهل لباقه ولهم مروّة وللإسلام عندهم طراوة والعلم واهله كثير والتجارات ثم مفيدة ولهم ذكاء وفطنة ومعروف وصدقة . والهواء لين والشتاء هين والأمطار كثيرة والاضداد مجتمعة ، ولهم خصائص غريبة . وثم جواميس عظيمة شربهم من نهر مهران والجامع وسط الاسواق والرسوم تقارب العراق مع وطاء وحسن اخلاق الا انه شديد الحر .^٣ »

١ - ابن حوقل ، ج ٢ ص ٣٢٠ .

٢ - نفس المكان ، ج ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

٣ - المقدسي ص ٤٧٩ .

« والمثلتان مدينة نحو نصف المنصورة في الكبر وتسمى فرج بيت الذهب وبها الصنم الاعظم للهند الذي تحج اليه من اقاصي بلدانها وسائر اصقاعها وتعظمه . ويتقرب الى هذا الصنم في كل سنة بمال عظيم فينفق على بيت الصنم وعلى سدنته والمعتفكين عليه منهم . وسميت المثلتان باسم الصنم ، والصنم اسمه المثلتان . ومكان هذا الصنم في قصر مبني في اعمر موضع بسوق المثلتان بين سوق العاجيين وصف الصغارين . وفي وسط هذا القصر قبة والصنم فيها ومن حوالي القبة بيوت يسكنها خدم هذا الصنم ومن اعتكف عليه . وليس بالمثلتان من الهند والسند الذين يعبدون الاوثان غير هؤلاء السدنة الذين يحوزهم هذا القصر مع هذا الصنم . وهذا الصنم صورة على خلقه الانسان مربع على كرسي من جص وآجر ، وقد البس الصنم جلدأ يشبه السختيان احمر فلا يتبين من جسده شيء الا عيناه . فمنهم من يزعم ان بدنه خشب ومنهم من يدفع ذلك غير انه لا يترك بدنه ينكشف ، وعيناه جوهرتان ، وعلى رأسه اكليل من ذهب مرتفع على ذلك الكرسي وقد مد ذراعيه على ركبتيه . وقد اصابع يديه كمن يحسب اربعة ، وعامة ما يحمل الى هذا الصنم من المال يأخذه القرشي الهباري امير المثلتان وينفق على السدنة منه كفافهم ، وقد قصدهم الهند غير وقت للتغلب على المثلتان في انتزاع الصنم منهم فيظاهرون المتغلبين عليهم القاصدين لهم بكسره واحراقه فيرجعون عنهم ولولا ذلك لخرّبوا المثلتان ، وعلى المثلتان حصن وبها منعة وهي خصبة رخيصة الاسعار غير ان المنصور اخضب واعمر منها وسميت المثلتان بفرج بيت الذهب لانها فتحت في اول الاسلام وكانت بالمسلمين ضيقة وقحط فوجدوا فيها ذهباً كثيراً فاتسعوا فيها بما وجدوه ، وفي اهلها رغبة في القرآن وعلمه والاخذ بالمقارء السبعة والفقه وطلبة الادب والعلم ... وبخارج المثلتان على نصف فرسخ منها ابنية كثيرة تعرف بالجنادرور وهي معسكر الامير ولا يدخل الامير منها الى المثلتان الا في يوم الجمعة عند ركوبه الفيل ويدخل فيصلي الجمعة باهلها ويعود على

الفيل الى دار امارته وهو من ولد سامة ابن لؤي بن غالب وليس هو في طاعة احد وخطبته لبني العباس . ١٤

« والمثلثان تكون مثل المنصورة غير انها امر ليست بكثيرة الثمار غير انها رخيصة الاسعار ... دورها حسنة تشاكل دور سيراف من خشب الساج طبقات . ليس عندهم زنا ولا شرب خمر ومن ظفروا به يفعل ذلك قتلوه او حدوه ولا يكذبون في بيع . رلا يبخسون في كيل ولا يبخسون في وزن يحبون الغرباء واكثرهم عرب . شربهم من نهر غزير والخير بها كثير والتجارات حسنة والنعم ظاهرة والسلاطين عادلة لا ترى في الاسواق امرأة متجملة ولا احد يتحدثها علانية . ماء مري وعيش هني وظرف مروية وقارسية مفهومة وتجارات مفيدة واجسام صحيحة . ١٥

« واما بسمند فمدينة صغيرة وهي والمثلثان دون الجندور عن شرقي نهر المثلثان وهو نهر مهران وبين كل واحدة منها وبين النهر نحو نصف فرسخ ، وشربهم من الآبار . وبسمند هذه خصبة وتكتب بالباء والفاء . ومدينة الرور تقارب المثلثان في الكبر وعليها سوران وهي على شط نهر مهران ايضاً وهي من حد المنصورة ، خصبة رفة كثيرة التجارة ، والديبل من غربي نهر مهران على البحر وهي متجر عظيم وتجارها من وجوه كثيرة وهي فرضة هذه البلاد وغيرها وزروعهم مباخس وليس لهم كثير شجر ولا نخيل وهو بلد قشف وانما مقامهم للتجارة . ١٦

فاذا انتهينا من وصف المدن الرئيسية في السند ، دون التعرض للجوار شرقاً او غرباً ، عدنا الى المقدسي لناخذ منه بعض اجماله لشؤون الاقليم كله .

١ - المسعودي ج ١ ص ٣٧٤ - ٣٧٩ ؛ ابن حوقل ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

٢ - المقدسي ص ٤٨٠ .

٣ - ابن حوقل ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

« هو اقليم حار به نخيل و تارجيل وموز فيه مواضع معتدلة الهواء جامعة
الاضداد مثل ويند ونواحي المنصورة والبحر يمد على اكثره . ولا اعرف
ان به بحيرة وبه انهار عدة وذمته عبدة الاوثان وليس للمذكرين به صيت ولا
لهم رسوم تذكر . مذاهبهم اكثرهم اصحاب حديث ورايت القاضي ابا محمد
المنصوري داوديا اماما في مذهبه وله تدريس وتصانيف قد صنف كتباً عدة
حسنة . واهل الملتان شيعة يهوعلون في الاذان ويشنون الاقامة ولا تخلو القصبات
من فقهاء على مذهب ابي حنيفة (رحمه) وليس به مالكية ولا معتزلة ولا عمل
للحنابلة . انهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة وصلاح وعفة قد اراحهم
الله من الغلو والعصية والهرج والفتنة .

« ويحمل من طوران الفانيد اجود من ماسكان ومن سندان الارز الكثير
وثياب ويعمل بسائر الاقليم من البسط وما يجري مجراها ما يعمل بهستان
خراسان ويحمل منه تارجيل كثير وثياب حسنة ومن المنصورة النعال الكتبانية
النفيسة ومنه تحمل الفيلة والعاج والاشياء الرفيعة والعقاقير النافعة . »^١
ويتحدث الجغرافيون عن انهار المنطقة ، فيتفق الثلاثة على القول بشأنها
« واما انهارهم فاعظمها نهر مهران ومخرجه من ظهر جبل يخرج منه بعض انهار
جيحون وتمده انهار كثيرة وعيون غزيرة ، ويظهر على توافره بناحية الملتان
فيجري على حد بسمد ويمر بالورور ثم على المنصورة حتى يقع في البحر شرقي الديبل
وهو نهر كبير عذب جداً . وفيه التماسيح كتاسيح النيل وهو كالنيل في الكبر
وجريه كجريه بماء الامطار الصيفية ويرتفع على وجه الارض ثم ينضب فيزرع
عليه حسباً يزرع بارض مصر والسندورذ من الملتان على نحو ثلثة مراحل وهو
نهر كبير عذب يفرغ الى مهران قبل بسمد وبعد الملتان ، ونهر الجندورور نهر
ايضا كبير عذب طيب وعليه الجندورور ويفرغ الى مهران دون السندورذ الى
نواحي المنصورة . »^٢

١ - المقدسي ص ٤٨١ .

٢ - المسعودي ج ١ ص ٣٧٨ ؛ المقدسي ص ٤٨٢ - ٤٨٣ ؛ ابن حوقل ص ٣٢٨ .

القسم الثاني

أدب الرحلة عند العرب

الفصل التاسع

طلائع الرحّالين

جاء في القرآن الكريم ان قبيلة قريش كانت لها رحلتان - رحلة الشتاء ورحلة الصيف . والباحثون مجمعون على ان هاتين الرحلتين كانتا للتجارة . ذلك ان اهل مكة كانوا تجاراً من الدرجة الاولى ، وكانت قوافلهم تنقل المتاجر من اليمن الى الشام ، وتحمل البضائع من الشام الى اليمن . هذه تجارتهم ايام الجاهلية . فماذا حدث بعد الاسلام ؟

قد تكون تجارة مكة بالذات قد تدهنت كثيراً ، ولكن الفتوح العربية الاسلامية جاءت بالجديد بالنسبة الى رقاع اخرى . امتدت الفتوح حتى ضمت وادي السند وما وراء النهر شرقاً والاندلس غرباً ، وما بين هذا وذاك من شمال افريقية . واستتبع ذلك ان اصبحت رقعة الاتجار وتبادل السلع والمتاجر تشمل هذه المنطقة الواسعة . والتاجر النشيط صار بإمكانه ان يتنقل بين قطر وآخر ومدينة وأخرى يشتري ويبيع دون ان يعيقه عائق . وبذلك انفتحت امام العربي والمسلم مجالات واسعة كانت من قبل مقفلة . ومعنى هذا ان الرحلة في سبيل التجارة اتسعت آفاقها وزادت امكانياتها . وما كان هؤلاء التجار ممن يمر بالبلد دون ان يتعرف الى اهله ويخبر احوالهم . وكانت هذه المعرفة تنتقل رواية واخباراً حتى يقبض الله لها من يدونها وتصبح جزءاً من التراث الادبي للرحلة . وبعد ان استقر الاسلام في رقاع امبراطوريته ، ونشأت مراكز للمعلم في

الاجزاء العربية وغير العربية منه ، رحل الناس في طلب العلم من مكات الى آخر ، فهذا بغداد يشد الرحال الى دمشق ، وهذا دمشق يقصد بخارى ، وهذا تونس يرحل الى القاهرة ، وهذا قاهري يطلب العلم في فاس ، وهكذا دواليك . وهذه الرحلة في طلب العلم كانت أخرى بان تدون اخبارها ، وتبقى آثارها من اخبار تنقل التجار واصحاب الاعمال . وعلى كل فمن هذه وتلك وصلت الينا اخبار واخبار هي من مفاخر التراث العربي .

والاسلام فرض الحج على المؤمنين ، ولو أنه جعل الاستطاعة شرطاً . والذين استطاعوا الى الحج سبيلاً في هذا التاريخ الطويل كثر . ولم يكن جميعهم ممن يدون اخبار اسفاره ، ولكن حركة التنقل هذه حفزت الكثيرين من اهل العلم الى تدوين مشاهداتهم . فخرج من ذلك ايضاً تراث في ادب الرحلة كبير . والى جانب التاجر وطالب العلم والحاج يقوم الرحالة المحترف او الهاوي ، أي الذي يرسل من أجل الرحلة .

والذي نستقر به بالنسبة الى تعدد بواعث الرحلة ودوافعها في الاسلام ليس كثرة ما وصل الينا ، ولكن قلته . فادب الرحلة تعرض الى ما تعرضت له نواحي الانتاج العلمي الاخرى في هذه الرقعة الواسعة وهذه القرون الطويلة . فضايع منه الكثير . لكن ثمة امل بان يكون في خزانات الكتب المنتشرة في اصقاع العالم العربي ، والتي تكشف خفاياها يوماً بعد يوم ، كثير مما لم نعرف .

وظلائع الرحالين وصلتنا بعض اخبارهم نقلاً عن الرواة ، ومن هؤلاء سليمان السيرافي وابن فضلان والبعض دون اخباره مفصلة كالمسعودي . والاول من اهل القرن التاسع (الثالث) اما الآخران فمن رحالي القرن العاشر (الرابع) . والظاهر ان تجار العرب من عمان وسيراف والبصرة في القرن التاسع كانوا يصلون الصين ، كما كان تجار الصين يصلون الموانئ القائمة على الخليج العربي . لكن اخبار القرن العاشر لا تشير الى هذا ، بل بالعكس ، فقد روى المسعودي اخبار تاجر من سمرقند خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى

الى العراق ، فحمل من جهازه وانحدر الى البصرة وركب البحر حتى وصل الى عمان وركب الى بلاد «كلاه»^١ ، وهي النصف من طريق الصين او نحو ذلك . «واليها تنتهي مراكب الاسلام من السرافين والعمانيين في هذا الوقت . فيجتمعون مع من يرد من ارض الصين في مراكبهم . وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك . وذلك ان مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف من ساحل فارس وساحل البحرين والابلة والبصرة .»^٢ ويعزو المسعودي هذا التغير في الاسفار الى انعدام العدل وفساد النيات ، فلم يعد الفريق الواحد يصل الى ميناء الآخر ، وانما يلتقي الفريقان في «كلاه» هذه .^٣

وليس غريباً ان تنحدر السناقصة ابن وهب القرشي الذي غادر البصرة في رحلة حملته من سيراف الى خانفو «كنتون» ثم عاصمة المملكة الصينية نفسها ، او ان تحفظ لنا وصف سياحة سليمان السيراقي الى الهند والصين في القرن التاسع (الثالث) . وقد زاد في الفوائد التي نحصل عليها من رحلة سليمان ان موطناً له يسمى ابو زيد ، من اهل القرن العاشر (الرابع) اضاف اليها ذيلاً فيه معلومات اضافية كثيرة . وليس من شك في ان الاصل والذيل يعطينا اقدم وصف وصفه عربي لاقاليم الهند والصين وعادات الاقوام . وفضلاً عن ذلك فنحن نعرف منها ان الجاليات الاسلامية في المدن الصينية كانت لها امتيازات خاصة اذ كان لها قاضيا وامامها وشيخها ومساجدها . وقد قال الدكتور حسين فوزي عنها انها «تعد من أهم الآثار العربية عن الرحلات البحرية في المحيط الهندي وبحر الصين في القرن التاسع . وربما كانت الاثر العربي الوحيد الذي يتحدث عن سواحل البحر الشرقي الكبير والطريق الملاحي اليها على اساس الخبرة الشخصية مع التزام الموضوع وعدم الخروج عنه الى احاديث تاريخية

١ - المسعودي ج ١ ص ٣٠٧ - ٣٠٨ .

٢ - نفس المكان ج ١ ص ٣٠٨ .

٣ - نفس المكان ج ١ ص ٣٠٨ .

وغيرها ، مما عودنا الجغرافيون والمؤرخون العرب . واذا رأينا فيما بعد ابن خردادبه وابن الفقيه والاصطخري وابن حوقل والمسعودي يتكلمون على اساس من المعرفة الشخصية لبعض المواضع التي يذكرونها ، فانهم ايضاً ينقلون الكثير عن ذلك الاثر العربي الاول بلفظه ومعناه في بعض الاحيان ، وبما يكاد يكون لفظه ومعناه في البعض الآخر ^١ . ويذكرنا المرحوم الدكتور زكي محمد حسن بان الوصف الذي وصفه سليمان والذيل الذي اضافهُ ابو زيد يمتازان بقلّة الخرافات والاساطير التي تكثر في احاديث البحارة ^٢ .

قال سليمان يصف بعض جزائر البحار الشرقية ، وهي بعد جزيرة سيلان « ... جزائر تدعى لنجبالوس ، وفيها خلق كثير عراة ، الرجال منهم والنساء غير ان عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر . فاذا مرت بهم المراكب جاؤا اليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا اهلها العنبر والنارجيل بالحديد . ولا يحتاجون الى كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد . ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال له اندمان ، واهليهما يأكلون الناس احياء ... وهم عراة ليس لهم قوارب . » ^٣

ووصف سليمان الاعصار المحلي ، فقال « وربما رؤي في هذا البحر سحب ابيض يظل المراكب ، ينشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر فيعطي له ماء البحر مثل الزوبعة فاذا ادركت الزوبعة المركب ابتلعته . ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطراً فيه قذى البحر ، فلا أدري ايستقي السحاب من البحر ام كيف هذا . » ^٤

ومن أهل القرن العاشر (الرابع) ابن فضلان الذي اشرنا اليه قبلاً . وابن فضلان هذا ذهب الى ملك البلغار في بعثة ارسلها اليه الخليفة العباسي

١ - فوزي ، حسين ، «حديث السندباد القديم» (القاهرة ، ؟) ص ٢٢ .

٢ - حسن ، زكي محمد ، «الرحالة المسلمون في المصور الوسطى» ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٢٤ .

٣ - السيرافي ، سليمان عن فوزي ، حسين ، نفس المكان ص ٢٤-٢٥ .

٤ - نفس المكان ، ص ٢٥ .

المقتدر بالله . ذلك ان ملك البلغار ، وكان قد اعتنق الاسلام قبيل ذلك بقليل ، طلب من الخليفة ان يبعث اليه من يعلمه الاسلام ويعرفه بشرائعه ويعينه في توضيح احكامه واقامة مساجده . فاستجاب الخليفة الى طلبه ، فقامت البعثة من بغداد برئاسة موفد خاص من الخليفة ، وكان من رجالها ابن فضلان ليقوم بوظيفة رجل الدين . بدأت السفر في صيف ٩٢١ / ٣٠٩ وقضت في الطريق ما يقرب من احد عشر شهراً . وكانت طريق البعثة من بغداد الى بخارى فعوارزم الى بلاد البلغار وهي الى الشرق من نهر الفولغا . ولما عاد ابن فضلان ، كتب تقريراً عن تلك البلاد كان عمدة المؤلفين والجغرافيين من العرب (امثال الاصطخري والمسعودي وياقوت) وغيرهم مدة طويلة . ويؤخذ مما كتبه ابن فضلان ان البلغار كانوا آخذين باسباب الحضارة الحديثة التي كانت قد وصلتهم ، وان علاقتهم بالملك تقوم على نوع من الابوة ، وان الادب كان خصلة قوية فيهم^١ . وهكذا فان اخبار ابن فضلان عن هؤلاء القوم وعن الروس الذين جاءوا يتاجرون مع البلغار غنية بالفوائد . وقد عادت على المعرفة الجغرافية بالخبر الكثير لمدة طويلة .

١ - ابن فضلان ، احد ، « رسالة ابن فضلان » ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٩ ص ١٣١

الفصل العاشر

المسعودي

يعتبر المسعودي عالماً من اعلام الفكر العربي الاسلامي في عصر نضجه اي في القرن الرابع الهجري (العاشر لليلاد). فهو واحد من اولئك الذين احاطوا بالمعرفة احاطة وافية ، وتمثلها تمثلاً صحيحاً ، ثم دون نتيجة تلك الاحاطة وهذا التمثيل تدويناً شيقاً انيقاً رتيباً بأسلوب سهل متمتع . وليست هذه الامور كلها لتتاح لغير عبقري . والمسعودي واحد من عباقرة الفكر في ذلك الوقت .

وهو علي بن الحسين بن علي ، ويتصل نسبه بعبد الله بن مسعود ، ومن هنا جاءت النسبة . ويقول ابن النديم صاحب الفهرست ان المسعودي من اهل المغرب^٢ ، بينما يضعه ابن شاکر الكتبي في عداد البغداديين^٣ . ويتضح من تتبع هذه القضية ان اسرة المسعودي جاءت من المغرب ، واستقرت ببغداد . ولكن لم يتضح بعد فيما اذا كان هو نفسه ولد في بغداد ام جاءها طفلاً . وعلى كل فمات جموه متفقون على انه نشأ في بغداد ، وهي في ذلك الوقت ، مركز من

١ - See Ziadeh, N. A. «Diyār al-Sham According to al-Masudi» in al-Masudi Milenary Commerative Volume, Calcuta, 1960 pp 20 - 25.

٢ -- ابن النديم ، «الفهرست» ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٩ ص ٢١٩ .

٣ - (الكتبي ، ابن شاکر ، «فوات الوفيات» ، القاهرة ، بولاق ، ١٨٨٥ ، ص ٥٥ .

مراكز العلم الكبرى على ان الرجل لم يرد ان يقتصر تعلمه وتوصله الى المعرفة على ما عند البغدادي . لذلك نراه يحب الآفاق فيزور فارس والهند (البلتان) وسرنديب (سيلان) والصين ومدغشقر وعمان وديار الشام ومصر حيث استقر بالقساط سنة ٣٤٥ وتوفي فيها في السنة التالية ٣٤٦ (٩٥٧ - ٩٥٨) .

وقد كان المسعودي يسير في البلاد مفتوح العين والاذن ، طلعة العقل والفكر كثير التسأل . وبذلك اتيح له ان يدرك من احوال هذه الدنيا وتطور شعوبها وشيعها ما لم يتح لكثيرين من معاصريه .

ونحن اذا اردنا ان نصنفه على نحو ما يصنف اهل العلم والفكر ، لحرنا في امره . فهو ليس رحالة ولا مؤرخاً ولا جغرافياً ولا فلكياً ولا طبيباً ولا محدثاً ولا فقيهاً - ولكن كل هذه مجموعة معاً ، مصقولة في بوتقة الاختبار ، بعد ان اضفت عليها الرحلة وسعة الافق وسعة الصدر الكثير من العمق في التفكير والدقة في التعبير .

وقد كتب المسعودي عشرات من الكتب ، لا تتسع هذه المجالة الى الاحاطة بها كلها ، حق ولا عدأ . ولذلك فاننا نجتزئ الآن بذكر اهم منها

١ - كتاب « اخبار الزمان ومن اباده الحدثان من الامم الماضية والاجيال الحالية والممالك الدائرة » ، وضعه المسعودي في ثلاثين مجلداً . والكتاب مفقود الآن . وليس منه سوى جزء واحد ، هو الجزء الاول ، موجود في مكتبة فيينا . والظاهر من حجم الكتاب ومن اشارات المسعودي الكثيرة اليه في « مروج الذهب » ، والتلبيح والاشراف ، انه كان تاريخاً مفصلاً . ولا شك ان فقدان هذا الكتاب خسارة كبيرة .

٢ - « الكتاب الاوسط » وهو اصغر من الكتاب السابق ذكره ، ولعله مختصر له ، وليس من اتفاق بعد بين الباحثين على مدى ما ضاع من هذا الكتاب ، اذ انه يوجد في المكتبة البودلية باكسفورد مخطوطة يظن انها هذا الكتاب .

وروي ان بعض المنقبين وجد اجزاء منه في مكاتب دمشق . لكن هذه القضية لم تحل بعد . ونحن بانتظار الدراسات الجديدة حول الموضوع .

٣ - « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، وهذا كتاب في قسمين : اولهما وصف فيه المسعودي الخليفة وروى قصص الانبياء باختصار ، ثم انتقل الى وصف الارض والبحار والمعائب والغرائب وتاريخ الامم القديمة وما كان لها من الاديان والعادات والمذاهب ، وعرض للايام والشهور والتقويم وكل ما يتعلق بذلك من جزئيات وكليات . وخص القسم الثاني بتاريخ الاسلام من اواخر عهد الراشدين الى اوائل خلافة المطيع لله العباسي . وهذا الكتاب كثير الفوائد التي قد لا توجد في سواء . وقد نقله المستشرق باربيه دي مينار الى الفرنسية وطبع في باريس في تسعة مجلدات سنة ١٨٧٢ ، ونقله الى الانكليزية سبرنغر لكن طبع من هذه الترجمة جزء واحد فقط (لندن ١٨٤١) .

٤ - « التنبيه والاشراف » وهو المطبوع بليدن سنة ١٨٩٣ . وهذا الكتاب وصفه المسعودي نفسه بقوله « ... رأينا ان تتبع ذلك بكتاب سابع مختصر نترجه بكتاب التنبيه والاشراف ... نودعه لمعاً من ذكر الافلاك وهيئاتها ، والنجوم وتأثيراتها ، والعناصر وتراكيبها ، وكيفية افعالها ، والبيان عن قسمة الازمنة ، وفصول السنة ، وما لكل فصل من المنازل والتنازع في المبتدأ به منها ... والرياح ومهابها وافعالها وتأثيراتها ، والارض وشكلها وما قيل في مدار مساحتها وعامرها وغامرها ، والنواحي والآفاق وما يغلب عليها ... »^١ والمسعودي يعلل السبب الذي حمله على وضع كل من كتبه ، ويبين عادة الغاية الاصلية من الكتاب . فتراه في مستهل « مروج الذهب » يعنون باباً باسم باب ذكر جوامع اغراض هذا الكتاب ، يقول فيه « اما بعد فانا صنفنا كتابنا في اخبار الزمان وقدمنا القول فيه في هيئة الارض ومدنها وعجائبها وبحارها

١ - المسعودي ، « التنبيه والاشراف » ، ليدن ، بريل ١٨٩٣ ص ٥ .

واغوارها وجبالها وانهارها ... ثم اتبعنا ذلك باخبار الملوك الغابرة والامم الدائرة والقرون الخالية والطوائف البائدة ثم اتبعناه بكتابنا الاوسط في الاخبار على التاريخ ... رأينا اجمال ما بسطناه ، واختصار ما وسطناه ، في كتاب لطيف نودعه لمع ما في ذينك الكتابين مما ضمناهما ، وغير ذلك من انواع العلوم واخبار الامم الماضية والاعصار الخالية مما لم يتقدم ذكره فيها .^١

وفي مدخل كتابه «التنبية والاشراف» يتحدث عن الغرض من هذا الكتاب ، فيبدأ بذكر مؤلفاته الى حين وضع التنبية ، ويحدد ما في كل منها من البحوث وفوائد ومواضيع ، ثم يبين ما في الكتاب نفسه على نحو ما نقلناه قبلاً . ولولا خشية الاطالة لنقلنا ذلك كله ، تبييناً لاسلوب المسعودي ، وتوضيحاً لدقته في تحديد البحوث مؤلفاته .

والمسعودي ، مثل الكثيرين ممن تعلموا والفوا وحدثوا وهم يتنقلون من مكان الى آخر في العالم الاسلامي وخارجه ، يرجو القارىء ان يعذره . فتراه يقول في مدخل مروج الذهب « على انا نعتذر من تقصير ان كان ، او نتصل من اغفال ان عرض لما قد شاب خواطرنا وعمر قلوبنا ، من تقاذف الاسفار وقطع القفار ، تارة على متن البحر وتارة على ظهر البر ، مستعلمين بدائع الامم بالمشاهدة ، عارفين خواص الاقاليم بالمعاينة ، كقطعنا بلاد السند والزنج والصين ، وتقحطنا الشرق والغرب . فتارة باقصى خراسان وتارة بوسائط ارمينية واذريجان ... وطورا بالعراق وطورا بالشام . »^٢

ويتحدث المسعودي عن المؤرخين السابقين له في مدخل مروج الذهب ، ثم

١ - المسعودي ، « مروج الذهب » ج ١ ص ٢ - ٥ .

٢ - نفس المكان ج ١ ص ٥ .

ننتقي منهم البعض فيثني عليه مثل ابن قتيبة والطبري ونفطويه والصولي وقدامة ابن جعفر^١ ولكنه لا يمتنع عن نقد الآخرين مثل الجرجاني اذ رأى في كتابه انه « خرج الى اخبار زعم انها صحت عنده ولم يشاهدها ... ثم ترقى الى خليفة خليفة في التصنيف مضادة لرسم الاخبار والتواريخ وخروجاً عن جملة اهل التأليف . وهو وان احسن فيه ولم يخرج منه عن معانيه ، فانه عيب لأنه خرج عن صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته . »^٢

ولا شك في ان المسعودي كان قد تعرف الى الادب الجغرافي المعروف في ايامه ، ومن هنا تأتي اشارته الى مؤلفات في الجغرافية هي الآن مفقودة . ولكن بما لا ريب فيه ان المسعودي فتح آفاقاً جديدة لنفسه ، على ما يبدو لمن يدرس « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، وهو الذي وضع فيه المسعودي خلاصة اختباراته وتجاربه في الاسفار والرحلات . والكتاب يجمع بين دفتيه خلاصة وافية للمعرفة العلمية في عصره . ولعل المسعودي الوحيد الذي تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة لعالم الاسلام في تلك العصور . وقد عالج اكثر اموره معالجة صاحب البصيرة النيرة والملاحظة النقادة ، لكنه لم يستطع ان يقصي عنه جميع الاساطير فقد ضمن كتابه الكثير منها . فمروج الذهب كتاب سياحة ومعرفة جغرافية وعمران وعلم وملاحظة واخبار واساطير ، وهو يمثل صدق تمثيل الحياة العقلية النشيطة المتطلعة الى الوصول الى الحقيقة والتي لم تتحرر تماماً من كل شيء غير حقيقي فقبلت - او على الاقل لم تنف - بعض ما يبدو بعيداً عن المنطق .

والمسعودي يصف الصعاب التي كان يلقاها في تنقلاته وصفاً دقيقاً . فقد قال : « وقد ركبت عدة من البحار كببحر الصين وبحر الروم والحزر والقازم واليمن ،

١ - نفس المكان ج ١ ص ١٥ - ١٨ .

٢ - نفس المكان ج ١ ص ١٩ - ٢٠ .

واصابتنى فيها من الأهوال ما لا احصيه كثرة . فلم اشاهد من بحر الزنج (المحيط الهندي شرقي افريقية) وفيه السمك المعروف بالاول ، طول السمكة نحو من اربعماية ذراع الى الخمماية ذراع بالذراع العمري ، وهو ذراع أهل ذلك البحر . والاغلب من هذا السمك أن طوله مائة ذراع . وربما بهذا البحر فيظهر طرف من جناحيه فيكون كالقلاع العظيم وهو الشراع . وربما يظهر رأسه وينفخ الصعداء في الماء ، فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم . والمراكب تفزع منه بالليل والنهار تضرب له بالخشب والدبادب لتنفّر من ذلك .^١

١ - نفس المكان ج ١ ص ٢٣٤ .

الفصل الحادى عشر

رجالون من المشرق

ليس من الممكن ان يعرض الكاتب في مثل هذا الفصل الى الرحالة جميعهم . ولذلك يترتب عليه ان يختار ، وحرى به ان يكون اختياره على اساس نماذج الرحالين . لذلك نريد ان نتحدث هنا عن اثنين من الرحالة المشاركة هما ناصري خسرو والهروي . ومع اننا نعني في هذه الدراسات بالرحالة العرب اصلا ، فاننا لا نرى مندوحة عن التحدث عن ناصري خسرو ، بسبب وصفه الدقيق للبلاد التي زارها ، والاضواء التي يلقياها على الحياة الاجتماعية في المناطق التي زارها .

وناصري خسرو فارسي الاصل والنشأة والثقافة . ولد بالقرب من بلخ سنة ٣٩٤/١٠٠٣ وتأدب وشارك في علوم عصره ونال حظا وافرا من معارفه ، وزار الهند وعمل في بلاط الغزنويين . ثم عاد الى فارس وشغل منصبا كبيرا عند السلاجقة ، اذ كتب الجعفر (او جفري بك) ، وهو اخ لطفعل بك . وكان منغمسا في الملاهي والملذات حتى تراءى له ليلة رجل في الحلم نهاه عن المعاصي ، وأسر اليه ان زيارة البيت الحرام هي سبيل التوبة النصوح^١ . فكان لهذا الحلم

١ - ناصري خسرو « سفرنامه » ، ترجمة يحيى الحشاش ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٥ ص ١ - ٢ .

اثر بالغ في نفسه ، ادى الى تغيير حياته ، فاقطع عما كان فيه حالاً وسار للحج في العام التالي .

بدأ من مرو ، فمر بنيسابور والري وتبريز وميفارقين وآمد وهران ودخل سورية بطريق منبج . وزار في بلاد الشام امهات مدنها في طريقه ، اذ مر بحلب وحماة والمرة . ثم اتجه الى الشاطيء فزار طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا . ومن هنا عرج على طبرية ، ثم عاد الى عكا ومنها اتجه الى الرملة بطريق قيسارية وكفر سابا . ومن الرملة قصد القدس فوصلها سنة ٤٣٨ هـ وقضى فيها اربعة اشهر ثم حج وعاد الى القدس بطريق دمشق وسافر الى مصر براً عن طريق عسقلان فوصل في ٧ صفر سنة ٤٣٩ / ١٠٤٧ . وأقام في مصر ثمانية اشهر ثم حج ثانية وعاد ، وظل يتنقل في بلاط الخليفة المستنصر سنتين الى ان غادر عاصمة الفاطميين نهائياً في ١٤ ذي الحجة سنة ٤٤١ هـ نيسان (ابريل) سنة ١٠٥٠م بطريق عيذاب الى جده . وبعد ان حج للمرة الاخيرة عاد الى بلاده ، بعد ان اجتاز الطريق من مكة الى الحسا براً وزار البصرة ، فوصل مرو في ١٥ (حزيران) يونيو سنة ١٠٥٢ م .

كان ناصري خسرو اسماعيلياً شديد التعصب لمذهبه ، وفي اثناء اقامته في القاهرة تدرج في مناصب الدعاة الاسماعيليين وقابل الخليفة نفسه ، وكان يرى ان القاهرة المركز الديني لمذهبه وان الخليفة هو الامام الحق . ولما عاد الى بلاده كان في مقدمة الدعاة . وقد نقل براون عن جامع التواريخ ان ناصري خسرو قضى سنوات طويلة متخفياً في جبال خراسان ، لما اشتد السلاجقة في طلبه . وبقي في منفاه هذا الى ان توفي سنه ٥٤٢ / ١٠٦٠ م .

كان ناصري خسرو دقيق الملاحظة شديد العناية بتقصي الاخبار وروايتها ، فجماعت رحلته ، المعروفة باسم « سفرنامه » ، غنية بالصور مليئة بالمعلومات عن

البلاد التي زارها . وتلقي رحلته نوراً على الكثير من الشؤون الاجتماعية والاقتصادية قبيل مجيء الصليبيين الى سورية .

فوصف ناصري خسرو للحرم الشريف بالقدس من أدق ما وصل اليها من المعلومات عن هذا المسجد المبارك . ولعله اول من ضبط ابعاد المسجد الأقصى وقياساته . ويلاحظ هذا السائح ابواب المدن واتجاهها وميناء عكا وصناعات صور وصيدا . ويعني بمصادر المياه في كل بلد ، وتستعري نظره كثرة الرخام في الرحلة ، ولعل من ادق ملاحظاته ما ذكره من ان قرى القدس تقوم على رؤوس الجبال او سفوحها^١ . ثم هو لا يغفل عن زهر النرجس الذي يكسو بقعة من الارض الى الغرب من حماة^٢ او عن الوردتين الجميلتين اللتين رآهما في جبيل بيد صبي في شهر شباط^٣ (فبراير) او الاشجار التي تكسو الطريق حول كفر سابا في فلسطين . والمدن الداخلية السورية التي نالها حظ الوصف في رحلته هي حلب وحماة وطبرية وبيت المقدس . اما باقي ما كتبه عن سورية فهو عن مدن الساحل ، فهو يذكر ان حلب تتمتع بيسار ورخاء اذ تلتقي عندها طرق التجارة الشامية والرومية والعراقية والمصرية^٤ . ويحدثنا عن ابي العلاء عند مروره بالمعرة ، فقد كان لا يزال حياً^٥ . ويصف طرابلس بقوله « ارباض المدينة تملأها البساتين ... وقصب السكر ينمو هنا بكثرة ... ومثله البرتقال والليمون والتمر ... وقد كانوا ايام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر ... وفنادق المدينة تتألف من اربع طبقات او خمس وقد تصل الى ست ... وبيوتها واسواقها حسنة البناء نظيفة .

-
- ١ - نفس المكان ص ٢٠ .
 - ٢ - نفس المكان ص ١٢ .
 - ٣ - نفس المكان ص ١٤ .
 - ٤ - نفس المكان ص ١٠ .
 - ٥ - نفس المكان ص ١١ .

« وفي المدينة مكاتب لفرض الضريبة الجمركية على السفن القادمة الى المدينة من بلاد الروم او الغرب او غيرها ... وللسلطان - امير المدينة - سفن تحمل تجارته الى بيزنطية وصقلية والغرب ، واهل طرابلس كلهم شيعة » . ولما وصل ناصري خسرو صيدا بهره ثراؤها وزينتها ، فقال « واسواق المدينة بهية الزينة حتى ظننت انها زيتن لمناسبة قدوم السلطان او لأمر آخر سار . فلما استقصيت عرفت ان ذلك امر عادي . »^١

وقد كانت صور في الوقت الذي زارها فيه ناصري خسرو ، من اكبر مراكز التجارة البحرية . يدلنا على ذلك فنادقها التي كانت ذات خمس طبقات اوست ، وشوارعها . فقد كانت نظيفة تدل على الثروة الهائلة « وصور معروفة بغناها وقوتها بين المدن الشامية الساحلية واكثر سكانها شيعة لكن قاضيها سني ... »^٢

ويتنقل في مدن ساحل فلسطين من المدينة الى الأخرى حتى يمر بقيسارية ثم يتجه الى الرملة . وبعد ان يصف هذه المدينة الكبيرة وبيوتها المبنية من الرخام الذي يكثر وجوده فيها ، يذكر طريقة تقطيعه اعمدة او الواحاً بمنشار غير مسنن . »^٣

وفي القدس يعنى ناصري خسرو بزيارة الأماكن المقدسة كلها ويلاحظ ان شوارع المدينة مبلطة . ويعطينا عدد السكان على انه عشرون ألفاً^٤ . ثم يقول « والأرض في نواحي القدس مستغلة استغلالاً طيباً . والزيتون هناك كثير . ويبلغ الدخل السنوي لبعض كبار الموسرين هناك نحواً من خمسين الف مد »^٥

-
- ١ - نفس المكان ص ١٣ .
 - ٢ - نفس المكان ص ١٥ .
 - ٣ - نفس المكان ص ١٩ .
 - ٤ - نفس المكان ص ٢٠ .
 - ٥ - نفس المكان ص ٢٠ .

(يقابل ٢٠٠ تنكة) . ويقول ناصري خسرو « انت القار المجموع من مياه البحر الميت يستعمل في طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان . ويستعملها الصيادلة للمحافظة على العقاقير من الحشرات . »^١

ووصف ناصري خسرو لمصر من خير ما وصل اليها . وقد تناول البلاط الفاطمي والعاصمة والادارة الحكومية في زمن المستنصر بالتفصيل . ولم يكن هذا بغريب على رجل اقام في القاهرة مدة طويلة وعاشر المقدمين من اهلها ، وحظي بمقابلة الخليفة نفسه . فتراه يتحدث عن قاعة المكاتب في القصر والاحتفال بولادة ابن للخليفة وعن جبر الخليج ، ويقسم القاهرة الى حاراتها العشر ويعطينا اسماءها مثل برجوان وزويلة . وتعبه فواكه مصر وانماها فيذكرها ، وينبئنا ان البسلم مغربي الاصل جاء به اجداد الخليفة المستنصر لما فتحو مصر . واذ يذكر جامع عمرو بن العاص وجامع ابن طولون ، يروي ان احفاد هذين الرجلين أرادوا بيع كل من الجامعين في زمن الحساكم بأمر الله . فاشتاعها الخليفة نفسه .^٢

ولما عاد ناصري خسرو من مصر الى بلاده بطريق الحجاز والحسا ، ذكر ملاحظات قيمة عن المدن التي مر بها . منها صنع القماش في اسيوط واستخراج الأفيون فيها واجرة الجمل الذي استأجره منها الى عيذاب كانت ديناراً ونصف الدينار^٣ . وقد تعرف ناصري في اسوان الى رجل اسمه الفلجي وتآخيا ، فلما وصل الى عيذاب اخذ نقوداً بناء على توصية كان حملها اياه صاحبه الاسواني . وانتقل الى جدة فوصفها وذكر ان سكانها لا يتجاوزون الخمسة آلاف من الذكور ، كما انه قال عن سكان مكة الاصليين انهم لا يتجاوزون الالفين من

١ - نفس المكان ص ٢١ .

٢ - نفس المكان ص ٥٩ .

٣ -- نفس المكان ص ٧٠ .

الذكور وبها نحو خمسمائة مجاور ، وأشار الى القحط الذي اصاب الحجاز سنتي ٣٤٩ و ٤٤٠ هـ .^١

وقد خص ناصري خسرو مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير من جهده ووقته وكتابه وليس ذلك بغريب .

ونالت فلج والحسا والبصرة حظها من عناية ناصري خسرو اذ اجتاز بلاد العرب من الغرب الى الشرق . وكانت البصرة ايام زارها ناصري خسرو خربة والاجزاء المسكونة منها متباعدة . ومع ذلك فقد كانت فيها تجارة رائجة وكان من عادة اهلها انه اذا هبطها التاجر اودع امواله عند صراف واخذ بها رقاعاً ، فاذا اشترى شيئاً دفع الرقاع الى البائع وهذا يستبدلها بالنقد من عند الصراف .^٢

ورغب ناصري خسرو واخوه في دخول الحمام ، لكن ثيابهما الوضيعة حملت المشرف على الحمام على اقصاصها .

وبما يدل على دقة ناصري خسرو ، ذكره المد والجزر في الخليج العربي وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب . ومن البصرة عاد ناصري خسرو الى مرو .

اما الهروي فاصل اسرته من هراة لكنه ولد في الموصل وطاف في سورية وفلسطين ولبنان والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وجزر البحر المتوسط حتى صقلية ، وتنقل في مزاراتها ومساجدها وخالط اهلها ، وكانت له نزعة صوفية وفيه فضيلة وله معرفة بعلم السيا . دخل القسطنطينية في زمن عمانوئيل كومنينوس سنة ١١٤٣-١١٨٠ م وهبط الاسكندرية سنة ٥٧٠/١١٧٤ وسمع فيها لابن الرحال المحدث . وحمله القائد ابو القسم بن حمود رسائل الى صلاح

١ - نفس المكان ص ٦٧ .

٢ - نفس المكان ص ٩٥ - ٩٦

الدين يطلب فيها تجهيز حملة ضد صقلية . وكان في القافلة التي نهبا ريكاردوس في جنوب فلسطين سنة ٥٨٨ / ١١٩٢ على ماء الخويلفة في مقاطعة الداروم ففقد فيها كتبه . وطلب ريكاردوس الهروي ليقابله فلم يمكن ذلك . ولما جاء رسول ابن النافذ وزير الخليفة العباسي الناصر لدين الله الى صلاح الدين ليوثق العلاقات بين السلطان والبلاط العباسي ، ومر بدمشق كان الهروي فيها ، وكان اجتمعه به سبباً في تأليف « الاشارات الى معرفة الزيارات » .

وقضى الهروي ايامه الاخيرة في حلب في ظل الملك الظاهر بن صلاح الدين الذي قرب له معرفته بالسيما ، فشمله برعايته وبني له مدرسة بظاهر حلب . وقد دفن في قبة بناحية من هذه المدرسة ، على ما رآه ابن خلكان وكانت المدرسة لا تزال قائمة في عهده . والكتاب الذي بين ايدينا هو الاشارات ، وقد قدم المؤلف نفسه وكتابه لقرائه بقوله :

« اما بعد فانه سألني بعض الاخوان الصالحين والخلان الناصحين ان اذكر له ما زرت من الزيارات ، وما شاهدته من العجائب والابنية والعمارات ، وما رأيته من الاصنام والآثار والطلسمات ، في الربع المسكون والقطر المعمور . ووقع الامتناع الى ان حصل لي الاجتماع برسول وفد من الديوان العزيز شرفه الله وعظمه وتبركنا بزيارته واستسعدنا برؤيته ، اذ كان قدومه من دار السلام وقبة الاسلام وذكر الشيخ الرسول زيارات ... فوقع ابتداء ذكر الزيارات من مدينة حلب ... »

« وقد اختصرت ما حضرني على سبيل الايجاز ، وانا استعين بالله من شر حاسد ونكبد معاند يقف على ذكر بعض الصحابة والتابعين وآل الرسول - صلوات الله عليهم اجمعين - وعلى ذكر بعض الآثار ؛ فيقول قرأنا في التاريخ الفلاني ضد ذلك ، وذكر فلان غير ذلك . وانا بما لا أشك في قوله ولا أظعن في حديثه الا انني ذكرت ما شاع خبره وذاع ذكره بطريق الاستفاضة والله أعلم بصحته . وقد ذكر بعض اصحاب التواريخ جماعة من آل الرسول عليهم الصلاة والسلام

ومن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم قتلوا او ماتوا ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر، ولم أر في أكثر هذه الاماكن ما ذكروه . ولا شك ان قبورهم اندرست وآثارهم طمست وذهبت آثارها وبقيت اخبارها . والزائر له صدق نيته وصحة عقيدته . وقد ذكروا ايضاً بلاداً أخرى واماكن وطرق لا تعرف الآن لتقدم العهد وتغير الزمان . وان جرى فيما اذكره شيء بطريق السهو والغلط ولا بطريق القصد ، فاسأل الناظر فيه والواقف عليه الصفع عن ذلك واصلاح الخطأ وايضاح الحق . فان كتبني اخذها الانكتار ملك الفرنج ورغب في وصولي اليه فلم يمكن ذلك ، ومنها ما غرق في البحر . وقد زرت اماكن ودخلت بلاداً من سنين كثيرة وقد نسيت اكثر ما رأيته وشذ عني أكثر ما عاينته . وهذا مقام لا يدركه أحد من السائحين والزهاد ولا يصل اليه اكثر المسافرين والعباد الا رجل جال الارض بقدمه واثبت ما ذكرته بقلبه وقلمه .^١

على ان للهروي كتباً أخرى غير هذا . فقد قال هو ان ما ذكره من الابنية والآثار والعجائب والأصنام له كتاب مفرد^٢ ، وأشار في موضع آخر الى كتاب « منازل الارض ذات الطول والعرض » . وروى ابن خلكان ان له كتاباً اسمه « الخطب الهروية » .^٣

وقد جاء في الاشارات ذكر لمئات من الاماكن الدينية وهي المقصودة بالذات من التأليف ، لكن الهروي يضيف بين آن وآخر فوائد تاريخية وملاحظات عامة . كوصفه لدمشق ، وإشارته لرأس الحسين ونقله من عسقلان ، وتحديثه عن مقياس النيل في جزيرة الروضة ، والذي رواه من أن الصليبيين حاولوا

١ - الهروي ، ابو الحسن علي « الاشارات الى معرفة الزيارات » دمشق ، المعهد الفرنسي ،

١٩٥٣ ص ١ - ٢ .

٢ - نفس المكان ص ٣ .

٣ - ابن خلكان « وفيات الاعيان » ، القاهرة ، مكتبة النهضة ١٩٤٨ ج ٣ ص ٣٢ .

ان يبنوا كنيسة على عين البقر بظاهر عكاه لكن ذلك لم يتم لهم . ومما رواه ان
الافرنج لم تغير « ما على ابواب المسجد الاقصى من آيات القرآن العزيز وأسامي
الخلفاء رضي الله عنهم . »^١

ولعل من الطف ما جاء من ملاحظاته العامة وصفه لزهو مصر ونباتها
قال : « فان ديار مصر ونيلها من عجائب الدنيا . ورأيت بها في آن
واحد مجتمع ورد ثلاثة الوان ، وياسميناً لونين ، ونيلوفر لونين ، وآساً
ونسريناً ، وريحاناً ، وخبزيماً ، وبنفسجاً ، ومنوراً ، ونبقاً ، واطرنجاً ، وليموناً
مراكباً ، وطلعاً ، وموزاً ، وجيزاً ، وحصرماً ، وعنباً ، وتيناً اخضر ، ولوزاً ،
وقشياً ، وفقوساً ، وبطيخاً ، وباذنجان ، وباقلا اخضر ، ويقطيناً ، وحمصاً
اخضر ، وخساً ، والبقول ، والرمان ، وهليوناً ، وقصب السكر . »^٢
وذكر بيوت الاسكندرية فقال عنها انها ثلاث طبقات وعمارة المدينة على هيئة
رقعة الشطرنج . وأشار الى السمك الرعاد فيها .^٣

وكان السائح الهروي مغرمًا بكتابة اسمه في الاماكن التي يزورها ، مثل
صنم الأشمونين . والى ذلك اشار جعفر بن شمس الخلافة في بيتين قالهما في
شخص يستخدي من الناس بأوراقه :

اوراق كديته في بيت كل فقي على اتفاق معان واختلاف روي
قد طبق الارض من سهل ومن جبل كأنه خط ذلك السائح الهروي

١ - الهروي ص ٢٥ .

٢ - نفس المكان ص ٥٠ - ٥١ .

٣ - نفس المكان ص ٤٨ .

الفصل الثاني عشر

رَحَالَة مِنَ الْمَغْرِب

رحلة المغاربة الى المشرق كانت ، على وجه العموم ، اكثر من رحلة المشاركة الى المغرب . فمركز الحج في المشرق ، ومدن العلم الاولى فيه ، فكان من الطبيعي ان يزور المغاربة الشرق اكثر من زيارة المشاركة لبلادهم . وعندنا ثلاثة من الرحالين نود ان نتحدث عنهم في هذا الفصل هم ابن جبير وابن سعيد والعبدري . ولد ابن جبير في بلنسية سنة ٥٤٠ / ١١٤٥ . وقد قرأ على ابيه وعلى ابن ابي العيش وعني بالادب ، وتقدم في صناعة القريض والكتابة .

كتب ابن جبير عن السيد ابي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة فاستدعاه لان يكتب عنه كتابا وهو على شرا به . فمد يده اليه بكأس فاطهر الانقباض لانه لم يشرب قط ، فاقسم السيد ليشرب منها سبعة . ففعل مرغما ، فثلث له الكأس دنانير سبع مرات . فحمل المال الى منزله واضمر ان يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير . ولما اظهر ذلك للسيد اسعفه في قصده .

خرج من غرناطة يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٨٧ / ١١٨٣ ووصل الى الاسكندرية بعد ثلاثين يوماً قضاها على ظهر البحر بين سبتة وبينها . وكان سفره البحري في مركب للجنويين . وقد كان الطريق الطبيعي لابن جبير الى الحجاز هو السفر من الاسكندرية الى احد موانئ الشام ليرافق الحاج الشامي .

لكن بسبب وجود الصليبيين هناك ، اضطر رحالتنا الى السير بالطريق المصري . فالتخذ سبيله الى القاهرة ، ثم مر بقوص وعيذاب وجده في طريقه الى مكة والمدينة . واجتاز بعد ذلك الطريق النجدي الى الكوفة وزار بغداد والموصل ، وعاد بطريق سورية . فمر بحلب وحماة وحص والبنك ودمشق ثم بعكاء . ومن هذه الاخيرة اقلع في مركب افرنجي الى صقلية و مر بصور . وعاد الى غرناطة فوصلها في الثامن من محرم سنة ٥٨١ / ١١٨٥ .

ولم يكن ابن جبير وحيداً في رحلته هذه . فقد رافقه جده لأمه القاضي ابن عطية وابو جعفر الطيب .

وقد رحل ابن جبير الى المشرق مرتين بعد ذلك ، اولهما بعد احتلال صلاح الدين لبيت المقدس والثانية بعد وفاة زوجته عائكة ام المجد . وقد قضى أواخر حياته في الاسكندرية وهو يحدث ويؤخذ عنه حتى توفي سنة ٦١٤ / ١٢١٧ .

وتذكرة ابن جبير هي اخبار رحلته الأولى وقد دونها صاحبها على شبه مذكرات يومية يستعمل فيها دائماً التاريخين القمري (مع السنة الهجرية) والشمسي (دون ذكر السنة) . وقد عني كاتبها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة . فمشاعر الحج كلها مدونة وصعوبات السفر ومواكب الأمراء وتجارة مكة كلها موصوفة وصفاً بارعاً دقيقاً . ورحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين اهل البلاد والصليبيين في الشام . ويشير غير مرة الى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة . وابن جبير شديد العناية بالبحث عن المدارس والمارستانات ، وليس هذا بغريب على رجل عالم فقيه . وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الاسلوب . وقد اثر ابن جبير في كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده ، فنقلوا اجزاء كبيرة من رحلته . وليس ادل على ذلك من ان محرر رحلة ابن بطوطة نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد . على انه من المؤسف اننا لا نجد في رحلته شيئاً يدلنا على عدد السكان في اي من البلدان التي زارها . وقد تناول ابن جبير في

الجزء الاخير من رحلته الى صقلية بوصف رائع وروى اخبارها بشكل يجعل هذا القسم مصدراً رئيساً من مصادر تاريخ صقلية في زمن وليم الثاني ، وخاصة فيما يتعلق بعلاقة السكان المسلمين في الجزيرة بحكامها الاوروبيين .^١

وابن سعيد رحالة اندلسي ولد بقرطبة ليلة الفطر سنة ٦١٠ / ١٢١٤ في اسرة عريقة في الحسب والنسب كان لافرادها صلة بالملوك ، وكان ابوه من اهل الادب والتأليف . والمترجم به متمم كتاب « المغرب في حلى المغرب » . فقد بدأه جده وعمل فيه أبوه وأتمه هو .

عمل ابن سعيد لوزير الموحدين بافريقية ابن جامع ، وكان للمترجم به ابن عم يعمل للموحدين ايضاً . فوقعت بين القرنيين فرقة خشي ابن سعيد عاقبتها ، فاستأذن في الرحيل الى المشرق برسم الحج . وصل الاسكندرية سنة ٦٣٩ / ١٢٤١ ، وكان والده قد رحل اليها واقام فيها ، وكان متأخراً عن موعد الحج ، فذهب الى القاهرة ولقي بها ايدير التركي والبهاء زهير وابن يغمور وهو يومئذ رئيس الامور بالديار المصرية . وقد استدعى سيف الدين ابن سابق ابن سعيد الى مجلس بصفة النيل مبسوط بالورد ، وقد قامت حوله شمامات نرجس فقال ابن سعيد :

من فضل النرجس فهو الذي يرضى بحكم الورد اذ يرأس
اما ترى الورد غدا قاعداً وقام في خدمته النرجس
ووافق ذلك وقوف المالك الترك في الخدمة ، فظرب الحاضرون .

وقد ترك لنا ابن سعيد وصفاً نفيساً لمصر والفسطاط ، اعطانا فيه صورة حية لما كانت عليه الحالة يومئذ . فتناول شوارع المدينة وابليتتها وازقتها بالوصف ، ثم تحدث عن نواح من الحياة في الاحياء المخصصة للهو والطرب ، اذ قال عنها انه قد يرقص الواحد في وسط السوق وقد يسكر الناس من الحشيش.^٢

١ - ابن جبير ، « رحلة ابن جبير » ، ليدن ، بريل ، ١٩٠٧ ، ص ٣١٨ - ٣٢٠ .

٢ - راجع المؤلف ، « رواد الشرق » ص ٧٥ .

لكن المقرزي علق على ذلك بقوله « وفيه تحامل كثير »^١ . وكان قد جاء مصر كمال الدين ابن العديم رسولا من الملك الناصر صاحب حلب الى صاحب مصر ، فتعرف ابن سعيد اليه ، فاكرمه ، السلطان فاستجلبه وتلف به وسأله عن قصده من رحلته ، ولما عرفه وعده بالمساعدة قائلًا « نعينك بما عندنا من الخزائن ونوصلك الى ما ليس عندنا كخزائن الموصل وبغداد وتصنف لنا . »^٢ ووجهه الناصر من الخلع والدنانير والتواقيع بالارزاق ما لا يوصف . وتعرف ابن سعيد الى عدد كبير من رجال السيف والقلم كانوا يعملون في حاشية الناصر . ثم تحول الى دمشق ودخل مجلس السلطان المعظم ٦٣٧ - ٦٤٧ / ١٢٣٩ - ١٢٤٨ وحضر مجلس خلوته . ودخل الموصل وارتحل الى بغداد في عقب سنة ٦٤٨ ثم رحل الى البصرة وحج وعباد الى المغرب فنزل في اقلية بتونس سنة ٦٥٢ / ١٢٥٤ ، واتصل بخدمة الامير ابي عبد الله المستنصر .

على ان ابن سعيد ارتحل من تونس الى المشرق ثانية في سنة ٦٦٦ هـ وذكر انه لما دخل الاسكندرية سأل عن الملك الناصر فأخبر بحاله وما جرى له من قتل التتار له . ويروي ابن سعيد ما وصل اليه علمه من اخبار هجوم هولاكو على حلب وما تركته حملته من آثار التخريب والتدمير .

وتواليف ابن سعيد كثيرة منها المرقصات ، والمطربات . والمقتطف من أزهير الطرف ، والطالع السعيد في تاريخ بني سعيد (أي تاريخ بيته وبلده) ، والموضوعات الغريبة المتعددا الاسفار ، وهما « المغرب في حلى المغرب » و « المشرق في حلى المشرق » و « عدة المستنجز وعقلة المستوفز » .

والعبدري هو محمد بن محمد بن علي وينسب الى عبد الدار واسم العبدري مرتبط ببلنسية من حيث اصل اسرته وبالصور (على مقربة من مفسادور)

١ - نفس المكان .

٢ - ابن سعيد ، النفع ج ١ ص ٤٥٢ .

بمراكش من حيث سكني هذه الاسرة . ولعل ذلك كان في طفولة العبدري او صباه . اما لما بدأ الرجل رحلته عبر شمال افريقية بقصد الحج فقد كان يقطن في حاحة في السوس الأقصى . بدأ الرحلة في ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٨٨ (١٢٨٩) ، واجتاز شمال افريقية ماراً بالسوس الاوسط ثم هبط تلمسان والجزائر ويحاية وقسنطينة وتونس . ويسير العبدري بعد ذلك مجتازاً ليبيا حتى يصل الاسكندرية . ويتبع الطريق البري من الاسكندرية الى مكة . وبعد ان يتم الحج يعود ادراجه ماراً بفلسطين الى القاهرة براً . ويعود براً كما فعل في طريق الذهاب . وقد خلف لنا هذا الرحالة اخبار المغرب الغربي ومدنه وعلمائه ، على طريقة معاصريه .

العبدري يصف مدن المغرب

« في اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٨ (١٢٨٩) بدأنا رحلتنا من حاحة واتجهت القافلة بنا نحو الجنوب ...

« انس مدينة جميلة تتوسط سهلاً غنياً بالمراعي والماشية .. وارضها شديدة الخصب غزيرة المياه . والواحة تدور بها الحدائق ومنابت النخيل .. وهي بوقوعها في اطراف السوس الأقصى وفي مكان مرتفع تتعلق بأسباب الجبال التي تشرف على المنطقة .

« واستمررنا في السير من انس عبر المنطقة الوسطى ، وهي بلاداً اختفى العلم منها حتى ان اسمه زال . وقد فقد الناس عادة التعليم ، وقلما يرتل القرآن في مساجدها .. ولكن الناس يكرمون رجال الدين ويولونهم ثقتهم التامة .. ويتمتعون بصفة هامة هي حماية الجار واحترامه والدفاع عنه . واذا حدث ان نشبت بين جماعة واخرى حرب ، فان المقاتلين يلتقون في الميدان نهراً ويتحاربون . فاذا جن الليل امتنعوا عن القتال وأووا الى بيوتهم حتى صباح اليوم التالي . واذا نشب الخصام بين اهل بلد واحد ، فان المتخاصمين يخرجون الى ميدان فسيح

بعيد عن السكان ، ويقتتلون فيما بينهم هناك ، حتى لا يصيب الاذى السكان الآمنين .

« ... وقد كانت رعاية الله تكلأنا في اجتيازنا هذه المنطقة ... التي لا يجتازها الناس عادة الا والسلاح مهيا مشهور ... حتى وصلنا تلمسان ... وقد دخلها معنا ما يزيد عن الف حاج .. وتلمسان مدينة كبيرة نصفها في السهل ونصفها الثاني في منحرج من الجبل ... وفيها مسجد جامع فخيم واسع ، واسواقها حافلة .. وفي مرتفع من الارض تقوم العباد - وهي مقبرة اهل التقى والمرابطين ، وافخم القبور هناك واجملها ضريح ابي مدين ... وتحيط الكروم والبساتين بتلمسان بحيث تطوقها بنطاق دائم الخضرة ... وفي داخلها الحمامات الحسان .

« ولم يبق للعلم من اثر في هذه الديار ، وقد جفت سواقي المعرفة . وقد حضرة درسا في النحو فوجدت الجهل مطبقا على الجميع .

« وقد طالبت اقامتنا بتلمسان حتى ٢٥ ربيع الاول ثم خرجنا منها .. واخيراً وصلنا مليانة البلدة الجميلة المكونة من مجموعة من الابنية ولا ينقصها شيء من ميزات المدن الكبيرة .

« واخيراً وصلنا الجزائر وهي مدينه لا يكف المرء عن الاعجاب بها اذ فيها ما يسحر اللب . تقوم على شاطئ البحر ، مقتعدة نشرا من الارض ، بحيث تستمتع بكل ما يمكن ان يضيفه مثل هذا الموقع الخاص على بلدة ما ، ويصبح البحر والسهل موردان لها .. جمال ابنتيتها يأسر الرائي ، وحصونها تتحدى الاعداء بتانتها . لكنها خالية من العلم ... وليس فيها من يمكن ان يعد من العلماء ...

« وخرجنا من الجزائر الى بجاية وهي ميناء كبير ومدينة حصينة ... وم حاول الاعداء اخذها فباءوا بالفشل . وفيها يبرز مساجد الجهة كلها حسنا . وفيها جماعة من العلماء الاعلام .

« وجئنا قسنطينة ... شفى الله جراحها ومتع سكانها بسبل انعاشها ...

انها بلدة جميلة وحصينة ، لكن حدثان الدهر طغى عليها ... بحيث اصبحت
كالمرأة الجميلة وكالكريم الخالي اليدين من المال ... تكثر فيها بقايا الابنية
القديمة ... يحيط بها اساطة السوار بالمعصم نهر يجري في واد عميق يدور بها
فيدفع عنها اذى العدوان ... ولم أر في قسنطينة الا رجلاً واحداً يصيح ان
يشار اليه كعلم في المعرفة وهو الشيخ ابو علي حسن بن بلقاسم بن باديس .^١

العبدري ومدينة تونس :

« ثم وصلنا الى مدينة تونس مطمح الآمال ومصب كل برق . ومحط الرحال
من الغرب والشرق . وملتقى الركاب والفلك وناظمة فضائل البرين في سلك .
فان شئت اصحرت في موكب . وان شئت ابجرت في مركب . كانها ملك
والأرباض لها اكليل . وارجاؤها روضة باكرتها ريح بلبل . ان وردت موارده
نقعت غليلا . وان رددت فرائدها شغيت حشا غليلا . جلست بها عروس
الغروس . وحلست بها على ممر الدهر الطروس ... فاقت بحسن
معانيها واتقان مغانيها غيرها من المدن وطالت . وسطت بنخوتها وانتخت
بسطوتها على قواعد الشرق والغرب وصالت . وترجم حسننها البهيج . وعرفها
الاريج . عن معناها ولو نطقت لقاتل :

انا الغادة الحسناء فاق جماله فثالت يميناً لا خطبت على وزج
اذا الغنيات ارتدن وصل بعولة فمالى ولا فخر الى الزوج من حوج
اعادي اذا ما شئت ظيباً بقفرة واطرق نوه اليم في ظلم الموج
وفي لمكدود الحجيح استراحة فهم يردوني الدهر فوجاً على فوج
واني الى البيت العتيق كسلم به يرتقي من في الحضيض الى الارج

١ - العبدري ، راجع المؤلف ، «الرحالة العرب» ص ١١٧ - ١١٨ :

« وما زالت مدينة تونس كلاهما الله دار ملك وفخامة وهي الى الآن دار ملكة افريقية ، على ضعف المملكة بها وانتهائها الى حد الثلاثي ومع ذلك فقد اربت على البلاد في كل فضيلة ... »

« ثم وصلنا الى مدينة تونس حرسها الله تعالى وهي كما مر ذكرها واستقر عند المؤلف والمخالف شكرها وهي مؤنسة عند اسمها ومسعفة على مقتضى رسمها وما انصف من ذمها بالمال . وتمسف عليها فقال :

لعمرك ما الفيت تونس كاسمها ولكنني الفيتها وهي توحش

تونس وارباضها :

« وهذه المدينة كلاها الله من المدن العجيبة الغربية ، وهي في غاية الاتساع ونهاية الاتقان والرخام بها كثير واكثر ابواب ديارها معمول بها عضائد وعتب ، وجل مبانيها من حجر منحوت بحكم العمل ، ولها ابواب عديدة وعند كل باب منها روض متسع على قدر البلد المستقل . ولو اتفق ان كان بها ماء جار لكانت معدومة النظير شرقاً وغرباً ، ولكن ماؤها قليل وفي ديارها مصانع لماء المطر وهو المستعمل عندهم ، واما الساقية المحلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه الا رشحا يسيرا سرب الى سقاية جامع الزيتونة ، يترشف منها في انابيب من رصاص ويستقي منها الغرباء ومن ليس له في داره ماء ويكثر عليها الازدحام .

الجامع الأعظم :

« وهذا الجامع من احسن الجوامع واتقنها واكثرها اشراقا ودائره مسقف ووسطه فضاء ، قد نصبت فيه اعمدة من خشب على قسدير ارتفاع الجدر وشدت اليها حبال متينة في حلق من حديد متبنة فيها وفي السقوف شداً محكماً ، فاذا

كان يوم الجمعة نشرت عليها شقق الكتان المطبقة الموصولة حق تظلل جميع الفضاء ، ذلك دأبهم فيها حتى ينصرم فصل الصيف .

ماء زغوان والحنايا

« واما الساقية المذكورة فهي من جملة غرائب الدنيا وهي قديمة من عمل الروم مجلوبة من جبال بجنوبي تونس ، على مسيرة يومين اونحوهما ، في اوعار واودية منقطعة وجبال وأكام ، فاذا انتهوا بها الى جبل او تل خرقوه وسربوا الماء فيه واذا انتهوا الى واد او وهد بنوا لها قناطر بعضها فوق بعض ، حتى يستوي مع مجرى الساقية بصخر منحوت اتقن ما يكون من البناء واغربه واوثقه ، حتى ينسرب الماء منها في مستوى معتدل . واتصلت هذه الساقية بهذا العمل حتى دارت من وراء تونس الى الغرب وانتهت الى مدينة قرطاجنة وبينها وبين تونس نحو اثني عشر ميلا ، وهي (أي قرطاجنة) من اعجب مدن الارض واغربها ، لما يحكى عنها من فرط الاعتناء وغرابة الصنعة وحسبك ان هذه الساقية من جملة الاعتناء بها . واما الرخام فيجلب منها الى كل موضع بافريقية قديما وحديثا ولا يفنيه ذلك منها وهي الآن دائرة لا انيس بها ، واهل تونس يخرجون اليها تفرجا وتعبداء ، والقناطر من تونس اليها معطلة . وهذه القنطرة تعرف عندهم بالحنايا ، وهي مما يقصر عنها الوصف لفرط اتقانها وغرابتها . ويذكر ان الروم اقاموا في تدبيرها والنظر في وضعها أربع مائة سنة ، وهذا بعيد البكري فحكى ان عملها فرغ حتى استوى جري الماء في اربعين سنة ، وقد كان بعض الامراء وهو اخو القائم بها الآن احتاج الى اصلاح بعض الحنايا بها مما يلي تونس ، ليوصل الماء اليها اذ كانت معطلة قبله فاقام في عملها مجتهدا باقصى ما يمكنه اعواما عديدة ، ولم يمكنه رد ذلك على ما كان عليه ولا ما يقرب منه ، بل اقتنع بتسديده كيفما امكن مع قلته وتفاهته بالاضافة الى غيره .

اهل تونس

« وما رأيت لاهلها نظيراً شرقاً وغرباً ، شيئاً فاضلة و اخلاقاً حميدة .
وقد كان الأخلق بمن شاهد اخلاقهم ان يطنب في وصفهم ويضرب عن لم
يمنحهم الوداد وينصفهم ، اذ ذلك من بعض واجبهم واقل مراتبهم ولكن
الزما لا يعين على توفية الحقوق ولا يتعمد الفراغ (كذا) الا اهل
المعقوق . وناهيك ببلد لا يستوحش فيه غريب ولا يعدم فيه كل فاضل اريب
يبعدون من طراً عليهم بالمداخلة ويخطبون منه لفضل طباعهم المواصله ، فهو منهم
بين اهل مشفق ورفيق مرفق ، وقد كان بعض خيار طلبتها وحسابهم لازم في
مدة الاقامة بها وترك لأجلي مهات اموره وعرفني بفضلائها ، وكان لا ينفصل عني
عامة النهار . وكثيراً ما كنت أمر بمن لا يعرفني من أهلها فأسأله عن الطريق
الى ناحية منها ، فيقوم من حانوته ماشياً بين يدي يسأل الناس عن الطريق ويدل
بي ، وهذا من اغرب ما يسمع من جميل الاخلاق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء
ولولا اني دخلتها لحكمت بان الصلاح في أفق المغرب قد محي رسمه ونسي اسمه
وضاع حظه وقسمه ، ولكن قضى الله بان الأرض لا تخلو من قائم له بحجة يرى
سبيل الحق ويوضح المحجة ويقول مادحاً لاهل تونس ايضاً في معرض
المقابلة بينهم وبين بعض من لم يؤتوا ما أوتوا من الفضل ما نصه : فسبحان من
خلقهم واهل تونس في طرقي نقيض اولئك في الأوج وأولاء في الحضيض ... »

العلم بتونس

« لا تلشد بها (اي بتونس) ضالة للعلم الا وجدتها ولا تلتبس بها بغية
معوزة الا استفدتها ... وما من فن من فنون العلم الا وجدت بتونس به
قائماً ولا مورداً من موارد المعارف الا رأيت بها حوله وارداً وحائماً ... »^١

١ - ما ذكره البغدادي عن تونس منقول عن « المجلة الزيتونية » ، المجلد الثاني (١٩٣٧)
الجزء الثالث من ١٢٢ - ١٢٥ .

أهل العلم بتونس

« ولقيت بها الشيخ الأديب الحسب، الكاتب البليغ، ذا الفضائل المذكورة والمآثر المأثورة، شيخ الأدباء وأوحد البلغاء وزين الناظمين والشعراء أبا الحسن علي بن إبراهيم التجاني التونسي، له بيت عريق في العلم والأدب، قال لي بمسجد أقرائه: أنا الثاني عشر مدرسا من آباءى على نسق كلهم قد قعدوا هنا للاقراء ويتبهم بالعلم شريف شهير وقل منهم ومن نسائهم من لا يقول الشعر. وأما أبو الحسن فهو فيه آية الزمان اجادة معنى وتنقيح لفظ وسرعة بديهة، وكثيراً ما يمليه ارتجالاً فيجود ويتقن، وله مشاركة حسنة في العلم ورواية عن الشيوخ ورحلة الى المشرق وحج فيها وهو بالجملة من خواص أهل العلم واحادهم، جالسته كثيراً وسمعت كلامه في الادب وغيره... (قلت) اتماماً للفائدة انقل ما ذكره العلامة الوالد تغمده الله برحمته في شان بيت التجاني الرفيع العماد في المجد والسؤدد، من كتابه عنوان الأريب ونصه: وكان بيتهم (اي التجانيين) بحاضرة تونس مطلعاً لبدور العلماء والكتاب والشعراء، تناوبوا خطط الدولة الحفصية وتقدموا في كتابتها ودسوت رئاستها باستحقاق واضطلاع في العلم والادب، وكان الادب والشعر مستفيضاً في كبيرهم وصغيرهم وذكورهم واناثهم. فلقد نقل التاريخ ان صبيين من بيتهم خرجا يتفسحان فجلسا يستريحان عند حنايا ماء زغوان، فقال احدهما وقد رأى انهدام بعض الحنايا لكرور الأيام وتعاقب الاعوام وقيام بعضها على أصوله:

تمتع من بقايا الحنايا

فقال الآخر:

بأبدع منظر تصبو اليه

فقال الاول:

تأمل صنع ارسما البواقي

فقال الآخر:

وقد مد الفناء لها يديه

فقال الاول :

كسطر بعض احرفه تمحي

فقال الآخر :

وبعض لاح مضروباً عليه

علماء تونس وبث العلم

« فمن واطبته مدة الإقامة ونزمت له لزوم الطوق للحمامة ، الشيخ الفقيه الفاضل والخبير النزيه الكامل ، قاضي القضاة وزين الحملة والرواة ، ذو التواضع والانصاف والمعروف بوطاة الاكناف ، مسند عصره والمرجع اليه في مصره ابو العباس احمد بن محمد بن حسن بن محمد بن الغماز الخرزجي وصل الله صيانته وأدام على اثبات اعانتته ، فلقبت منه عالماً يأخذ بالاسماع والابصار وفاضلاً خلت عن مثله القرى والامصار ... الى ان يقول يدأب على الاسماع دؤوب من عد العلم أرفع صناعة ورأى الاشتغال به انفع بضاعة ، لا يشغله عنه الابقاء على اعضائه الواهية ولا يصده عنه ما تتحملة من المشقة نفسه السامية ، ولم يؤثر في قوة اجتهاده ضعف قواه ولا هوى به الى استبطاء الراحة هواه ، بل يستعذب في خدمة العلم ما يلاقي ويعده عدة ليوم التلاقي ... »

شبان علماء تونس

« حكى العبدري عن بعض من لقيهم من العلماء بتونس ما نصه : ومن لقيت بها فسرني لقاؤه ، وواليت في ذات الله فنفعني ولاؤه ، وحاضرني فاعجبني ذهنه وذكاؤه ، وصحبته فبهرتني حياؤه وفضله وكرمه وسخاؤه وتواضعه ورجاؤه صاحبنا في الله ووليننا وصديقنا في طاعته وصفيينا ابو العباس احمد بن عمر بن ميمون الأشعري المانعي يعرف بابن السكان رأيت مجرياً الى غاية من كمل ، ومبرزاً في حلبة العلم والعمل . عذبت اخلاقه وفاقت زلالاً ، واستقامت

احواله كالبيان اعتدالا ، وفاضت انامله كالمزن انهالا ، ادرك مزايا الشيوخ على
فتاه سنه ، فما تكلم في علم الا قلت هذا معظم فنه ، قد الف الانقباض فما يبسط
الا يده ، وسحب قصر الأمل فما يؤمل غده .

فقل من الآمال اذ لا يضمها ولكن من كل مأثرة ماثري

سري غني النفس ما تستفزه زخاريف دنياه بقل ولا كثر

« وله اعتناء بتصحيح الرواية ، واعباء في تنقيح الدراية ، سمع من الشيوخ
واستجازه واستجيزوا له فاستعت لذلك رواية وله مجموعات تشوق ، ومؤلفات
تمجيب وتروق ، منها كتاب في اكمال التذليل لأبي بكر بن فتوح على كتاب
الاستيعاب للحافظ ابي عمرو بن عبد البر قد اعتنى به اعتناء تاماً وهو الى الآن
لم يكمل .

عدول تونس

« وهذا العبدري يذكر ان بمن لقيهم من علماء تونس الفقيه الأفاضل أبا عبد الله
محمد بن ابي القاسم الأزدي ويعرف بالقسي - بضم القاف - قال : وهو رجل
فاضل وقور ذو سمت ومن عدول البلد رحل الى المشرق فلقى الناس وأخذ
عنهم قرأت عليه جزءاً في فضيلة من اسمه محمد واحمد تخريج الشيخ الحافظ ابي
عبد الله الحسين احمد بن عبد الله بن بكير البخاري . »

مؤدبو تونس

« وهذا العبدري يحدثنا ان ممن اجتمع بهم في تونس الشيخ الفقيه الصالح
الفاضل ابا العباس احمد ابن موسى بن عيسى بن ابي الفتح البطرني (نسبة الى
بطرنة بفتح الطاء واسكان الراء) وهو مؤدب في بعض ارباض تونس ضرير
البصر دين صالح معتن بالعلم وروايته مواظب على افعال الخير لقي جماعة من

العلماء وسمع من أبي عمر ابن الشقر وقرأ عليه كثيراً وروى عنه وأجازه قال :
وقد قرأت عليه الاربعين المسلسلات لأبي الحسن بن أبي الفضل المقدسي ... ثم
يقول : وكانت له مسموعات ومرويات لم يتسع الوقت لاخذها عنه والحمد لله على
كل حال .

تجار تونس

« لا ريب ان انتشار انوار العرفان في الامة حق ينال حظه منها التجار
والصانع وغيرهما من اللعين فهو عنوان تقدم الامة ورقبها وتجار تونس في عصر
صاحب الرحلة قد اخذوا حظاً من العلم غير منزور فقد روى « أن ممن لقيهم
بتونس الشيخ الفقيه الحاج المبارك الافضل معين الدين ابا محمد جابر بن محمد بن
القاسم بن حسان قال وكان من التجار رحل الى المشرق قديماً فلقي به الامام علم
الدين السخاوي وسمع منه وأجازه وقرأ عليه قصيدتي الشيخ الامام أبي القاسم
الشاطبي في القراءات وفي المرسوم وحدثه بها عنه قال : وقد قرأت عليه بعض
الاولى وجميع الثانية وحدثني بهما معاً عن السخاوي عن ناظمهما المذكور وأجازه
عامة وكتب لي بذلك خط يده وقرأت ارجوزة السخاوي في المتشابه من الفاظ
القرآن وحدثني بها عنه قراءة ثم قال : وقرأت على الشيخ أبي محمد احاديث من
احاديث المعمرين ... »^١

١ - العبدري ، منقول عن « المجلة الزيتونية » ، المجلد الثاني (١٩٣٨) الجزء التاسع
ص ٣٨٤ - ٣٨٧ .

الفصل الثالث عشر

رحالة عالم - البغدادي

عبد اللطيف البغدادي رحالة عالم شملت معرفته الطب بالإضافة الى النحو واللغة وعلم الكلام . واشتهر بصناعة الطب في كل مكان اقام فيه وخاصة في دمشق . وقد اخترناه لسببين : الأول هو الاتجاه العلمي الذي كان يغلب على تقييده مشاهداته ، فتراه يشير الى انه رأى وفحص ونقب ، فضلاً عما يسمع . واذا روي له امر وشك فيه اظهر ذلك في كتابته . والثاني لأنه خلف لنا وصفاً لمصر في سنوات الضيق والقحط والوباء (٥٩٥ - ٥٩٨ هـ) . هذا بالإضافة الى انه تناول اموراً في حياة مصر الاجتماعية والعمرانية بتفصيل العالم ودقته .

ولد عبد اللطيف في بغداد سنة ٥٥٧ / ١١٦٢ ، وانصرف شأن طلاب العلم في العالم الاسلامي في عصره ، الى سماع الحديث وحفظ القرآن واجادة الخط وحفظ الشعر والمقامات ، واخذ لنفسه اجازات من شيوخ بغداد ثم من شيوخ خراسان فلما اطمأن الى أنه أخذ عن شيوخه كل مسأعندهم تحول الى الموصل وحدث في مدرسة ابن مهاجر ودار الحديث . ولم يلق بالموصل سوى الكمال بن يونس وكان جيداً في الرياضيات .

وكان صلاح الدين سيد سورية ومصر آنشد ، قد أحسن الى عدد كبير من العلماء فأرؤوا الى دمشق . وجاءها عبد اللطيف يطلب علمهم فوقعت بينه وبينهم مناظرات انتصر فيها عليهم ، فتوجه الى القدس وجاء معسكر صلاح الدين

بظاهر عكاء حيث لقي بهاء الدين شداد قاضي العسكر وعماد الدين الكاتب والقاضي والفاضل . والراجح ان الاخير اعجب بعبد اللطيف لأنه زوده برسالة توصية الى وكيله في مصر ابن سناء الملك الذي احتفل به . وهناك تيسر له الاتصال بياسين السييائي وموسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي . وقد اعجبه الاخير من هؤلاء الثلاثة ، فكانا يتفاوضان الحديث فتكون الغلبة لعبد اللطيف « بقوة الجدل وفضل اللسان » ، ويتغلب الشارعي « بقوة الحججة وظهور الحججة . »^١

على ان اقامة عبد اللطيف بمصر هذه المرة لم تطل ، اذ رحل الى القدس للقاء صلاح الدين بعد الهدنة ، وتم له ذلك . وقد وصف مجلس السلطان بقوله : « ... واول ليل حضرته وجدت مجلساً حفلاً باهل العلم يتذاكرون في اصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، يأخذ في كيفية بناء الأسوار وحضر الخنادق ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع . »^٢ ورتب صلاح الدين واولاده لعبد اللطيف مائة دينار في الشهر ، فدخل دمشق وأكب على الاشتغال بالعلم واقراء الناس بالجامع .^٣

لكن عبد اللطيف كان يمل الاستقرار في مكان واحد مدة طويلة ، فرحل الى مصر في ركاب العزيز سلطانها لما جاء لحصار الأفضل اخيه في دمشق في حملة فاشلة . وعاد في مصر الى مصاحبة الشارعي حتى توفي .^٤ وكان يقرىء الناس بالأزهر صباحاً ومساءً ويقرىء الطب للكثيرين في وسط النهار . وفي هذه المدة وقع بمصر الغلاء العظيم والموت ، وكتب عبد اللطيف كتاب « الافادة والاعتبار

١ - البندادي، عبد اللطيف، « الافادة والاعتبار »، القاهرة، مطبعة وادي النيل ١٨٦٩ ص و.

٢ - نفس المكان ص ز .

٣ - نفس المكان ص ز .

٤ - نفس المكان ص ز - ج .

في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بارض مصر ، في وصف احوال مصر في وقته .

ثم دعاه حب السفر ثانية فانتقل الى القدس ودرس في الجامع الأقصى ونزل دمشق حيث اشتهر بصناعة الطب ودرس في المدرسة العزيرية (٦٠٤ هـ) وتنقل بعد ذلك بين حلب وازربيجان في بلاد الروم وارزن الروم وبغداد وتوفي بها ١٠ .

هذا هو عبد اللطيف الذي درس علوم عصره العقلية والنقلية وحدث وعلم الطب والف كتباً كثيرة فيه ، وانتفع الناس بعلمه في دمشق والقاهرة والقدس وحلب وبغداد .

البغدادى في مصر

أبنية مصر - « واما ابنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية ، حتى انهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة . ودورهم افيع وغالب سكانهم في الأعالي ويعملون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلاً الا وتجد فيه باذاهنج . وباذاهنجاتهم كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام حتى انه يغرم على عمارة الواحد منها مائة دينار الى خمسمائة ، وان كانت باذاهنجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار . واسواقهم وشوارعهم واسعة وابنيتهم شاهقة . وبينون الحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر ، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق .

ويحكمون قنوات المراحض حتى انه تخرب الدار والقناة قائمة ، ويحفرون الكنف الى المعين فيغبر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر الى كسح . واذا ارادوا بناء ربيع او دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض اليه العمل فيعمد الى العرصة ، وهي تل تراب او نحوه ، فيقسمها في ذهنه ويرتبها بحسب

ما يقترح عليه ثم يعمد الى جزء جزء من تلك العرصة فيعمر ويكمله بحيث ينتفع به على انفراد ويسكن ثم يعمد الى جزء آخر ، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الاجزاء من غير خلل ولا استدراك ،^١ الترقيد في مصر - « من ذلك حضانة الفراريج بالزبل قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يعرفوه ايضاً . وانما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها . وتجد في كل بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك . ويسمى الموضع معمل الفروج . وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التي يأتي ذكرها ما بين عشرة ابيات الى عشرين بيتاً في كل بيت الفا بيضة ويسمى بيت الترقيد . وصفته ان يتخذ بيت مربع طوله ثمانية اشبار في عرض ستة في ارتفاع اربعة ، ويجعل له باب في عرضه سعته شبران وعقد في مثله ، وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ، ثم تسقف باربع خشبات وفوقها سدة قصب يعني نسيجا منه وفوقه ساس وهو مشاققة الكتان وحطبه ، ومن فوق ذلك الطين ، ثم يرصص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه واعلاه واسفله حتى لا يخرج منه بخار . وينبغي ان تتخذ في وسط السقف شباكاً سعته شبر في شبر فهذا السقف يحكي صدر الدجاجة . ثم تتخذ حوضين من الطين نحر بساس طول الحوض ستة اشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة اصبع وحيطانه نحو اربع اصابع ، ويكون هذا الحوض لوحاً واحداً تبسطه على ارض معتدلة . وهذا الحوض يسمى الطاجن فاذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف احدهما على وجه الباب والآخر قبالة على الطرف الآخر تركيباً محكماً واخذت وصولها بالطين اخذاً متقناً . وينبغي ان يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه ، وهذان الطاجنان تحاكى بهما جناحا الدجاجة ثم يفرش البيت بقفّة ثبن ويمهد ، ويفرش فوقه خب اوديس يعني حصيرا برديا على مقداره سواء ، ثم يرصف فوقه البيض رصفاً حسناً بحيث يتماس ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه . ومقدار ما يسع هذا البيت المفروض الفا بيضة وهذا الفعل يسمى الترقيد .

١ - نفس المكان ص ٣٨ - ٣٩ .

« صفة الحضان تبثديء وتسد الباب بأنت ترسل عليه لبدا مهندها ثم تسد الطاقة بساس والشباك ايضاً بساس وفوقه زبل حتى لا يبقى في البيت متنفس للبخار . وتلقى في الطاجنين من زبل البقر اليابس قفتين وذلك ثلاث ويبات وتقد فيه نار سراج من جميع جهاته وتمله ريثا يرجع رماداً وانت تتفقد البيض ساعة بعد اخرى بان تضعه على عينك ، وتعتبر حرارته . وهذا الفعل يسمى الزواق . فان وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقليباً في ثلاث دفعات ، تجعل اسفله اعلاه واعلاه اسفله . وهذا يحاكي تقليب الدجاجة للبيض بمنقارها وتفقدوها اياه بعينها وهذا يسمى السماع الاول . فاذا صار الزبل رماداً ازلته وتركته بلا نار الى نصف النهار ان كان ترقيده بكرة . وان كان ترقيده من اول الليل حرسه الى ان تحمى وتسمع النار كالسياقة المتقدمة ، ثم تحلى الطاجنين من النار الى بكرة ، ثم تجعل في الطاجن الذي على باب البيت من الزبل ثلاثة اقداح وفي الطاجن الذي على صدر البيت قدحين ونصفاً . ومد الزبل بمرود غليظ واطرح في كل منها النار في موضعين منه وكما خرجت من البيت بعد تفقده فارخ الستر ، واياك ان تغفل عنه ليلا يخرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل .

« واذا كان وقت العشاء وصار الزبل رماداً ونزل الدفء الى البيض اسفل البيت ، فغير الرماد من الطواجن بزبل جديد مثل الاول . وانت كل وقت تلمس البيض وتذوقه بعينك فان وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين ، فاجعل مكان الثلاثة الاكياس لطاجن الباب كيلين وربعا وفي طاجن الصدر كيلين فقط . ولا تزال تواصل تغير الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة ايام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئة الله وقدرته ، وذلك نصف عمر الحيوان . ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج ، فالتى تراها سوداء ففيها الفرخ والتى تراها شبه شراب اصفر في زجاج لا عكر فيه فهي لاح بلا بزر ، وتسمى الارملة فاخرجها فلا منفعة فيها . ثم عدل البيض في البيت بعد تنقيته وأخرج اللاح عنه وهذا الفعل يسمى التلويح ،

ثم تصبح بعد التلويع تنقص الزبل من العيار الاول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى يتصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شيء ، فحينئذ يكمل الحيوان ويسعر وينفخ ، فاقطع اذا النار عنه فان وجدته زائد الحرارة يحرق العين فافتح الطاقة التي على وجه الباب واخلها كذلك يومين ثم ذقه على عينك فان وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشباك وانت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذي في الصدر الى جهة الباب والبيض الذي في جهة الباب ترده الى الصدر حتى يحمي البارد الذي كان في جهة الباب ويستريح الحار الذي في الصدر بشم الهواء فيصير في طريقة الاعتدال، ساعة يحمي وساعة يبرد ، فيعتدل مزاجه . وهذا الفعل يسمى الحضانة كما يفعل الطير سواء . وتستمر على هذا التدبير دفعتين في النهار ودفعة في الليل الى تمام تسعة عشر يوماً . فان الحيوان ينطق في البيض بقدرة الله تعالى وفي يوم العشرين يطرح بعضه ، يكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح . وعند تمام اثنين وعشرين يوماً يخرج جميعه ، واحد الأوقات عاقبة لعمله امشير وبرمها وبرمودة وذلك في شباط واذار ونيسان، لأن البيض في هذه المدة يكون غزير الماء كثير البزرة صحيح المزاج ، والزمان معتدل صالح للنشأ والكوين وينبغي ان يكون البيض طريا . وفي هذه الاشهر يكثر البيض ايضاً .^{١٤}

الفصل الرابع عشر

شيخ الرحالين - ابن بطوطة

أن الرجل الذي يقضي ثماني وعشرين سنة من حياته يتنقل في اجزاء العالم المعروف ، فتحمله اسفاره من طنجة الى مصر عبر شمال افريقية ثم الى الشام وبعد ان يؤدي فريضة الحج يزور ايران وبلاد العرب وشرق افريقية ويدخل القرم وحوض الفولغا الادنى ويعرج على القسطنطينية ، بعد هذا كله يمعن في الرحلة شرقاً الى خوارزم وبخارى وكردستان وافغانستان والهند والصين وجزر الهند الشرقية وجزر الملديف ، وبعد ان يعود الى بلده يعاوده الحنين الى السفر فيزور الاندلس والسودان . ويقطع في اسفاره ما لا يقل عن ١٢٠,٠٠٠ من الكيلومترات ان رجلاً هذا شأنه يعتبر بحق شيخ الرحالين العرب ، وسيد الرحالين اطلاقاً في عصره ، أي في القرن الثامن (الرابع عشر) .

وابن بطوطة من مواليد طنجة ، عروس المغرب ، ولد فيها سنة ١٣٠٤/٧٠٣ وفيها درس العلوم الشرعية على ما عرف عن اسرته من اهتمام بها . فلما بدأ رحلاته كان قد اصبح ممن يشار اليهم بالبنان في هذه العلوم . وقد عرف الحجاج المغاربة رفاقه في السفر فضله وهم في الطريق الى مصر فجعلوه قاضياً لهم ، مع انه كان في الثانية والعشرين من سنه . وقد اجتاز ابن بطوطة المغرب والجزائر وتونس وليبيا الى مصر وهبط الاسكندرية ، فاعجبته فقال « ثم وصلنا في اول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية (حرسها الله) ، وهي الثغر المحروس ، والقطر

المأنوس ، العجيبة الشأن ، الاصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحسين ، وماثر دنيا ودين . كرمت مغانيها ، ولطف معانيها ، وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها . فهي فريدة تجلي سناها ، والخريدة تجلي في حلاها الزاهية يحملها المغرب ، الجامعة لفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فاليها انهاؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا في عجائبها فأغربوا .^١

وانتقل من الاسكندرية الى القاهرة مجتازاً الدلتا ، ولم يتمكن من الذهاب الى الحجاز بجرأ من عذاب على النحو المألوف لان سلطان البجاة قد خرق المراكب ، فلم يكن ثمة سبيل الى قطع البحر الأحمر ، فاضطر الى السير من القاهرة الى الشام ومنها رافق الحاج الشامي الى المدينة ومكة . وهنا ننقل جزء من وصفه للطريق من بدر الى مكة . قال « ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البرواء . وهي برية يضل بها الدليل ، ويذهل عن خليله الخليل ، مسيرة ثلاث ، وفي منتهاها وادي رابع ، يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمناً طويلاً . ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة . وسرنا من رابع ثلاثا الى خليص ، ومررتا بعقبة السويق ، وهي على مسافة نصف يوم من خليص ، كثيرة الرمل ، والحجاج يقصدون شرب السويق بها ، ويستصحبونه من مصر والشام يرسم ذلك ، ويسقونه الناس مخلوطاً بالسكر . والامراء يملأون منه الاحواض ويسقونها الناس ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل ، لها حصن مشيد في قنة جبل . وفي البسيط حصن خرب ، وبها عين فوارة ، قد صنعت لها اخاديد في الارض وسربت الى الضياع . وصاحب خليص شريف حسني النسب . وعرب تلك

١ - ابن بطوطة ، « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » ، باريس ، المطبعة الوطنية ، ١٨٧٤ ج ١ ص ٢٧ - ٢٨ .

الناحية يقيمون هنالك سوقاً عظيمة يجلبون اليها الغنم والتمر والأدام .^١ وبعد تطواف دام سنين ، منها ثمانية اعوام قضاهما في الهند وغيرها في جنوب شرق آسية ، عاد الى مصر ومنها الى طنجة ٧٥٠ / ١٣٤٩ وحط رحاله بعد ذلك في فاس في بلاط السلطان أبي عنان . ومن فاس خرج في رحلتين الواحدة الى الاندلس والثانية الى السودان الغربي (٧٥٢ / ١٣٥٢) وهذه دامت سنتين . وتوفي ابن بطوطة في المغرب سنة ٧٧٠ / ١٣٦٨ - ١٣٦٩ .

وفي بلاط أبي عنان المريني تحدث ابن بطوطة عن اسفاره - قص اخباره على السلطان نفسه وعلى خواصه وعلى العلماء . فاعجب السلطان بها ، ولذلك صدرت ارادته الى الرحالة بأن « يبلي ما شاهده في رحلته من الامصار ، وما علق بحفظه من نوادر الاخبار ، ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار وعلمائها الاخبار وأوليائها الأبرار »^٢ ، ووضع السلطان كاتبه ابن جزى تحت تصرف الرحالة . فكانت لنا من ذلك هذه المتعة الأدبية التي ننعم بقراءتها فنطلع على كنوز من المعرفة ، فنذكر بالخير الرحالة والسلطان وابن جزى .

يحذر بنا ان نذكر ان ابن بطوطة كان قد فقد اوراقه وكتبه غير مرة ، ولذلك فقد املى الرحلة من الذاكرة . وهذه الاسفار التي قام بها ، لم يكن من السهل تذكرها مرتبة منظمة ، ومن ثم فقد بدا في الرحلة شيء من الاختلاط الذي اثار بعض الريب في نفوس معاصريه ومن جاء بعدهم ، مثل ابن خلدون وفران . لكن اكثر الذين درسوا الرجل واسفاره مجمعون على انه كان صادقاً مخلصاً أميناً فيما نقل وشاهد وروى وتذكر . اما الخطأ او السهو فسببه بعد الشقة وطول الزمن .

ولابن بطوطة ، في رحلته ، خصائص جديرة بعنايتنا . منها انه كان قليل

١ - نفس المكان ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٨ .

٢ - راجع للمؤلف ، « الرحالة العرب » ص ١٢٣ .

الحفاوة بالارض والمدن ، ولكنه كان عظيم الاهتمام بالناس وخاصة بالعلماء والأولياء . ومن ثم فالرجل ، بالإضافة الى كونه رحالة من الطبقة الاولى ، يمكن اعتباره مؤرخاً اجتماعياً للمسلمين في عصره .

وحري بنا ان نشير هنا الى ان ابن بطوطة عاش في عصر ، كانت حضارة العرب والاسلام قد بدأت بالوقوف عن التقدم نتيجة لعوامل كثيرة ، لعل اهمها التجميد الرسمي الذي فرضته الدولة على العقل ونشاطه فحصرت الجهد الفكري فيما من شأنه ان يقوي كيانه - مؤيداً بالدين - ويظهر زينغ خصومها . وهكذا فالحضارة العربية تبدو في صفحات ابن بطوطة قليلة الحركة والنشاط والتوثب وتطلع علينا وكأنها لا دينامية لها . ولعل القارئ رأى من بعض ما نقلناه قبلاً عن العبدري مثلاً ان بواذر مثل هذه الحال كانت قد طلعت من قبل . ولكن هذا الأمر يبدو واضحاً كل الوضوح في صفحات ابن بطوطة - في اختباراته وزياراته واتصالاته والرجال الذين قابلهم . وقد يقال ان ابن بطوطة بحكم تكوينه الفكري لم يتصل الا بفئة من اهل العلم توازيه وتسامته . ولكن ابن بطوطة ، كان يسير يقظ الذهن مفتوح العين ، ويصف ما يرى ويسمع وتنطبع الصور في نفسه انطباعاً جيداً . فلو وقع على اختبارات حاسمة في ميادين الفكر الوثاب ، او اتصل باصحاب العقول التي تنفذ الى ابعد من المؤلف لكان صرح او ملح . ولكن لم يسعد الحال فلم يسعد النطق .

ولا يتسع المجال هنا لنقل الكثير من رحلة ابن بطوطة ، ولذلك فاننا نجتزئ بالقليل القليل .

في الخليج العربي - واكلت في ذلك المركب نوعاً من الطعام لم آكله قبله ولا بعده ، صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة ، طبخها من غير طحين ، وصب عليها عسل التمر وأكلناه . ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه ، جزيرة كبيرة لا عيش لأهلها الا من السمك ، ولم نزل اليها لبعده مرساها عن الساحل . وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير

من غير ذكاة . وبقنا بها يوماً ، وتوجه صاحب المركب فيه الى داره وعاد اليها . ثم
 سرنا يوماً وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ،
 ورأينا منها مدينة قلها في سفح جبل ، فخیل لنا انها قرية ، وكان وصولنا
 الى المرسى وقت الزوال او قبله فلما ظهرت لنا المدينة احببت المشي اليها والمبيت
 بها ، وكنت قد كرهت صحبة اهل المركب ، فسألت عن طريقها فأخبرت اني
 أصل اليها عند العصر ، فاكترت احد البحرين ليدلني على طريقها ، وصحبني
 خضر الهندي ، وتركت أصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك
 اليوم . واخذت اثواباً كانت لي فدفعتها لذلك الدليل ليكفيني مؤنة حملها ،
 وحملت في يدي رمحاً ، فاذا ذلك الدليل يحب ان يستولي على اثوابي ، فأتى بنا
 الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر . فاراد عبوره بالثياب فقلت له : اذا
 تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا ، فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب
 المجاز ، فرجع . ثم رأينا رجالاً جازوه عوماً ، فتحققنا انه كان قصده ان
 يفرقنا ويذهب بالثياب . فحينئذ اظهرت النشاط واخذت بالحزم ، ثم خرجنا
 الى صحراء لا ماء بها ، وعطشنا واشتد بنا الامر ، فبعث الله لنا فارساً في جماعة
 من اصحابه وبید أحدهم ركوة ماء فسقاني وسقى صاحبي ، وذهبنا نحسب
 المدينة قريبة منا ، وبيننا وبينها خنادق تمشي فيها الاميال الكثيرة . فلما كان
 من العشي اراد الدليل ان يميل بنا الى ناحية البحر ، وهو لا طريق له لان ساحله
 حجارة ، فأراد ان ننشب فيها ويذهب بالثياب ، فقلت له : انما نمشي على هذه
 الطريق التي نحن عليها ، وبينها وبين البحر نحو ميل . فلما اظلم الليل قال لنا :
 ان المدينة قريبة منا ، فتعالوا نمشي حتى نبيت بخارجها الى الصباح ، فخفت ان
 يتعرض لنا أحد في طريقنا ، ولم احقق مقدار ما بقي اليها ، فقلت له : انما
 الحق ان نخرج عن الطريق فننام ، فاذا اصبحنا اتينا المدينة (ان شاء الله) . ١ .

وقال في المغرب (وطنه) وقد قابله بغيره : « ثم سافرت عن تازى فوصلت يوم الجمعة في اواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعماية الى حضرة فاس فمثلت بين يدي مولانا الاعظم ، الامام الاكرم ، امير المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، أبي عنان ، وصل الله علوه ، وكبت عدوه . فانستفي هيئته سلطان العراق ، وحسنه حسن ملك الهند ، وحسن اخلاقه حسن خلق ملك اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك وحلمه حلم ملك الروم ، وديانته ديانة ملك تركستان وعلمه علم ملك الجاوة .

« وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة ، والمآثر الكثيرة ، ابو زيان بن ودرار . فسألني عن الديار المصرية ، اذ كان قد وصل اليها ، فاجبته عما سأل . وغرني من احسان مولانا ايده الله تعالى ما اعجزني شكره ، والله ولي مكافأته . والقيت عصا التسيار ببلاده الشريفة ، بعد ان تحققت بفضل الانصاف أنها أحسن البلدان . . لأن الفواكه بها متيسرة ، والمياه والاقوات غير متعذرة . وقل اقليم يجمع ذلك كله . ولقد احسن من قال :

الغرب احسن ارض ولي دليل عليه
البدر يرقب منه والشمس تسعى اليه

« ودرهم الغرب صغيرة ، وفوائدها كثيرة . واذا تأملت اسعاره مع اسعار ديار مصر والشام ، ظهر لك الحق في ذلك ، ولاح فضل بلاد المغرب . فأقول : ان لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة اوقية بدرهم نقرة . والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب . وبالمغرب يباع اللحم اذا غلا سعره ، ثمان عشرة اوقية بدرهمين . وهما ثلث النقرة . وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر الأوقات ، والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الادام لا يلتفت اليه بالمغرب ، ولأن أكثر ذلك العدس والحمص ، يطبخونه في قدور راسيات ، ويعملون عليه الشيرج والبسلا ، وهو صنف من الجلبان ، يطبخونه ويعملون عليه الزيت . والقرع يطبخونه باللبن ، والبقلة الحقاء يطبخونها كذلك . واعين اغصان اللوز

يطبخونها ويجمعون عليها اللبن . والقلقاس يطبخونه . وهذا كله متيسر بالمغرب .
لكن اغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك .

« واما الحضر فهي اقل الاشياء ببلاد مصر . واما الفواكه فاكثرها مجلوبة من الشام . واما العنب فاذا كان رخيصاً بيع عندهم ثلاثة ارطال من ارطالهم بدرهم نقرة ، ورطلهم اثنتا عشرة اوقية . واما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة ، الا انها ببلاد المغرب ارخص منها ثمناً . فان العنب يباع بها بحساب رطل من ارطالهم بدرهم نقرة ، ورطلهم ثلاثة ارطال مغربية . واذ رخص ثمنه بيع بحساب رطلين بدرهم نقرة والاجاص يباع بحساب عشر اواقي بدرهم نقرة . وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثانية فلوس ، وهي درهم من دراهم المغرب . واما الحضر فيباع بالدرهم النقرة منها اقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير . واما اللحم فيباع فيها الرطل منه من ارطالهم بدرهمين ونصف نقرة .

« فاذا تأملت ذلك كله ، تبين لك ان بلاد المغرب ارخص البلاد اسعاراً ، واكثرها خيرات ، واعظمها مرافق وفوائد . ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفاً الى شرفها ، وفضلاً الى فضلها ، بامامة مولانا أمير المؤمنين ، الذي مد ظلال الامن في اقطارها واطلع شمس العدل في ارجائها ، وافاض سحاب الاحسان في باديتها وحاضرتها ، وطهرها من المفسدين ، واقام بها رسوم الدنيا والدين . وانا اذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته ، واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته الجارية ، ورفع المظالم . »^١

من افعال السودان

« فمن افعالهم الحسنة قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه . وسلطانهم لا

١ - نفس المكان ج ٤ ص ٣٣٢ - ٣٣٧ .

يسامح احداً في شيء منه . ومنها شمول الامن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ، ولو كان القناطير المقنطرة ، انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه . ومنها مواظبتهم على الصلوات والتزامهم لها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . واذا كان يوم الجمعة ولم يبيكر الانسان الى المسجد ، لم يجذ ابن يصلي لكثرة الزحام . ومن عاداتهم أن يبعث كل انسان غلامه بسجاده فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد . وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة . ولو لم يكن لأحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة .

« ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يعملون لأولادهم القيود ، اذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه . ولقد دخلت على القاضي يوم العيد ، وأولاده مقيدون ، فقلت : له « الا تسرحهم ؟ » فقال « لا افعل حتى يحفظوا القرآن » . ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفي رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معي : « ما فعل هذا ، أقتل ؟ » ففهم عني الشاب وضحك . وقيل لي : « انما قيد حتى يحفظ القرآن . »^١



١ - نفس المكان ج ٤ ص ٤٢١ - ٤٢٣ .

الفصل الخامس عشر

ابن فضلان في بلاد الصقالبة

نحن في بغداد ، في خلافة أمير المؤمنين المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) وبغداد طبقت شهرتها الآفاق ، ودار الخلافة العباسية كعبة القصاد . فالوفود إليها تترى ، والبعثات منها كثيرة . وهؤلاء هم الصقالبة ، وعاصمتهم على مقربة من قازان ، ينتدبون منهم من يقصد الى عاصمة الخلافة لينوب عن ملكهم في الطلب الى أمير المؤمنين ان يرسل اليهم بعثة تفقه الملك وقومه في الدين وتعرفهم شرائع الاسلام ، وتنفش لهم مسجداً وتبني لهم حصناً يتحصن فيه الملوك من مخالفينهم وهم ملوك الخزر .

وما كان في وسع الخليفة ان يرفض مثل هذا الطلب ، وجاراه في ذلك وزيره حامد بن العباس . فرأى الاثنان في مثل هذا التحالف خيراً ، فانتدبا وفداً للقيام بما طلبه ملك الصقالبة . وكان الوفد فيه أربعة رجال رسميين (غير الحاشية) وكان فيه احمد بن فضلان الذي عهد اليه برئاسة الوفد . وهو الذي يقول عن نفسه « فندبت انا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي اليه والاشراف على الفقهاء والمعلمين »^١.

١ - ابن فضلان ، احمد ، « رسالة ابن فضلان » ، دمشق ، الجمع العلمي العربي ، ١٩٥٩ س ٦٩ .

بدأ الوفد رحلته من بغداد في ١١ صفر ١٣٠٩ (٢١ حزيران - يونيو - ١٩٢١) وقضى احد عشر شهراً حتى وصل الى ديار الصقالبه على الفولغا في ١٢ محرم ١٣١٠ (١١ ايار - مايو - ١٩٢٢) وكانت الطريق من بغداد الى نيسابور فبخارى فخوارزم فالجرجانية على نهر جيحون ثم توغل الوفد في بلاد الصقالبه على الفولغا .

واذا كان الوفد قد لقي المصاعب الكثيرة من البرد والتعرض للكيد والنهب وما الى ذلك ، واذا كان ملك الصقالبه قد نعم بصحبة افراد الوفد اذ هبطوا عليه فقدموا بين يديه الهدايا ، واثالوه مراده بما طلب من الخليفة ، فاننا ننعم نحن اليوم ، وقد مر على الرحلة الف ويزيد من السنين ، بوصف دقيق طريف بأسلوب متمع شائق ، لهذا الاختبار الفريد يقوم به ابن فضلان ثم يدونه لنا لنفيد منه . فنحن « نرى ان الرجل قد صور الرحلة والعادات والتقاليد والحياة والاخلاق في ذلك العصر ، في مختلف المناطق التي مر بها او قام فيها ، فلم يغفل كثيراً مما يحتاج اليه ذلك الزمان ، وكان دقيق الملاحظة ، يسجل اكثر ما يرى السائح ، وينقل اليه ما يدور خلال السياحه من حوار ودسائس ويصف الحكم والأمراء ورجال الشعب على حد سواء ويرسم الهيئات والوجوه على ايجاز الرسالة وقصرها »^٣ على ما يقول الدكتور محمد سامي الدهان محقق رسالة ابن فضلان في المقدمة .

وقد حفظ لنا ياقوت في غير مكان من « معجم البلدان » مقتطفات من هذه الرحلة وعني المستشرقون بها كثيراً لانها احد المصادر النادرة للتعريف بالحالة في تلك المنطقة المنعزلة عن العالم نسبياً يومها . لكن قراء العربية اصبح الآن

١ - نفس المكان ص ٧٣ .

٢ - نفس المكان ص ١١٣ .

٣ - نفس المكان ، المقدمة ص ٣٠ .

برسهم ان يقرأوا النص محققاً ومطبوعاً بفضل الدكتور الدهان (دمشق ،
المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٩) .

ونحن نترك لابن فضلان التحدث عن بعض ما شاهد ورأى ، فذلك خير
من ان نلخص بعض ما قال فنسيء الى ادب الرجل .

في الجرجانية : « فاقنا » بالجرجانية ، اياماً ، وجد « نهر جيحون » من
اوله الى آخره . وكان سمك الجمد سبعة عشر شبراً ، وكانت الخيل والبغال
والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق . وهو ثابت لا يتخلخل . فاقام
على ذلك ثلاثة اشهر . فرأينا بلداً ما ظننا الا ان بابا من الزمهير قد فتح علينا
منه ، ولا يسقط فيه الثلج الا ومعه ريح عاصف شديدة . واذا اتحف الرجل
من اهله صاحبه ، واراد برّه قال له : « تعال الي حتى نتحدث فان عندي ناراً
طيبة » ولقد رأيت لهواء بردها بان السوق بها والشوارع لتخلو حتى
يطوف الانسان اكثر الشوارع والاسواق ، فلا يجد احداً ولا يستقبله انسان .
ولقد كنت اخرج من الحمام ، فاذا دخلت الى البيت نظرت الى الحيتي وهي قطعة
واحدة من الثلج حتى كنت ادنيها الى النار . ولقد كنت انام في بيت جوف
بيت ، وفيه قبة لبود تركية وانا مدثر بالاكسية والفري ، فربما التصق خدي
على المخدة . ١

« بين الغزية : فلما قطعناه (جبلاً عظيماً كثير الحجارة) ، افضينا الى قبيلة
من الاتراك يعرفون بالغزية . واذا هم بادية ، لهم بيوت شعر ، يحلون ويرتحلون ،
ترى منهم الأبيات في مكان ، ومثلها في مكان آخر ، على عمل البادية وتنقلهم ،
واذا هم في شقاء وليس يعرفون الزنا . ومن ظهروا منه على شيء من فعله
شقتوه بنصفين . وذلك انهم يجمعون بين اغصان شجرتين ، ثم يشدونه
بالاغصان ، ويرسلون الشجرتين فينشق الذي شد اليها واذا اراد الرجل

منهم الرحيل وقد قام عليه شيء من جماله ودوابه او احتاج الى مال ترك ما قد قام عند صديقه التركي ، واخذ من جماله ودوابه وماله حاجته ، ورحل . فاذا عاد من الوجه الذي يقصده قضاء ماله ، ورد اليه جماله ودوابه . »

عند الصقالبة : بعد وصول الوفد الى ملك الصقالبة واراحتهم قليلاً وجه اليهم الدعوة فقال ابن فضلان يصف ذلك : « فلما كان بعد ساعة وجّه الينا ، فدخلنا اليه ، وهو في قبته ، والملك عن يمينه . وامرنا ان نجلس عن يساره ، واذا اولاده جلوس بين يديه ، وهو وحده على سرير مغطى بالديباج الرومي ، فدعا بالمائدة فقدمت ، وعليها اللحم المشوي وحده . فابتدأ هو فأخذ سكيناً وقطع لقمة وأكلها ، وثانية ، وثالثة ، ثم احتز قطعة دفعها الى « سوسن » الرسول . فلما تناووها جاءت مائدة صغيرة فجعلت بين يديه . وكذلك الرسم ، لا يمد احد يده الى الاكل حتى يناوله الملك لقمة ، فساعة يتناولها قد جاءت مائدة . ثم ناولني فجاءني مائدة (ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة . ثم ناولها الملك الثاني فجاءته مائدة) . ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة ، ناول اولاده فجاءتهم الموائد . واكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها احد ، ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً ، فاذا فرغ من الطعام ، حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته الى منزله . »^٢

ودون ابن فضلان بعض العجائب التي لفتت نظره في ديار الصقالبة . فمن ذلك وصفه لليل والنهار . قال « ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً واذا انه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار . فلما كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء فلم أر من الكواكب الا عدداً يسيراً ظننت انه نحو الخمسة عشر كوكباً متفرقة . واذا الشفق الاحمر

١ - نفس المكان ص ٩١ - ٩٥ .

٢ - نفس المكان ص ١١٥ - ١١٦ .

الذي قبل المغرب لا يغيب بته . واذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من اكثر من غلوة سهم ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شيء فيه من الارض والجبال وكل شيء ينظر الانسان اليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى ، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء . وعرفني اهل البلد انه اذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار ، وعاد النهار في قصر الليل .^١

وتحدث عن بغض ما كلهم فقال في ذلك « وليس لهم زيت ، ولا شيرج ، ولا دهن بته ؟ وانما يقيمون مقام هذه الادهان السمك ، فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفراً . ويعملون من الشعير حساء يحسونه الجوارى والغلمان . وربما طبخوا الشعير باللحم ، فأكل الموالي اللحم واطعموا الجوارى الشعير الا ان يكون رأس تيس فيطعم من اللحم . »^٢

ووصف ابن فضلان ارض الروسية وبلاد الخزر وشعوبها ورسوم الملوك . فيما قاله عن معاملة الروسيين للمرضى « واذا مرض منهم الواحد (ضربوا له خيمة) ناحية عنهم ، وطرحوه فيها ، وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء ، ولا يقربونه ولا يكلمونه ، (بل لا يتعاهدونه) في كل ايام مرضه لا سيما ان كان ضعيفاً او مملوكاً . فان برىء وقام رجع اليهم ، وان مات احرقوه ، فان كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير . »^٣

وقال ابن فضلان عن احدى مدن ملك الخزر « وملك الخزر مدينة عظيمة على « نهر اتل » ، وهي جانبان : في احد الجانبين المسلمون ؛ وفي الجانب الآخر الملك واصحابه . وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له خز ، وهو مسلم . واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين اليها في التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في امورهم ولا يقضي بينهم غيره . »^٤

١ - نفس المكان ص ١٢٥ - ١٢٧ .

٢ - نفس المكان ص ١٣٠ .

٣ - نفس المكان ص ١٥٤ - ١٥٥ .

٤ - نفس المكان ص ١٧٢ .

الفصل السادس عشر

التجاني النونسي

في اواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، وفي سنة ١٢٣٦ على التحقيق ، اقام الحفصيون دولتهم في تونس وغرب الجزائر ، وكان ابو زكريا هو مؤسس هذه الدولة . وقد دامت دولة الحفصيين الى اواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، الا ان ايامها لم تكن كلها هينة لينة . فقد تنازعت الدولة الأهواء ، وتضاربت فيها المصالح ، وتقسمتها الحروب الأهلية في فترة من تاريخها . وجاءت اول هذه الخصومات في اواخر القرن الثالث عشر الى اوائل القرن الرابع عشر (١٢٧٧ - ١٣١٨) . وهي الفترة التي تعيننا بشكل خاص اذ فيها كان صاحبنا ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجاني في فترة نضجه وازدهاره .

فقد ولد عبد الله بين سنتي ٦٧٠ و ٦٧٥ هـ (١٢٧٢ - ١٢٧٦ للميلاد) في مدينة تونس ، عاصمة الحفصيين ودار ملكهم . والظاهر ان اسرته هبطت المدينة مع جيش الموحدين في اواسط القرن السادس للهجرة . وقد كان ابوه وجده وابناء عمومته من اهل العلم والأدب والفقه . واذن فقد نشأ ابو محمد في بيت عرف للعلم قيمته ، ونشئ في اكناف ابيه الذي كان احد شيوخه . وكانت للأسرة مكتبة حافلة بأنواع العلوم من الفقه الى الأدب الى الشعر الى التاريخ وما

الى ذلك. فضلا عن ان تونس نفسها كانت موئل العلم والأدب ؛ كما قال العبدري الرحالة الذي زارها في ايام صاحبنا عبد الله .

واذن فقد اتيح لعبد الله التجاني كل ما يحتاجه المرء للنبوغ من ظروف واحوال وفرص وهمة عالية وجهد لا يفتر ورغبة في العلم وصبر واثابة كانا خليقين بان يبوآه المركز اللائق بسليل الأدياء والعلماء . وادرك ابو عصيدة ، احد سلاطين بني حفص ، في مسهل القرن الثامن . وكان على ادارة الدولة يومها شيخ الموحدين الأمير ابو يحيى بن اللحيني ، فاختص التجاني بعنايته واختاره كاتباً خاصاً . ثم اراد بن اللحيني ان يتفقد شؤون الدولة ، ولعله كان يريد الحج ، وان لم يفصح عن ذلك مقدماً ، فأخذ عبد الله معه وجعله المشرف على رسائله .

(٢)

خرج ابن اللحيني من تونس في جمعه الكبير وبرفقته عبد الله المذكور في اواسط جمادى الأولى سنة ٧٠٦ هـ (اواخر ١٣٠٦ م)^٢ . وبعد ان وصل الجمع الى طرابلس واقاموا فيها مدة استمر ابن اللحيني في اتجاهه شرقاً لاداء فريضة الحج ، وعاد التجاني الى تونس فوصلها في صفر سنة ٧٠٨ هـ أي انه غاب عن بلده سنتين وثمانية اشهر ويزيد .

وقبل ان نتحدث عن الرحلة ذاتها نسمح لأنفسنا ان نستبق الحوادث قليلا لنضع الاطار التاريخي لما تبقى من حياة الرجلين ابن اللحيني والتجاني . ذلك ان ابن اللحيني عاد من الحج لكنه لم يرجع الى تونس بسبب ما كان قد عمها من الفوضى والاضطراب ، بل استقر في طرابلس الغرب يرقب الأمور ، فلما ادرك ان الفرصة اصبحت مواتية ، هاجم تونس في رجب ٧١١ (١٣١١) ، واحتل

١ - راجع فوق الفصل الثاني عشر .

٢ - التجاني ، ابو احمد عبد الله ، رحلة التجاني ، تونس ، المطبعة الرسمية ١٩٥٨ ص ٤ .

٣ - نفس المكان ص ٣٩٣ .

البلد ، وبويع له بالسلطنة ، وجلس على العرش الحفصي ٧١١ - ٧١٧ (١٣١١ - ١٣١٧) . فلما وجد انه لا يمكنه السير بالأمر الى نهايته ترك البلاد والسلطان ، وارتحل الى الاسكندرية حيث مات سنة ٧٢٧ (١٣٢٦) .

ومع ان ابنه تولى الأمر بعده فانه تعرض في السنة التالية لهجوم عنيف من ابي يحيى ابي بكر الذي انتزع السلطنة والسلطان وحكم دولة الحفصيين من ٧١٨ - ٧٤٧ (١٣١٨ - ١٣٤٦) واعاد الى البلاد وحدتها .

لما تولى ابن اللحياني الملك ولي التجاني خطة العلامة الكبرى اي رئاسة دواوين رسائله .

يقول العلامة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب : « ولا مرأ في ان عبد الله التجاني باشر ما بقي على عاتقه من المهمات احسن مباشرة طيلة اقامة هذا السلطان في الملك ... ولم يزل صاحبنا يخدم بعمله وعلمه وقلمه البلاد ويؤلف بين الفينة والفينة التصانيف المفيدة ، الى ان عقد مخدمه العزم على مغادرة تونس . »^١ ويرى مؤرخنا الكبير ان التجاني وغيره من افراد أسرته لقوا حتفهم قتلاً على اثر انتصار ابي يحيى ابو بكر سنة ٧١٨ (١٣١٨) .

وللتجاني مؤلفات عدة اكثرها مفقود وهي في الفقه والأدب والتاريخ والتراجم والحديث والمراسلات (مثل مراسلاته مع ابن شبرين) والعلامة وحق في الأدب النسائي .

(٣)

هذه المدة التي قضاها التجاني في صحبة ابن اللحياني في رحلته كانت خيراً وبركة على الأدب والتاريخ . فقد كان التجاني يقيد اخبارها ويدون آثارها ويسجل مشاهداته ويعبر عن انطباعاته ، بلغة انيقة وديباجة مشرقة واسلوب

١ - نفس المكان ص ٢٧ م - ٢٨ م .

جلي وبيان طلي . وهو ، فضلاً عن ذلك ، يهتم بالتاريخ ، فاذا حدثنا عن المهديّة استعرض تاريخها وتاريخ العبيديين فيها . وكان مغرمّاً بتراجم اهل الأدب ، ولذلك فهو يتقصّى اخبارهم وينبش عن آثارهم ويدون اشعارهم . بل ان الرجل فعل اكثر من ذلك فقد دوّن في « تقييده » ، كما سمى اخبار رحلته ، ما كان يرد عليه من الرسائل المنظوم منها والمنثور ، وما يرد عليها به من نثر او شعر . ولذلك فقد كان هذا التقييد ترجمة وتاريخاً ورحلة وادباً وانساباً للقبائل . انه سحر حلال .

اما طريق الرحلة فقد كانت على ما يلي ، خرج الجمع من تونس الحاضرة الى سوسة ، ثم اتخذ القوم طريقاً داخلية حملتهم الى الجبل ثم الى سفاقس فقابس . ومن هنـه زارت الجماعة توزر وعادت الى قابس فتجفت حيث عرجت على جزيرة جربة . ورجعت الى الداخل الى غمراسن فزوارة فصبرة فطرابلس فطراقة . وكانت طريق العودة اقرب الى الساحل بحيث لم يعرج التجاني على اي من الأماكن الداخلية (راجع الخارطة) .

قلنا ان التجاني كان يدون ما يرد اليه من الرسائل وما يبعث به ردّاً او بدءاً . ولعلّ القارئ الكريم يقبل منا مثلاً واحداً من هذه المساجلات والمخاطبات . فقد روى التجاني انه اثناء اقامته بتوزر وصلت اليه رسالة من ابن شبرين ، بعضها شعر وبعضها نثر . وقد اورد نص الرسالة في « تقييده » ولكن بعد ان عرف قارئه بابن شبرين . قال « وفي اثناء اقامتنا بتوزر وصلت إلي قصيدة من الفقيه الأجل الأديب ابي بكر محمد بن احمد بن شبرين الجذامي السبقي من مستقره غرناطة . وهذا الرجل من اعظم من رأيت تحقيقاً ، واحسنه في النظم والنثر طريقاً . وقد كنت اجتمعت به بتونس ووصل اليـنا في الخامس لذي القعدة من عام ثلاثة وسبعائة ، وكان في نيته التوجه الى الحج ، فلم يقض له ذلك . فأقام بتونس مدة ثم ارتحل عنها عائداً الى وطنه سبتة ... فاتفق بعد وصوله الى بلاده من اخذ البلد ما اتفق ، وطرق اهله من التشيت بسبب

ذلك ما طرق فكان ... من انتقل الى غرناطة . ١ ثم يروي القصيدة ومنها:

« يا نسمة سحبت فضول ذيوها ما بين ورد بالعذيب ونرجس
والورق قد صدحت على افنانها والأرض قد لبست ثياب السندس
حطي رحال تحيقي في معهد بين الجوانح منه عهد ما نسي
والحي من تيجان فاشرح عندهم فرط اشتياقي نحو ذاك المجلس »^٢
وكان مما جاء في قصيدة التجاني جواباً على ذلك قوله ، وفيه تعزية عما حلَّ
به وبأهله وببلده :

« امر من الله لا مرد له لم يبق كهلاً منهم ولا يفعأ
وخدعة تم امرها فمضت وكم سديد الآراء قد خدعا
هاك سلامي على البعاد ابا بكر فقلبي إليك قد نزعا
وثق بود ادين فيك به ملتزماً منه كل ما شرعا
ان حال خل عن المودة او اجاب داعي السلو حين دعا
فاعلم باني والصدق من شيمي ممن رأى حفظ عهده ورعا
وانني ما قطعت ذكرك بل ما زلت للشكر فيك منقطعاً »^٣

ولما كان عبد الله التجاني في قابس وصلت اليه كتب من ابيه ، وقد صدر
احدها بالأبيات التالية ، التي تدل على صلة الود بين الابن والأب :

« حملتم القلب اذ جد الرحيل بكم من الصباية ما لا تحمل الإبل
فلو سلكتم سبيل الحزم ما عجزت اذ ذاك مني على دفع النوى الحيل

١ - نفس المكان ص ١٦٤ .

٢ - نفس المكان ص ١٦٥ .

٣ - نفس المكان ص ١٧٠ .

لكن عراني ذهول يوم بينكم كما يكابد من احبابه رحلوا
فالله يجمع منا الشمل عن عجل فالخير اجل ما في نيله العجل^١

(٤)

تقييد التجاني ، كما يحب المؤلف ان يسمي رحلته ، هي ادب وتاريخ
وجغرافية ووصف المجتمع الذي رآه وخالطه . وقد صيغت ، كما قلنا من قبل ،
باسلوب جميل وعبرة انيقة ، بحيث انك تحس كأن الأشياء التي يتحدث عنها
« تتقلب » امامك . ولعله من المؤسف ان التجاني لم يخلف لنا وصفاً لتونس ،
ولكن من الطبيعي ان يقيد الرحالة ما يمر به خارج منطقة عيشه وسكنه .

وقد نال صفاقس وصف لطيف اذ قال عنها « ووصلنا الى صفاقس ظهرأ
فرأيت مدينة حاضرة ذات سورين يمشي الراكب بينها ويضرب البحر في الخارج
منها ، وكانت بها قبل غابة زيتون ملاصقة لسورها فافسدها العرب فليس
بخارجها الآن شجرة قائمة وفواكهها مجلوبة اليها من قابس وماؤها شراب لا يساغ
ولمّا يعتمدون في شربهم على ما يدخرونه من مياه الأمطار ، ويصطاد بها من
السماك أنواع تفوت الاحياء وبيحرها يوجد صوف البحر الذي يعمل منه
التياب الرفيعة الملوكية وربما وجد في بحرها صدف يشتمل على لؤلؤ صغير الحب
ومرساها مرسى حسن ميت الماء والماء يمد به ويجزر عنه كل يوم ، فاذا جزر
استوت السفن على الحماة واذا مد عامت . »^٢

اما قابس فتتال من قلمه صورة لطيفة ، يقول : « واصبحنا يوم الاثنين مرتحلين
فاشرفنا على غابة قابس ، ووصلنا اليها ضحى فراينا بلداً قد استوفى المحاسن
واستغرقها ، واذكر بمنظره الانضر ، وورقها الاخضر ، جنة الخلد واستبرقها ،

١ - نفس المكان ص ١١٧ .

٢ - نفس المكان ص ٦٨ .

وقد احدثت غابته من جميع جهاته ، وبهذه الغابة من الجواسق ، والنخل المتناسق ، ما يستوقف الطرف ، ويستوفي الحس ، والظرف ، ويحقق ما قيل ان قابس جنة الدنيا ، وانها دمشق الصغرى ، وهي مدينة بحرية صحراوية فارت الصحراء متصلة بها ، والبحر على ثلاثة اميال منها .^١

ولعل جزيرة جربة لم يصفها احد من رحالي العصور الوسطى واول العصور الحديثة ، بمثل الدقة التي وصفها بها التجاني . قال عنها : « جزيرة جربة من اعظم الجزائر خطراً ، واشهرها في سالف الزمان عمارة بونكر » وطولها من المغرب الى المشرق ستون ميلاً وأما عرضها فمختلف ، فعرض الرأس الغربي منها عشرون ميلاً ، وهو الطرف الواسع . ومن هذا الموضع الى جزيرة قرقة في البحر ستون ميلاً ؛ وعرض الرأس الشرقي منها خمسة عشر ميلاً وهو اضيق مكان بها ، وهي ارض كريمة المزارع ، غنية المشارع ، واكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين . وبها اصناف كثيرة من سائر الفواكه ، الا ان هذه هي اكثر ثمرها وعليها مدار غلاتها ، وغيرها من كرائم الارضين لا يقار بها على الجملة في ثمارها اويساويها ، وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير ، لما يوجد بها منه صفاء وجفافاً وطيب مذاق وعطارة استنشاق ، ورائحته توجد من المسافة المديدة ، والاميال العديدة ، وكان من شجره بهذه الجزيرة قبل هذا كثير ، ثم قل الآن بسبب ان النصراني يتحفون به ملوكهم وكبارهم دون تعويض لأربابه عنه ؛ فرأى اهل الجزيرة ان غيره من الشجر اعود بالفائدة عليهم فقطعوا اكثره ، واختصت هذه الجزيرة ايضاً دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الأصواف التي ليس بافريقية لما ينسج من اثوابها نظير ، وذلك معلوم من امرها شهر .

واكثر مساكن اهلها اخصاص من النخيل ، يجعل كل واحد منهم في ارضه

١ - نفس المكان ص ٨٦ - ٨٧ .

واحداً أو اثنين أو أكثر من ذلك ثم يسكنه بعياله ، وليس بها بناء قائم إلا دور قليلة .^١

وقد ذكرنا من قبل ان التجاني اوغل مع ابن اللحياني في داخل القطر التونسي . ونكتفي بنقل ما جاء في رحلته عن توزر . يقول الرحالة : « توزر هي قاعدة البلاد الجريدية وليس في بلاد الجريد غابة اكبر منها . ولا اكثر مياهاً ، واصل مياهها من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في وادي متسع وتلتصع منه جداول كثيرة ، وتتفرع عن كل جدول منها مذانب يقسمونها بينهم على املاك لهم مقررة مقاسم من المياه معروفة ، ولهم على قسمها اماناء من ذوي الصلاح فيهم يقسمونها على الساعات من النهار والليل بحساب لهم في ذلك معروف ، وامر مقرر مألوف ، وعلى ذلك الماء أرحاء كثيرة منصوبة ، ومن العجب ان هذا الوادي يحتمل ما يحتمل من غشاء او غيره ، فاذا انتهى الى المقسم افترق هنالك اجزاء بالسوية على عدد المسارب فمضى كل قسم منها الى مسرب منها ، وهذا مما شاهدته فيها عياناً . وكثير من اهلها انما يسكنون بغابتها ولا مناسبة بين مباني الغابة ومباني داخل البلد فان مباني الغابة اضخم واحسن . وبداخل البلد جامعان للخطبة وحمام واحد ومتفرجهم بموضع يعرفونه بباب المنشر ، وهو من احسن المتفرجات لأن مجتمع الماء هنالك ومنه يتفرع كما تقدم ، ويجمع به القصارون فينشرون هنالك من الثياب الملونة والأمتعة الموشية ما يعمه على كبره فيخيّل للناظر انه روض تفتحت ازهاره ، واطردت انهاره ، وليس بتوزر احسن من هذا الموضع وهو خارج عن غابتها ، والغابة ملاصقة لسور المدينة فهي بذلك تمت حصانتها .^٢

١ - نفس المكان ص ١٢١ - ١٢٣ .

٢ - نفس المكان ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٥)

قضى التجاني سنة ونصف السنة في طرابلس الغرب . فأتاح له ذلك الفرصة للتعرف الى المدينة واهلها وعلمائها ومباهجها . ولذلك فهو يتحدث عنها بشيء كثير من الحرارة والحب . وما نحن اولا نسمح لأنفسنا بان ننقل عنها اكثر مما نقلنا عن غيرها . فالمهم ، بالنسبة الى القارئ ، هو ان يتعرف الى الأماكن ويتذوقها تذوق الرحالة نفسه .

وصل التجاني طرابلس فقال يصف اثر ذلك في نفسه « ولما توجهنا الى طرابلس واشرفنا عليها كاد بياضها مع شعاع الشمس يعشي الأبصار فعرفت صدق تسميتهم بها بالمدينة البيضاء : وخرج جميع اهلها مظهزين للاستقبال رافعين اصواتهم بالدعاء ، وتخلى والي البلد اذ ذاك عن موضع سكنه وهو قصبة البلد فنزلنا بها ، ورأيت آثار الضخامة بادية على هذه القصبة ؛ غير ان الخراب قد تمكن منها ، وقد باع الولاة اكثرها فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن انما استخرجت منها ، ولها رحبتان متسعتان ، وفي الخارج منها المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة لأن عشرة من أشياخ البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة فيدبرون امر البلد وذلك قبل تملك الموحدين لها فلما تملكوها ارتفع ذلك الرسم ، وزال عن المسجد ذلك الاسم . »^١ ودخل الحمام وجال في الشوارع واطل على البحر فقال في ذلك « ودخلت حمام البلد وهو المجاور للقصبة فرأيت حماماً صغير الساحة الا انه قد بلغ من الحسن غايته ، وتجاوز من الطرف نهايته ، وكان هذا الحمام من منافع القصبة فبيع من جملة ما بيع منها ، وهو الآن محبس على بعض المساجد وبالبلد حمامان آخران غيره الا أنهما في الحسن دونه ، ورأيت شوارعها فلم أر أكثر منها نظافة ولا أحسن اتساعاً واستقامة ، وذلك ان اكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من اولها الى آخرها على هيئة شطرنجية ... ورأيت بسورها من الاعتناء

١ - نفس المكان ص ٢٣٧ .

واحتفال البناء ، ما لم اره لمدينة سواها ، وسبب ذلك ان لأهلها حظاً من مجباها ، يصرفونه في رم سورها ، وما تحتاج اليه من مهم امورها ، فهم لا يزالون ابدأ يحددون البناء فيه ويتداركون تلاشيه بتلافيه .^١

« وبخارج باب البحر منها منظر من انزه المناظر مشرف على الساحل حيث مرسى المدينة ، وهو مرسى حسن متسع تقرب المراكب فيه من البر وتصطف هنالك اصطفاف الجياد في اواريا .^٢

وتعرف التجاني الى مدارس طرابلس وعلمائها وشاركهم في مجالسهم . ونتج عن ذلك ان وضع كتابين هما « تقييد على صحيح مسلم » و « تقييد على المسند الصحيح للبغاري » . وهما نحن اولاً نقدم الى القارىء الكريم وصفه لأحدى المدارس وحديثه عن واحد من العلماء الاعلام . « وبداخل البلد مدارس كثيرة واحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه ابي محمد عبد الحميد بن ابي البركات بن ابي الدنيا رحمه الله تعالى وذلك فيما بين سنة خمس وخمسين الى سنة ثمان وخمسين ، وهذه المدرسة من احسن المدارس وضعاً واطرفها صنعاً .^٣

اما العالم الذي يتحدث عنه فهو الامام الحافظ ، يقول : « والقائم برسم العلم في هذه البلدة في وقتنا هذا شيخنا الامام الحافظ ابو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبيد وهو رجل ليس من عمرو ولا زيد ، ناهيك من رجل قد نال من المعارف ما اشتهى ، وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى ، حضرت درسه بمسجد مجاور لداره فرأيت رجلاً متضلعاً من

١ - نفس المكان ص ٢٣٨ .

٢ - نفس المكان ص ٢٤٦ .

٣ - نفس المكان ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

العلم ذا كراً بالذهب ذكراً لا يجاريه فيه احد ، ولا تكاد مسألة من مسائله تشد عنه ، حسن العبارة ، مشاركا في علوم جمة ، وله اعتناء بحفظ كلام القرويين في المذهب من تحليل او تفسير او تفريق او تخريج . واعتماده في الاصول الدينية والفقهية على كلام الامام ابي المعالي ، وكلام الشيخ ابي حامد الغزالي ، وهو سبائي النسبة من ولد سبأ بن يسجب بن يعرب بن قحطان ، واخبرني ان مولده بطرابلس عام تسع وثلاثين وستائة ، واكثر استفادته على ما اخبرني على الفقيه القاضي ابي موسى عمران ابن موسى بن معمر الطرابلسي رحمه الله تعالى ، وليس له رحلة عن بلده الا الى الحج ، حج في عام ثلاثة وسبعائة .

« ولما حضرت درسه وتحققت مكانته المكنية في العلم احببت القراءة عليه مدة اقامتنا هنالك ، وطلب نخدمنا ان يكون ذلك بمحضر منه فلم يكن به من استعداد الشيخ لموضع سكننا فمعدنا مجلساً لذلك بالقصبة وفي مجلس الامر منها ، وطلب الحضور بذلك المجلس جماعة من اعيان الطلبة بالبلد فأذن لهم ، ورأينا ان يكون المقروء حديث خير الانام ، الذي هو الاصل لجميع الاحكام ، فابتدأت القراءة بلفظي لصحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى في غرة شهر شعبان من العام المذكور قراءة تفقه فيه ، وتدقيق للبحث في الفاظه الكريمة ومعانيه ، وقد كنت ابتدأت تقييد ما انتهت فيه بيننا المناظرة ، وافادته المحاضرة ، بما جاء كالاكال ، لكتاب « الاكال » ثم بعد ذلك في الشهر نفسه ابتدأت قراءة دولة اخرى من كتاب المسند الصحيح للإمام الحافظ ابي عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري رحمه الله ، وامتد في قراءتهما مدى ، قرىء فيه منها ما هو نور وهدي ، الى ان دعأ بنا داعي البين فاعجلت النقلة عن تمام الكتابين . »^١

• • •

١ - نفس المكان ٢٥٤ - ٢٥٦ .

هذا هو التجاني الرحالة العالم الأديب ، وهذه نماذج من رحلاته اقتبسناها
عن طبعة الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب التي نشرت بتونس سنة ١٩٥٨ باسم
« رحلة التجاني » .

القسم الثالث

تجارة الخيلج العربي

الفصل السابع عشر

(١) طريق البخور وطريق الحرير

طريق البخور :

كانت مصر وبين النهرين لها علاقات تجارية قوية مع بلاد العرب الجنوبية ، وخاصة مع اليمن ، منذ أزمنة متغلغلة في القدم . واليمن كانت نقطة الاتصال بين الهند ومصر مثلاً منذ حول القرن الخامس عشر ق . م . ان لم يكن قبل ذلك . والذي كان يجذب التجار المصريين وغيرهم الى اليمن نفسها هو البخور . ذلك ان البخور كان يستعمل في كل هيكل ومعبد في العالم القديم ، فكان وجوده ضروريا . وحضرموت هي البلاد الوحيدة في العالم القديم التي كانت تنتجه . فكان لزاماً على الناس ان يحصلوا عليه منها وكانت اليمن مركز هذه التجارة . ومنها تنتقل اما بطريق البحر الأحمر او بطريق الحجاز ومن ثم توزع في اقطار العالم القديم - مصر والعراق وسورية وآسية الصغرى والعالم اليوناني وايطالية وغيرها .

كانت ظفار (في حضرموت) المكان الذي تجمع فيه غلات البخور وتنقل عن طريق وادي حضرموت الى اليمن ، واليمن هي التي توزعه . وعلى طريق البخور هذه قامت دول اليمن الكبيرة ، واحدة بعد الاخرى - معين وسبأ وحير ، وعلى هذه الطريق ظهرت المدن الكبرى في الجنوب العربي لبلاد العرب .

١ - راجع لهؤلف ، « العالم القديم » ، يافا ، ١٩٤٦ ، ج ٢ ، ص ١٩٣ وما بعدها .

ولتتمكن من تصور الشراء الذي جلبته تجارة البخور للعرب ، يجب ان نعرف بعض الكميات التي كانت تنقل على هذه الطريق وتستهلك في معابد العالم القديم . فقد كان في هيكل القدس غرف مقدسة مخصصة لحزن البخور . ونعرف ان أمون ارسل اليه في سنة واحدة في القرن الثاني عشر ق . م . ما زنته ١٥٩ ، ٢ جرة و ٣٠٤ ، ٠٩٣ مكيال من البخور . وقد احرق كهنة بعل في بابل عشرة آلاف وزنة من البخور في السنة الواحدة . ولما نظم دارا الكبير امبراطوريته وعلاقاته مع التجار العرب حصته في العام الواحد الف وزنة من البخور . وقد ارسل الاسكندر الكبير خمسمئة وزنة منه من غزة لما احتلها الى معلمه هدية ! هذا واذا اضعنا الى ذلك الجنازات وما كان يحرق فيها من هذا البخور العربي ادر كنا مصدر هذه الثروة الكبيرة التي تمتعت اليمن بها .

على ان اليمن كانت ، فضلاً عن انها مركز للتجارة بالبخور ، مركز التجارة الهندية مع البحر الأبيض المتوسط ، وقد تقلبت هذه العلاقات التجارية تبعاً للدول التي كان من واجبها ان تشرف على البحر الأحمر وما اليه . فنحن نرى مثلاً انه لما استقر البطالسة في مصر ونظموا شؤونها وانشأوا لهم اسطولا في البحر الأحمر ، نشطت التجارة كثيراً ، وامتدت المنشآت التجارية المصرية الى الشاطئ الافريقي الصومالي والى جزيرة سوفطرى ، ومن هناك كان يحمل الى مصر العاج والعبيد والصدف . وكما نقل الهليديون من القبلة التي كانت عدة جيوشهم في معاركهم ! ومثل هذه المتاجر وغيرها حفر البطالسة التربة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر ، واصلحوا الطريق بين قفط (على النيل) وميناء برنيسي (على البحر الاحمر) . لكن لما ضعف شأن البطالسة اقلنت تجارة البحر الاحمر من ايديهم ، واقتصرت نقل المتاجر على طريق الحجاز البرية الى بطرا ومنها الى بقية الاسواق السورية وغيرها .

واخيراً احتل الرومان مصر ، واعاد اغسطس السلم الى العالم الروماني ، وحافظ خلفاؤه عليه . وادرك اغسطس قيمة البحر الاحمر في التجارة الرومانية الشرقية ، فارسل حملة الى بلاد العرب ، بقصد احتلال اليمن ، لكن الحملة

فشلت . ذلك ان اغسطس امر غالوس ، القائد العام في مصر ، بان يسير معه عشرة آلاف جندي ، وطلب من الانباط ان يمدوه بالف جندي وان يرشدوه في سيره . وكذلك امر اغسطس هيرودس ملك القدس ان يساعد غالوس في حملته واستعداداً . وقد تولى الوزير النبطي « سيلوس » مهمة التعمين والارشاد .

قامت الحملة من ارزينوي ، وهي قرب السويس الحديثة ، ونقل الجنود الى « لوكي كومي » على مقربة من ينبع ، اي عبر البحر الاحمر تقريباً . ومن هنا بدأوا سفراً برياً طويلاً الى مأرب ، والمسافة تقرب من الفين وخمسمئة كيلومتر ، في بلاد لا يعرف عنها شيء . وقد بدأ الجيش السير من لوكي كومي في ربيع سنة ٢٤ ق.م فلقى صعوبات كبيرة لقلة الماء ، واخيراً وصل الى نجران فحاصرها واحتلها ودمرها انتقاماً لنفسه مما اصابه في الطريق . ثم التقى الرومان بجيش عربي الى الجنوب من نجران فانتصروا عليه . ويروي بعض من ارخ للحملة ان الرومان احتلوا مدينتين ، لعلهما براقش والبيضاء الحديثتان . وترك غالوس هناك حاميته ثم سار الى مريما وحاصرها ستة ايام ، لكن الرومان اضطروا اخيراً الى الانسحاب ، فارتدوا على اعقابهم ، ولم يبلقوا مأرب ، ومريما تقع الى الجنوب الشرقي من مأرب . وهنا يبدو لنا ان نسأل انفسنا عن الخطة التي كان يتبعها غالوس لمهاجمة المدينة المقصودة . ولعلّ التفسير الوحيد لحركاته هو انه اراد ان يحيط باطراف اليمن قبل مهاجمة القلب . فكانت النتيجة الفشل بعد سفر دام ستة شهور .

والغريب ان غالوس عاد بنفس الطريق ، ولعل السبب هو انه لم يكن لديه سفن تمكنه من العودة بحراً . وعند حدود المملكة النبطية نقل جنده عبر البحر الاحمر الى القصير ومنها الى قفط فالاسكندرية .

وقد اتهم سيلوس الوزير النبطي بانه غرر عمداً لتظل التجارة بايدي العرب ، لذلك اعدم في رومة بعد الحملة بمدة .

على انه وان كان اغسطس فشل في امتلاك اليمن ، فان النظام الذي اعيد

الى مصر ادى الى انتعاش التجارة ، حتى اننا نجد ان سترابو يتحدث فيما بعد عن ميوس هرموس ، على البحر ، فيذكر ان مئة وعشرين سفينة سافرت منها في سنة واحدة الى الهند .

واحتفظ العرب باحتكارهم لطريق التجارة الى اواسط القرن الاول للميلاد ، لما اهدى هبالوس الى سر الرياح الموسمية ومواعيد هبوبها ، وعندئذ نفذ « الغربيون » الى مياه المحيط الهندي . لكن ذلك كان قليلا . وظلت تجارة البخور ، بأيدي العرب . واكتشاف سر الرياح الموسمية ادى الى تنظيم السفر مباشرة . ففي تموز كانت السفن تغلق من مصر ، فتصل الى المحيط الهندي ، والرياح الموسمية في اقوى هبوبها ، فتحملها الى الهند فتصل في شهر ايلول ، ويقضي التجار شهرين هناك لبيع البضائع وتجهيز السفن بالبضاعة الجديدة ، ويبحرون في تشرين الثاني فتنتقلهم الرياح الموسمية الشتوية الى عدن . وفي شهر شباط تكون المتاجر قد وصلت الى الاسكندرية .

وقد ترتب على هذا كله ان ازدادت كميات المتاجر المتبادلة بين الهند والعالم الروماني ، بحيث اصبح الكتاب الرومان ينعون على قومهم افراطهم في الاستمتاع بهذه الكماليات الغربية . واستمرت الزيادة الى اوائل القرن الثالث للميلاد ، اذ اضطربت شؤون الامبراطورية الداخلية فاختلفت تجارتها تبعا لذلك .

اما الموانى التي كانت على البحر الأحمر ، والتي كانت السفن تبحر منها وتعود اليها فهي ارزينوي (عند رأس خليج السويس) وميوس هرموس (في منتصف الشاطئ المصري) ، وتبعد سبعة ايام عن قفط (على النيل) ، والثالثة برنيسي وهي في طرف الولاية المصرية الجنوبي . هذه موانى مصر . اما الانباط فقد كان لهم ايلة (العقبة) ولوكي كومي . ومن هنا كانت تنقل المتاجر الى بطرا . وقد كانت هذه الطريق تغص بالمسافرين ، والقوافل التي تجتازها اقرب الى الجيوش ، من حيث ضخامتها ، منها الى التجار . والظاهر ان جماعة من الرومان كانوا يقيمون في بطرا . وبعد احتلال الرومان لدولة الانباط اقاموا

في لوكي حكومي موظفاً خاصاً يجمع الضرائب المدفوعة عن السفن التي تأتي الميناء .

هذه كلها موانئ الشمال ، اما في الجنوب فقد كان على الشاطئ الافريقي مدينة ادونيس حيث تحفظ منتوجات الحبشة واهمها العاج والجنود والاصداف والعبيد . وهنا كانت هذه تبادل بما تحمله السفن من قماش مصر وزجاجها وزيت سورية وخمورها وسيوف وادوات اخرى كثيرة تأتي من جهات مختلفة . واما الشاطئ العربي ففيه غنا ولعلها كانت اكبر الموانئ اهمية في هذه المنطقة وهناك « أوكليس » . اما خارج البحر الاحمر فقد كانت عدن اكبر الموانئ المعروفة حتى حضرموت .

اما جماع ما كان يتاجر به عن هذه الطريق ، التي سميناها طريق البخور لاهمية هذه التجارة ، فهو الزيوت والاقمشة واللاّء والجواهر والارز والبهارات والعاج والمحور والطيوب والاصداف والفيلة . هناك كانت تتبادل السفن احمالها واثقالها .

وقد كان من الطبيعي ان يتصل الغرب بالصين بمرأ عن طريق البحر الاحمر والمحيط الهندي لكن هذا جاء في اخريات القرن الثاني . واهم ما كان ينقل من الصين الى العالم الروماني هو الحرير ، لكن هذا كانت له طريق برية .

طريق الحرير : كانت التجارة البرية بين البحر المتوسط وشرقي آسية رائجة في العصر الهليني ، ولكنها تأخرت قليلاً في القرن الاول ق. م على ان استقرار امور الامبراطورية الرومانية في شرقي حوض البحر المتوسط اعاد الى التجارة سابق عزها . وقيام الدولة الفرثية والخصومة التي كانت بين ملوكها وابطاطرة رومة لم تمنع القوافل التجارية المحملة حريراً من الشرق ان تحتاز بلادها الواسعة لتببيع حمولتها في صور وبيروت ، بحيث زادت كمية التجارة

الشرقية الرومانية في القرنين الاول والثاني لليلاد زيادة كبيرة عن تجارة العصر الهليني .

ويرجع الفضل الى تجار فرثية في فتح طريق الحرير عبر تركستان واحتكار التجارة في هذا الصنف . وقد كان هؤلاء التجار قديرين دقيقين منظمين . وقد بنوا طرقا مكنتهم من نقل متاجرهم في مركبات بدل نقلها على ظهور الدواب ! والحرير كان المادة الصينية الرئيسية في الاتجار مع العالم الروماني ، اذ كان تسعة اعشار ما يستورده من الصين . فقد كان الحرير الخام وخيوطه والقماش الحريري ينقله التجار ان موانئ سورية (بيروت وصيدا وصور وغزة) حيث يعالج هناك بالاصبغة المختلفة ليصبح صالحا للاستعمال . أما السلع الاخرى التي كانت تأتي من الصين فتشمل الفراء والحديد ونباتات عقارية .

اما العالم الروماني فكان يبعث بمنتوجاته هو الآخر ، الى الصين والى الهند . وطريق الحرير هذه كانت نهايتها الغربية مدن سورية والعراق . وفي العراق كانت لها ثلاثة مراكز سلوقية وكتسيفون (المدائن) وفولوغسياس في جنوب العراق . وطريق الحرير كانت تبدأ من سلوقية (على دجلة) او المدائن ، وخاصة من هذه التي انشأها الملوك الفرثيون . والطريق كانت تمر ، بعد المدائن ، بجبال زغروس الى اكبتانا (همدان) ومرو وبكترا (بلخ) وسمرقند وكشغر . ثم تجتاز الطريق بلاد سريس او سكاى وهم قبائل شبه بدوية ، والبلاد هي التي تسمى اليوم تركستان . وهناك (سوق الحرير) . لكن الطريق كانت تتجه بعد ذلك مارة بمحوض تاريم ثم تخترق جنوباً في شرق حتى تصل « هسيان - فو » وهي بلاد الحرير .

والحد الفاصل في هذه الطريق الطويلة ، اي المكان الذي يلتقي فيه التاجر الصيني والتاجر الفرثي دون ان يحاول احدهما اجتيازه الى بلاد الآخر — هذا الحد الفاصل يقع عند مكان يسمى « برج الحجر » (وقد اتفق على انه طاشكرغان) ، بين كاشغر وسمرقند . هناك كان التجار الصينيون ينتظرون الفرثيين ، فيضعون

ما معهم من حرير خام او غزولات او اقمشة على ضفة النهر ويأتي الآخرون يحملون الحجارة الكريمة والكهرمان والمرجان. ولم يتبادل التجار كلمة واحدة، ولكن يختار كل ما يريد ويضع مقابله قيمته ثم ينسحب، حاملاً بضاعته الجديدة.

ورغم المحافظة الشديدة والبقطة التي كانت تبذل للاحتفاظ بهذه الطريق سرّاً للجماعات المعينة بها - كل في جهته، فقد تمكن رجلان من اجتياز الحدود المألوفة. اما الاول فصيني اسمه «كان ينغ» الذي انتدبه احد القواد الصينيين ليجمع له من المعلومات ما قد ييسر له افتتاح بلاد الفرثيين. فتمكن هذا من الحصول على معلومات دقيقة دونها في تقريره. فذكر مناطق البريد ومراكزه والمسافات والاجواء والمنتجات والمعادن. ووصل سورية وقال عن اهلها انهم امينون في معاملتهم. ونقل ما وصل اليه عن السفر البحري الى الهند، بطريق البحر الاحمر. وقد قام بسياحته في اواخر القرن الاول للميلاد.

واما الثاني فهو «ميس تتيانوس» وهو تاجر ثري سوري، وقد اراد ان يتعرف الى طريق الحرير هذه، فارسل، حول سنة ١٠٠ م، بعثة من الرجال المدربين للتعرف الى الطريق من «برج الحجر» في البامير الى «هسيان - فو» في الصين. فقامت البعثة بذلك وقطعت المسافة في سبعة اشهر، ورسمت لها خريطة وتركت وصفاً مسهباً.

لكن طريق الحرير ظلت وقفاً على التجار الذين تملك دولتهم ايران. لذلك حافظ عليها الساسانيون بعد الفرثيين، وكانت محاولة الاستيلاء عليها سبب خصومة عنيفة بين البيزنطيين، خلفاء الرومان، والساسانيين، خلفاء الفرثيين.

على ان بعض الحرير الصيني كان ينقل الى الهند ومن هناك يحمل الى العالم الروماني بطريق البحر الأحمر او الخليج الفارسي.

هاتان هما الطريقان الرئيسيان بين البحر المتوسط والشرق . اما الطريق
الشمالية من آسية الصغرى الى بحر قزوين فالصين فقد كانت قليلة الاستعمال .^١

١ - راجع للمؤلف العالم القديم الجزء الثاني (يافا ١٩٤٦) ص ١٩٣ وما بعدها .

الفصل الثامن عشر

الخليج العربي وتجارته

للخليج العربي تاريخ في التجارة طويل ، ولسنا نقصد ان نؤرخ له في هذا الفصل ، وجل ما نرمي اليه هو ان نتحدث عنه في فترة من تاريخه ازدهرت تجارتها فيها ازدهاراً كبيراً في العصور العربية الأولى .

يبدو من اشارات مقتضبة وردت هنا وهناك ان السفن الفارسية كانت ، في القرن الرابع للميلاد ، تنتقل من ميناء الأبلّة الى الموانئ الصينية ، وان بعض سفن الصين كانت تصل موانئ الخليج . وقد ورد في الطبري عن الأبلّة انها كانت قديماً « فرج الهند »^١ . ومن الطريف ورود اشارة الى القراصنة الهنود في الخليج نفسه وفي خليج عمان في تلك الأزمنة . ومن الواضح ان اهل البحرين وعمان كانت لهم سفن تمخر عباب البحار والمجاورة في ايام الرسول والخلفاء الراشدين .

على ان الازدهار الذي عرفه الخليج العربي في القرنين التاسع والعاشر للميلاد مدعاه للفسخ والزهو . ولذلك اسباب كثيرة منها ان الدولة العباسية ، التي قامت في اواسط القرن الثامن ، كانت بطبيعة الحال تتجه شرقاً اكثر من اتجاه

١ - الطبري ، ابو جعفر محمد ، « تاريخ الرسل والملوك » ، لندن ، بريل ، ١٨٧٩ ، ج ٤ ،

ص ٢٠١٦ ، ٢٠٢١ .

الدولة الأموية التي كانت تتطلع نحو البحر الأبيض المتوسط . ومنها ، على ما قاله الدكتور جورج حوراني ، في كتابه عن الأسفار البحرية العربية في المحيط الهندي^١ ، من ان استتباب الامن في الدولة الاسلامية من جهة ووجود دولة قوية في الصين ، هي اسرة تانغ ، واخرى في الاقطار الجنوبية المحاذية لها - كل هذا في القرون السابع والثامن والتاسع - قد ادى الى انتعاش في التبادل التجاري بين منطقتين كانت كل منهما بحاجة الى منتوجات الاخرى الطبيعية والصناعية .

ومن حسن الحظ ان المصادر التي بين ايدينا عن القرنين التاسع والعاشر كثيرة ، بحيث يمكن رسم صورة تكاد تكون صحيحة لما كانت عليه الحال في الخليج العربي في تلك الفترة . فقد خلف لنا الجغرافيون العرب مكتبة قيمة وضعت بين سنتي ٨٥٠ و ٩٨٥ للميلاد ، وكان من الاسماء اللامعة فيها ، على الترتيب الزمني ، ابن خردادبه واليعقوبي وابن الفقيه والاصطخري وابن حوقل والمسعودي والمقدسي . يضاف الى هؤلاء رجالون هم في الاصل تجار او قباطنة سفن خلفوا اخبارهم في مدونات هامة بين سنتي ٨٥٠ و ٩٥٠ ، منهم السيرافي وبزرغ .

والذي يمكن ان يؤخذ من دراسات الذين عنوا بتقصي اخبار اولئك وهؤلاء ان الخليج كان مسرحاً لتجارة رابحة وحركة نشيطة^٢ وان الموانئ على شواطئه كانت تنعم بالكثير من الخيرات . وها نحن اولاء نعرض على القراء بعض هذا الذي وصل اليه الباحثون ، مستفيدين من دراستهم ، مع الرجوع الى المصادر الاصلية ناقلين عنها ما قد يلذ ويفيد .

Hourani, George, Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and early Medieval Times, Princeton University Press 1951, p. 61.

Cathay and the Way Thither, Haklyut Society, 2nd series, vol. 38, 1915, pp. 89-93.

اما الموانئ الرئيسية على الخليج يوما يحاوره من خليج عمان فكانت سيراف
وعمان والبصرة . والظاهر ان سيراف كانت في الفترة التي نتحدث عنها الميناء
الذي تمر به متاجر فارس - صادراتها ووارداتها . « فهي الفضة العظيمة
لفارس ، وهي مدينة عظيمة ليس بها سوى الابنية شيء ... وليس بها ماء
يحمد ولا زرع ولا ضرع ، وهي اغنى بلاد فارس » فاما اهل سيراف
والسواحل فانهم يسرون في البحر حتى ربما غاب احدهم عامة عمره في البحر
ولقد بلغني ان رجلا من سيراف الف البحر حتى ذكر انه لم يخرج من السفينة
نحو من اربعين سنة وكان اذا قارب البر اخرج صاحبه بقضاء حوائجه في كل
مدينة يتجول من سفينته الى اخرى اذا انكسرت وتشعثت فاحتيج الى
اصلاحها ، وقد اعطوا من ذلك حظا جزيلا حتى ان احدهم يبلغ ملكه اربعة
آلاف ألف دينار وفي عصرنا قد بلغني ما هو اكثر من ذلك فتراه في لباسه لا يتميز
من اجيره . ٢

والقول بان سيراف هي بلدة غنية يشهد عليه ، بالاضافة الى ما ذكر ، ان
ابنتها ذات الطبقات العديدة كانت من خشب الساج الثمين . ويقول المقدسي
انها كانت « دهليز الصين ... وعلى الجملة ما رأيت في الاسلام اعجب من دورها
ولا احسن . وقد بنيت من خشب الساج والآجر ، شاهقة تشتري الدار الواحدة
بفوق المئة الف درهم . ٣

والبصرة تقع على شط العرب ، وتبعد عن البحر بعض الشيء . وعندما
نذكر البصرة يجب ان نذكر معها الابله وعبادان . فهذه الأماكن الثلاثة كانت
تعين سير السفن في رأس الخليج . « فالابله على دجلة ... عامرة كبيرة ارقق

١ - الاضطعري ، ص ٣٤ .

٢ - نفس المكان ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

٣ - المقدسي ، ص ٤٢٦ .

من البصرة وارحب . ١ وثمة بحر رقيق ويسمى هذا الموضع بالجرارة « وهي دخلة من البحر في البر بقرب من بلاد الابلّة ... ولهذا الجرارة اتخذت الخشبات في البحر مما يلي الابلّة وعبادان ، عليها اناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكراسي في جوف البحر خوفاً على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرها فتعطب فلا يكون لها خلاص . ٢ وقد تحدث الاصطخري عن هذه الجهة وعن الخشبات فقال « ويرق الماء حتى يخاف على السفن الكبار ان سلكته ان تجلس على الارض الا في وقت المد . وبهذا الموضع خشبات منصوبة قد بني عليها مرقب يسكنه ناظور يوقد بالليل ليهتدى به ويعلم به المدخل الى دجلة . ٣ والمكان الثالث عبادان ، وهذه المدينة تقوم على جزيرة صغيرة وهي ذات حصن صغير وكان فيها « رباطات وعباد صالحون ، واكثر اهلها يصنعون الحصر من الحلفاء . ٤ والماء بها ضيق والبحر عليها مطبق . والظاهر ان عبادان كانت في وقت من الأوقات مقراً للقرصان او متلصصة بالبحر ٥ ، كما سبهم العرب القدامى ، ثم اصبحت مقراً لحامية تدفع اذاهم عن المسافرين .

وكانت عمان احد المراكز الرئيسية التي تمر بها التجارة بين شرق افريقية والصين والخليج الى العراق وغيرها . وعمان ، على ما رواه ابن حوقل « ناحية ذات اقاليم مستقلة باهلها ، فسحة كثيرة النخل والفواكه من الموز والرومان والنبق ونحو ذلك . وقصبتها صحار وهي على البحر ، وبها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة ، وهي اعمر مدينة بعمان واكثرها مالا ، ولا يكاد يعرف على شط بحر فارس بجميع الاسلام مدينة اكثر عمارة ومالا من صحار . ٦ وجاء

-
- ١ - المقدسي ، ص ١١٨ .
 - ٢ - السعدي ، روج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .
 - ٣ - الاصطخري ، ص ٣٢ ، راجع ايضاً السعدي ، ج ١ ، ص ٣٣١ .
 - ٤ - المقدسي ، ص ١١٨ .
 - ٥ - ابن حوقل ، ص ٤٨ .
 - ٦ - نفس المكان ، ص ٣٨ .

المقدسي في اواخر القرن العاشر للميلاد يتم الصورة فقال « وصحار هي قصبة عمان وليس على بحر الصين اليوم بلد اجل منه ، عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات اسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر. دورهم من الآجر والساج ، شاهقة نفيسة دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثه اليمن . »

وهكذا فقد كانت الرحلة الى بحصار الصين او الى شرق افريقية تبدأ من الابله ، في منطقة البصرة ، وتجتاز عبادان ، بارشاد الخشبات والناطور وما الى ذلك ، مستفيدة من المد واورقاته . وفي سيراف كانت تجتمع السفن ايضا . وقد تحمل المتاجر في صغار السفن من البصرة الى سيراف ، حيث توضع في السفن الكبار ، فاذا انحدرت السفن في الخليج كان عليها ان تتجنب متلصصة البحرين وقطر وسقطرى وحتى الهند . ولذلك فان السفن كانت ، في اغلب الحالات ، تحمل النفاطين والمقاتلين . ويبدو ان اهل البصرة قاموا بحملة على القرصان في البحرين (٩١٢ م) لكنهم اخفقوا .

وللسفن ان تختار ، في سيرها نحو بحار الصين ، واحداً من طريقين . فهي اما ان تعرج على صحار ومسقط ، حيث تحمل البضائع وتتزود بالماء والمؤن ، ثم تقصد كولام (كويلون) في مالابار . اما الطريق الآخر فكان السير فيه محاذياً لشواطئ فارس ثم شواطئ الهند .

اما السير نحو شرق افريقية فكان اقصى ما تصل اليه مراكب المسلمين ، من اهل البصرة وعمان وسيراف ، هو مدغشقر . وكانت عدن المركز التجاري الكبير بين بلاد العرب وشرق افريقية .

وكانت الملاحة متيسرة في الخليج العربي ، وهو بحر فارس عند جغرافي

العرب ، في كل اوقات السنة ، اما بحر الهند فلا يركبه الناس عند هيجانه وظلمته وصعوبة مركبه .

اما ما كان ينقل من المتاجر على هذه السفن في هذه الرحلات الطويلة التي كانت تقتضي من الوقت سنة او ما الى ذلك ، فانه يشمل الاقمشة الحريرية والكافور والمسك والافاويه والعاج والحديد وقضبان النحاس .

هذه فترة كانت فيها التجارة ناجحة منتشرة ، وكانت فيه السفن تتجه شرقاً وغرباً ، وقد كانت سفن تصل موانئ الخليج^١ . لكن اضطراب امر الصين فيما بعد اوقف سيرها على ما يظهر . وهذا المسعودي يقول « بلاد كلة وهي النصف من طريق الصين او نحو ذلك واليه تنتهي مراكب اهل الاسلام من السرايين والعمانيين في هذا الوقت فيجتمعون مع من ورد من ارض الصين في مراكزهم ، وقد كان في بدء الزمان بخلاف ذلك ، وذلك ان مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف وساحل فارس وساحل البحرين والابلة والبصرة وكذلك كانت المراكب تختلف من المراضع المذكورة الى هناك ، فلما عدم العدل وفسدت النيات وكان من امر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعاً في هذا النصف ، ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة في مراكز الصينيين الى مدينة خانفو .^٢ »

ويظهر ان المسعودي الذي ركب الكثير من البحار كبحر الصين والروم والحزر واليمن ، والذي اصابته فيها من الاهوال ما لا يحصىه كثرة لم يشاهد أهول من بحر الزنج ، وهو البحر يركبه المسافرون من عمان وغيرها الى شرق افريقية .

وقد قال المسعودي في وصفه « وارباب المراكب من العمانيين يقطعون هذا البحر الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج ... والعمانيون ... من ارباب المراكب

Cathay, pp. 83-88. - ١

٢ - المسعودي ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

يزعمون ان هذا الخليج المعروف بالبربري ... وموجه عظيم كالجبال الشواقي
وانه موج اعمى يريدون بذلك انه يرتفع كارتفاع الجبال وينخفض كخفض ما
يكون من الاودية، لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد ككسر امواج سائر
البحار، ويزعمون انه موج مجنون وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من اهل
عمان عرب من الازد .^١

١ - نفس المكان، ج ١، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

الفصل التاسع عشر

الخليج العربي ورّحّالو العُصُور الوُسْطى

ما اكثر ما شغل الخليج العربي الجغرافيين والرحالين والتجار ، وقد وصلت
الينا أخبار الكثيرين من هؤلاء مدونة تدويناً صحيحاً صادقاً دقيقاً . وكما
نود ان نتحدث عن جميع هؤلاء ، وعن كل ما خلفوه . ولكن نحن مضطرون
الى الاجتزاء بالقليل من ذلك كله . والذي نأمل هو ان يكون في هذا الذي ننقله
ونتحدث عنه فائدة ومثمة .

وسنكتفي الآن بالحديث عن بعض الرحالين الذين مروا بالخليج في العصور
الوسطى وهم ناصري خسرو والمروزي وابن البلخي وبنيامين وياقوت وابن
بطوطة . وقد امتدت الفترة التي زار فيها هؤلاء الرحالون الخليج والبلاد المحيطة
به نحو ثلاثة قرون من ناصري خسرو في اواسط القرن الحادي عشر الى ابن
بطوطة في اواسط القرن الرابع عشر للميلاد . وبعض هذه الصور التي خلفها
لنا هؤلاء تنبض بالحياة ، خاصة وان الرحالة انفسهم يمثلون اتجاهات ونزعات
مختلفة . فناصري خسرو داعية والمروزي تغلب عليه النزعة الجغرافية والنظرة
الاقتصادية من حيث الدور الذي كانت تقوم به ديار جنوب شرق آسية وابن
البلخي وضع رسالة وصف فيها الجزء الجنوبي الغربي من ايران اسمها « فرس
نامه » وقد اتمها في اوائل القرن الثاني عشر وبنيامين رحالة تاجر . اما ياقوت

فهو رحالة معجمي ، وهو الذي وضع لنا هذا التراث الضخم المسمى معجم البلدان . وعندما نصل الى ابن بطوطة نجد العقل النشيط والقلم البليغ والوصف الأنيق . وان كنا نأسف لشيء فانتنا نأسف لان ابن جبير لم يزر تلك المناطق . ولذلك فلا مكان له في هذا الحديث .

قضى ناصري خسرو (اواسط القرن الحادي عشر) تسعة اشهر في الاحساء ، واتصل بالحياة فيها اتصالاً وثيقاً على ما يؤكد ، ولذلك يمكن القول بان الصورة التي تركها لنا صورة ذات قيمة . فهو يقول : « ولحسا مدينة في الصحراء ، ولبلوغها ، عن اي طريق ، ينبغي اجتياز صحراء واسعة . والبصرة أقرب البلاد الاسلامية التي بها سلطنة الى لحسا . وبينها خمسون ومائة فرسخ . ولم يقصد سلطان من البصرة لحسا ابداً .

« ولحسا مدينة وسواد ايضاً وبها قلعة ، ويحيط اربعة اسوار قوية متعاقبة من اللبن المحكم البناء بين كل اثنين منها ما يقرب من فرسخ . وفي المدينة عيون ماء عظيمة ، تكفي كل منها لادارة خمس سواق ، ويستهلك كل هذا الماء بها ، فلا يخرج منها . ووسط القلعة مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التي في المدن الكبيرة . وفيها اكثر من عشرين الف محارب ... »^١

« وكان لهم في ذلك الوقت ثلاثون الف عبد زنجي وحبشي ، يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين وهم لا يأخذون عشوراً من الرعية ، واذا افتقر انسان او استدان يتمددونه حتى يتيسر عمله ، واذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال الذي له . وكل غريب ينزل هذه المدينة وله صناعة ، يعطى ما يكفيه من المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عتد وآلات ويرد (الى الحكام) ما اخذ حين يشاء . واذا تخرب بيت او طاحوت احد الملاك ، ولم تكن لديه القدرة على الاصلاح ، أمروا جماعة من عبيدهم بأن يذهبوا اليه ويصلحوا

١ - ناصر خسرو « سفرنامه » ص ٩٢ .

المنزل او الطاحون . ولا يطلبون من الملك شيئاً . وفي لحسا مطاحن بملوكة
للسلطان ، تطحن الحبوب للرعية مجاناً ، ويدفع فيها السلطان نفقات اصلاحها
واجور الطحانين . ١

.... « وينسجون هناك فوطاً جميلة ويصدرونها للبصرة وغيرها » ٢
« وفي لحسا تباع لحوم الحيوانات كلها ، من ... بقر وخراف وغيرها ،
وتوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشتري ماذا يشتري »

« والبحر على مسيرة سبعة فراسخ من لحسا الى ناحية الشرق ، فاذا اجتازه
المسافر وجد البحرين ، وهي جزيرة طويلة خمسة عشر فرسخاً ، والبحرين
مدينة كبيرة أيضاً ، بها نخل كثير . ويستخرجون من هذا البحر اللؤلؤ ،
ولسلاطين لحسا نصف ما يستخرجه الغواصون منه . واذا سافر المسافر جنوب
لحسا يبلغ عمان ، وهي في بلاد العرب . وثلاثة جوانب منها صحراء
لا يمكن اجتيازها ... »

« وفي لحسا تمر كثير حق انهم يسمنون به المواشي ، ويأتي وقت يباع فيه
اكثر من الف منّ بدينار واحد . وحين يسير المسافر من لحسا الى الشمال سبعة
فراسخ يبلغ جهة القطيف وهي مدينة كبيرة بها نخل كثير . وقد ذهب امير
عربي الى ابواب لحسا ورابط هناك سنة واستولى على سور من اسوارها الاربعة
وشن عليها غارات كثيرة ولكنه لم ينل من اهلها شيئاً ... » ٣

وانتقل من الاحساء الى الشواطىء الشمالية والشمالية الشرقية من الخليج
فذكر اموراً لطيفة منها العناية الكبيرة التي كانت تبذل لارشاد الملاحين
ليتجنبوا الارتطام بقاع الماء الضحل هناك . فيقول « يتكون [المنار] من اربعة

١ - نفس المكان ص ٩٣ .

٢ - نفس المكان ص ٩٣ .

٣ - نفس المكان ص ٩٤ .

اعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجانيق . وهو مربع قاعدته متسعة وقته ضيقة ، ويرتفع عن سطح البحر اربعين ذراعاً ، وعلى قمته حجارة وقرميد مقامة على عمد من خشب كأنها شقف ومن فوقها أربعة عقود يقف بها الحراس . ويقول البعض ان الذي بنى الخشاب هذا تاجر كبير ، ويقول آخرون بل بناه احد الملوك . وكان الغرض منه شيئين : احدهما انه بني في جهة ضحلة يضيق البحر عندها ، فاذا بلفتها سفينة كبيرة ارتطمت بالارض . ففي الليل يشعلون سراجاً في زجاجة بحيث لا تطفئه الرياح ، وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون ، والثاني ليعرف الملاحون الاتجاه ، وليروا القرصان ان وجدوا فيتقونهم بتحويل اتجاه السفينة . ولما اجتازنا الخشاب ، بحيث اصبح لا يري ، رأينا آخر مثله ، ولكن ليس على سطحه قبة لانهم لم يستطيعوا اكتماله .

ثم يحدثننا عن مدينة مهرuban التي كانت في ذلك الوقت مركزاً تجارياً ذا قيمة ، « ومن هناك بلغنا مدينة مهرuban ، وهي مدينة كبيرة على شاطئ البحر الشرقي ، بها سوق كبير وجامع جميل ، ولكن ماءها من المطر ، وليس بها آبار او قنوات من الماء العذب ، وقد اتخذ أهلها احواضاً ومصانع ليكون الماء متوفراً دائماً . وقد بني بها ثلاثة اربطة ، كل منها كأنه حصن محكم ومرتفع ومأكولات هتة المدينة تحمل اليها من المدن والولايات الاخرى ، اذ ليس بها شيء سوى السمك . وفيها تحصل المكوس ، فهي ميناء . »^١

والمروزي من اهل القرن الثاني عشر وقد خلف لنا معلومات قيمة عن الصين والاتراك وغيرهم من شعوب المشرق . والفقرة التي تحدث فيها عن الخليج هي التي تشير الى العلاقات التجارية بين خانفو (كينتون الحالية) في الصين ومدن الخليج قال : « فاما الطريق من الصين من جانب البحر فاو مرفأ من البحر اليه بلد يقال له لوقير ثم مدينة خانفو وهي اعظم من لوقير وهو مرفأ

أعظم وبها نهر الماء عذب كبير يخترق البلد وعليه جسور وعلى أحد جانبيه أسواق التجار الغرباء وعلى جانبه الآخر أسواق أهل المدينة وأكثر من يقصدهم من التجار الفرس والعرب . والفرس يركبون المراكب اليهم من سيرا ف والعرب من البصرة وفي هذه المدينة صاحب عشر الملك يجمع امتعة التجار ويأخذ منهم العشر . ولاهل هذه المدينة وفاء وامانة وصدق لهجة . وهناك تتخذ العضائر الصينية والكواغد الحسنة التي يكون احد وجهيها ابيض والوجه الآخر اصفر والحري الصيني الجيد ولباس اهلها الخفقاتين . ومن رسمهم ان كل واحد من اهل السوق يخالط الآخر نهراً ويتبايعون ويتعاملون فاذا غربت الشمس قرع الطبل في الجانبين فينصرف كل فريق الى مواضعهم فن وجد بعد ذلك من الفريقين في سوق غيره ادب وغرم .^١

والذي يمكن ان نحصل عليه من أخبار ابن البلخي (القرن الثاني عشر) وياقوت (القرن الثالث عشر) انه كان ثمة تبدل في المركز التجاري الرئيسي في شمال شرق الخليج . ذلك ان سيرا ف فقدت شيئاً كثيراً مما كانت عليه ، وانتقل مركز الثقل الى جزيرة قيس . فبنيامين يصف الجزيرة بقوله :

« ارض هذه الجزيرة شحيحة الماء ، ليس فيها غير عين واحدة . وأغلب شرب أهلها من ماء المطر . وهي مركز تجاري مهم ، يقصدها التجار للبيع والشراء ومقايضة ضروب السلع كالحرير والكتان والقطن والقنب والماش والحنطة والشعير والدخن والرز وسائر أنواع الحبوب والبقول ويأتيها تجار الهند بالعمور والتوابل . وأغلب سكان الجزيرة دلالون ووسطاء بين هذا الحشد الغفير من التجار ... وعلى مسيرة عشرة أيام منها بطريق البحر القطيف . »^٢

١ - المروزي، شرف الزمان طاهر ، «ابواب الصين والترك والهند»، لندن، الجمعية الملكية الآسيوية ١٩٤٢ ص ١٠ .
٢ - التعلي ، بنيامين ، « رحلة بنيامين » (ترجمة عزرا حداد) بغداد ، المطبعة الشرقية ١٩٤٥ ص ١٦٤ .

وهذا التبدل يبدو جلياً في ما كتبه ابن البلخي . فقد اتم رسالته المسماة « فرس نامه » في اوائل القرن الثاني عشر الميلادي ووصف فيها ولاية فرس ، وهي الجزء الجنوبي الغربي من ايران . فلما وصل الى سيراف قال عنها ما خلاصته : كانت سيراف من قبل مدينة كبيرة مزدهرة بالسكان كثيرة المتاجر ، من الاخشاب والطيوب والافاويه والكافور والحريز . ولكن لما هاجمها حكام جزيرة قيس ووضعوها تحت سلطانهم ، فقدت اهميتها وخلفتها الجزيرة اي قيس اذ اصبحت الميناء الرئيسي في تلك المنطقة . ولذلك فلا تجد اليوم من يقصد سيراف سواء لاصلاح سفينة أو للافادة من مينائها ، ولا يأتيها أحد من تجار كerman أو مهربان أو دورق أو البصرة ، وليس في اسواقها من البضائع الا مصنوعات جلدية وخزف مما يحتاجه أهل شواطئ «فرس» فقط .^١

واخبار ياقوت اوضح في الدلالة على هذا التبدل . وها نحن اولاً ننقل الى القارئ الكريم ما قاله صاحب «معجم البلدان» عن سيراف وقيس ، ومنه يبدو امر التغيير صريحاً . فهو يقول عن سيراف : «وهي مدينة جليلة على ساحل بحر فارس كانت قديماً فرضة الهند» . . . وقد رأيتها ، وبها آثار عمارة حسنة وجامع مليح على سواري ساج ، وهي في لحف جبل عال جداً ، وليس للمراكب فيها ميناء ، فالمراكب اذا قدمت اليها كانت على خطر الى ان تقرب منها الى نحو من فرسخين موضع يسمى نابد هو خليج ضارب بين جبلين ، وهو ميناء جيد غاية ، واذا حصلت المراكب فيه أمنت من جميع انواع الرياح ، وبين سيراف والبصرة اذا طاب الهواء سبعة ايام . . . فمنذ عمر ابن عميرة جزيرة قيس صارت فرضة الهند واليها منقلب التجار ، خربت سيراف وغيرها ، ولقد رأيتها وليس بها قوم الا صعاليك ما أوجب لهم المقام بها الا حب الوطن .^٢ اما قيس «فجزيرة

١ - البلخي Description of the Province of Fars in Persia at the beginning of the Fourteenth Century, Translated by G. Le Strange, London, Royal Asiatic Society, 1912 pp. 41-43.

٢ - ياقوت ، ج ٣ ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

وهي كيش في بحر عمان ، دورها اربعة فراسخ ، وهي مدينة مليحة المنظر ذات بساتين وعمارات جيدة وبها مسكن ملك ذلك البحر صاحب عمان وله ثلثا دخل البحرين ، وهي مرفأ مراكب الهند وبر فارس وجبالها تظهر منها للناظر ، ويزعمون ان بينهما اربعة فراسخ ، رأيتها مراراً ، وشربهم من آبار فيها ، ولخواص الناس صهاريج كثيرة لمياه المطر ، وفيها اسواق وخيرات ، ولملكها هبة وقدر عند ملوك الهند لكثرة مراكبه ودوانيجه ، وهو فارسي ، شكله ولبسه مثل الديلم وعنده الخيول العرب الكثيرة والنعمة الظاهرة ، وفيها مناص على اللؤلؤ وفي جزائر كثيرة حولها وكلها ملك صاحب كيش ، ورأيت فيها جماعة من اهل الأدب والفقه والفضل ، وكان بها رجل صنف كتاباً جليلاً فيما اتفق لفظه وافترق معناه ضخماً رأيت بخطه في مجلدين ضخمين ولا اعرف اسمه الآن .^١

ومع ان القرن الثالث عشر رأى قيس مزدهرة ، فان القرن الرابع عشر رأى المخطاط الجزيرة وانتقال التجارة منها الى هرمز على ما يحدثنا ابن بطوطة ، وهو الذي عرف المناطق المحيطة بالخليج ودون اخبارها في اواسط القرن الرابع عشر . فنراه يقول عن هرمز : « وهي مدينة حسنة كبيرة لها اسواق حافلة وهي مرسى الهند والسند ، ومنها تحمل سلع الهند الى العراقيين وفارس وخراسان ، وبهذه المدينة سكنى السلطان ، والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم واكثرها سبخا وجبال ملح وهو الملح الداراني ، ومنه يصنعون الاواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها ، وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة و عمان .^٢ »

على ان ابن بطوطة عرف اجزاء اخرى من الخليج وشطآنه ، وتنقل في

١ - نفس المكان ج ٤ ص ٤٢٢ .

٢ - ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

انحائها كثيراً ، وقطعه غير مرة ، والواقع ان في بعض ما تركه لنا صوراً حية حرية بان تقرأ كلها . لكن المجال لا يتسع الا للقليل القليل منها . ولنكتف بوصفه لظفار المحوض والبحرين ولمغاص اللؤلؤ .

« مدينة ظفار المحوض - وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ، ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند . ويقطع البحر فيها بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح ، في شهر كامل . قد قطعت مرة من قالقوط من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوماً بالريح الطيبة ، لم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار . وبين ظفار وعدن في البر مسيرة شهر في صحراء ، وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوماً . وبينها وبين عمان عشرون يوماً . ومدينة ظفار في صحراء منقطعة لا قرية بها ولا عمالة لها . والسوق خارج المدينة برض يعرف بالخرجاء ، وهي من أقذر الاسواق وأشدّها نتناً ، وأكثرها ذباباً ، لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسّمك . وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين ، وهو بها في النهاية من السمّن . ومن العجائب ان دوابها انما علفها من هذا السردين ، وكذلك غنمهم ، ولم أرَ ذلك في سواها . وأكثر باعها الخدم وهن يلبسن السواد . وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء . وكيفية سقيهم انهم يصنعون حلوا كبيرة ويعملون لها حبلاً كثيرة ، ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ، ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ، ويصبونها في صهريج يسقون منه . والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم .

« ردارهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق في سواها . وهم اهل تجارة لا عيش لهم الا منها . ومن عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند او غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في (صنبوق) الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله ، وللربان وهو الرئيس ، ولكتاب المركب ... وهم يفعلون ذلك استجلاً لأصحاب المراكب ... وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء . ولباسهم القطن وهو

يحبس اليهم من بلاد الهند . ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جداً .^١

« مدينة البحرين - وهي مدينة كبيرة حسنة ، ذات بساتين وأشجار وأنهار ، وماؤها قريب المؤنة ، يحفر عليه بالأيدي فيوجد . وبها حدائق النخل والمان والاترج ، ويزرع بها القطن . وهي شديدة الحر ، كثيرة الرمال ، وربما غلب الرمل على بعض منازلها . وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع ، فلا يوصل من عمان اليها الا في البحر . »^٢

« مفاص الجوهر - ومفاص الجوهر فيما بين سيراو والبحرين ، في خور راكد مثل الوادي العظيم . فاذا كان شهر ابريل وشهر مايو تأتي اليه القوارب الكثيرة ، فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ، ويجعل الغواص على وجهه منها أراد أن يغوص شيئاً يكسوه من عظم الغنم ، وهي السلحفاة ، ويصنع من هذا العظم ايضاً شكلاً شبه المقرض يشده على أنفه ، ثم يربط حبلاً في وسطه ويغوص . ويتفاوتون في الصبر في الماء ، فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك . فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتاً في الرمل ، فيقتلعه بيده أو يقطعه بمحديدة عنده معدة لذلك ، ويجعلها في مخلعة جلد منوطة بعنقه . فاذا ضاق نفسه حرك الحبل ، فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل ، فيرفعه الى القارب ، فتؤخذ منه المخلعة . ويفتح الصدف ، فيوجد في اجوافها قطع لحم تقطع بمحديدة ، فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر ، فيجمع جميعها من صغير وكبير ، فيأخذ السلطان خمسة ، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب ، واكثرهم له الدين على الغواصين ، فيأخذ الجوهر في دينه او ما وجب له منه . »^٣

١ - نفس المكان ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٩ .

٢ - نفس المكان ج ٢ ص ٢٤٦ .

٣ - نفس المكان ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .

الفصل العِشْرُون

الخليج العربي والرحالون الأوروبيون

في اواخر العصور الوسطى أخذت المجتمع الاوروبي يقظة ونهضة ، تمثلت في غير ناحية واحدة من نواحي الحياة . ولعلّ أكثرها روعة وأكبرها مظهرها كانت العناية باكتشاف بلاد وطرق جديدة ، بقطع النظر عن البواعث والدوافع . والرحالة ماركو بولو في طليعة الاوروبيين الذين زاروا الشرق وعاشوا في اجزائه : ورحلاته ولا شك فيها فائدة ومتعة وطرافة . وماركو بولو زار هرمز في اواخر القرن الثالث عشر ، ولعله اول اوروبي وصلت اليها اخباره عنها مدونة . ويقول ماركو بولو عن هذه المدينة : « يأتيها التجار من الهند وسفنهم محملة بالافاويه والحجارة الثمينة واللؤلؤ والأقمشة الحريرية والمذهبة والعاج وغير ذلك من المتاجر . هذه كلها يبتاعها تجار هرمز ، الذين يحملونها بدورهم الى اسواق الدنيا . انها في الواقع مدينة عظيمة المتجر ، وثمة كثير من المدن والقرى التي تخضع لها ، وهي العاصمة ... المدينة حارة جداً . »^١

« ويصنع البعض هنا خيراً من التمر ويضيفون اليه بعض البهاراب... يغلب على طعام الناس هنا التمر والسّمك والبصل ... يزرع القوم هنا القمح والشعير

Marco polo, Voyage and Travels, London, Cassell, 1886,p.47 - ١

في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ويحصدون الغلال في شهر آذار (مارس) ...
وليس في هذه الجهات عشب أو حشائش الا القليل بسبب الجفاف .^١

والراجع ان هرمز التي يتحدث عنها ماركو بولو هي هرمز الجديدة القائمة في جزيرة جبرون ، اما هرمز القديمة فكانت على الشاطئ . فلما انتقل القوم الى الجزيرة اطلقوا عليها اسم بلدهم الاولى ، فصارت هي الاخرى هرمز . وهذا الانتقال تم قبل مجيء ماركو بولو بمدة قصيرة . والذي نعرفه هو ان حكام هرمز هذه وسعوا سلطانهم بحيث شمل جزيرة قيس (المنافسة القديمة لهم) وما جاورهم من الشاطئ الفارسي ، ثم البحرين وعمان ومسقط . والبحرين كانت في غالب الاحيان يقصد بها الجزر والشاطئ المجاور لها في شرق الجزيرة العربية .

وقد استمرت هرمز مركزاً تجارياً هاماً أولاً وهي مستقلة ومسيطرة على هذه المنطقة الواسعة ، وثانياً حتى بعد الاحتلال البرتغالي . ذلك ان البرتغاليين ، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، جاءوا المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الاحمر فاتحين لانشاء امبراطورية طويلة عريضة ، وتم لهم احتلال المناطق المصاغة لخليج عمان وبعض الخليج العربي وخاصة هرمز في اوائل القرن السادس عشر . وظل هؤلاء البرتغاليون اصحاب الامر والنهي حتى بدأت محاولة الاتراك لاجراجهم في اواسط القرن نفسه ، ثم جاء البريطانيون يزاخونهم في مطلع القرن التالي .

وبسبب هذا الوجود الاوروبي في الخليج كثر المترددون عليه ، وخاصة من البرتغاليين ومن جاورهم . وبين ايدينا الكثير مما كتبه هؤلاء عن اجزاء الخليج وبعض المعارك التي درات فيه . وهما نحن اولا ننقل للقراء الكرام طرفاً مما اتصل بنا .

١ - نفس المكان ، ص ٤٩ .

في اواسط القرن الرابع عشر زار الاب رينال هرمز ، الذي وصف البلد وصفاً فيه بعض المبالغة . قال: « أصبحت هرمز عاصمة امبراطورية تشمل جزءاً كبيراً من بلاد العرب وجزءاً آخر من فارس . والمنظر الذي يحده الواحد عند وصول التجار الاجانب الى هرمز اجل ما يمكن ان تقع عليه العين في أي مدينة في الشرق . فالتجار من جميع انحاء العالم يتبادلون سلعهم ويرتبون اشغالهم بمتنهي الادب واللياقة . . . كانت الشوارع مغطاة بالحصر وفي بعض الحالات بالبسط ، كما ان الاغطية الكتانية المعلقة من السطوح ، كانت تقي الناس حر الشمس الشديد . والبيوت تزينها خزائن ومزهريات من الهند والصين ، فيها زهور ونباتات عطرية . وفي الساحات العامة كانت الجمال المحملة بماء الشرب (جاهزة لمن يحتاج) . وكانت خمور فارس وطوبوها وما يشتهي من المأكول والمشرب موجودة بكثرة . »^١

والقرن الخامس عشر لم يشهد عناية كثيرة بالمنطقة التي نعى بها الساعة . ولعلّ انصراف الكثيرين من الاوروبيين للبحث عن طريق حول افريقية ، عطل ، بعض الوقت ، الاتجاه المباشر نحو الشرق . حتى اذا اهلّ القرن السادس عشر عاد هؤلاء الرحالون ، بكل ما في عملهم من تنوع واختلاف بواعث ، الى الظهور بكثرة على المسارح الشرقية . ومن اول هؤلاء لودفيكو دي فارتما ، وهو ايطالي ، يمثل روح المغامرة والمجازفة في النهضة الأوروبية ، كما يمثل الرغبة في التعرف على كل شيء واختبار كل شيء ، كما يقول هو عن نفسه . فهو ايطالي من بولونيا هبط الاسكندرية سنة ١٥٠٣ واتجه بعدها نحو القاهرة . لكن المدينتين كانتا معروفتين لكثرة ما كتب عنها . فلم تطب لفارتما الاقامة في مصر لانه كان يريد ان يتعرف الى شيء جديد . فرحل عن مصر الى بيروت حيث قضى بضعة ايام . ومع انه اعجب بثناء بيروت فانه غادرها الى طرابلس

Wilson, Arnold Talbot, The persian gulf, Oxford, - ١
Clarendon, 1928, pp. 105-106.

فحلب فحماء فدمشق . ويحدثنا عن مركز حلب التجاري وقيمتها كنقطة
تبادل فيها القوافل الفارسية والتركية والسورية متاجرها . كما يلفت نظره
قطن حماء . ويقم في دمشق بضعة شهور محاولاً ان يتعلم اللغة العربية املاً ان
يحقق حلمه في ان يسوح في بلاد العرب . وتواتيه الفرصة . فان قافلة الحجاج على
وشك الرحيل من دمشق ، وقد صادق كبير المالكين الذين سيراقدون القافلة .
فينضم فارتما اليهم على انه مملوك مسلم ويرحل مع القافلة . ويقضي اربعين يوماً
بين دمشق ومكة المكرمة . ويهم الحجاج بالعودة ، لكن فارتما لا يريد ذلك ،
فيتخلص من المالكين بحيلة ويتخلف ثم يذهب الى جدة . ومن هناك
يركب سفينة الى عدن ، حيث بقي القبض عليه بتهمة التجسس وسجن . لكن
الحظ ساعده فافلت . ثم تجول في اليمن واخيراً هرب على سفينة متجهة نحو
هرمز فارس . وقد حملت فارتما اسفاره بعد ذلك الى الحبشة والهند وعاد أخيراً
الى ايطالية سنة ١٥٠٨ بعد غياب خمس سنوات .

وقد زار فارتما هرمز سنة ١٥٠٣ او ١٥٠٤ ، اي قبيل وصول البرتغاليين
بمدة قصيرة ، فقال يصفها «... وأخيراً وصلنا مدينة جميلة تسمى هرمز
التي لا تضاهيها مدينة اخرى من حيث الموقع وكثرة اللؤلؤ . وهي تقع على
جزيرة تبعد ١٢ ميلاً عن الشاطئ . ماؤها العذب نزر ، وكذلك القمح .
لذلك فان المؤن اللازمة لسكانها تحمل اليها من الجهات الاخرى ... وقد ترى
فيها ثلاثئة سفينة من مختلف انواع المراكب ، التي تأتياها من جهات عديدة
وبلاد مختلفة ... وفي المدينة ما لا يقل عن اربعمئة تاجر ووكيل يقيمون
فيها بصورة دائمة للاهتمام بالسلع المختلفة التي تنقل اليها والتي تشمل الحرير واللؤلؤ
والحجارة الكريمة والافاويه وما الى ذلك .» ويقول فارتما ان اهل هرمز
يعتبرون الارز غذاء اساسياً ، لأنه لا يوجد عندهم قمح . وقد ذكر ماركو

بولو ان أهل هرمز لا يستعملون الخبز في غذائهم الا في حالة المرض . ويبدو ان انعدام القمح هو السبب الرئيسي لذلك .^١

في مطلع القرن السادس عشر أخذ البرتغاليون باحتلال مناطق خليج عمان والخليج العربي . ففي سنة ١٥٠٦ استولوا على مسقط وعمان وهرمز . وبذلك ثبتوا اقدمهم في الخليج لمدة قرن تقريباً ، وان كانوا قد تعرضوا لثورات كثيرة (قلعات ومسقط ١٥٢٦) والقطيف (١٥٥٠) ، كما ان الاتراك اخذوا منذ ١٥٥٠ يقاومون البرتغاليين في تلك الاصقاع بواسطة جماعة من كبار رجال مثل يربك الذي هاجم القطيف وهرمز .

وهذه الفترة التي شغلت الناس بالحروب كانت غنية أيضاً بالرحالين الذين خلفوا لنا الكثير من الفوائد عن البلاد واهلها . فهناك « التعليقات » التي كتبها القائد البرتغالي البوكيرك الذي قاد الاسطول لفتح هذه المنطقة واحتلالها . وهناك دوراتي بربوزا الذي حظيت البحار والاقطار الشرقية بزيارته والذي كتب وصفاً مفصلاً لجميع المناطق التي زارها في العقد الثاني من القرن السادس عشر . وهناك فرياسوسه الذي مرّ بالبلاد في اواسط القرن . واخيراً عندنا فتش الانكليزي الذي مرّ بالديار في أواخر القرن .

فالبوكيرك يحدثنا عن مسقط التي احتلها سنة ١٥٠٦ بقوله: « مسقط مدينة كبيرة كثيرة السكان ، تحيط بها ، من الجهة الداخلية ، جبال مرتفعة ، اما من جهة البحر فهي قريبة جداً من الماء . . . ميناؤها صغير يشبه نعل الفرس ، وفي مأمن من الرياح . ومسقط السوق الرئيسية لمملكة هرمز ، اذ يجب ان تمر بها جميع السفن لتتجنب الشاطئ المقابل الصخري . وهي منذ القدم ميناء الخيول

والتمر . مدينة جميلة بيوتها انيقة ويأتيها من داخل البلاد القمح والذرة والشعير
والتمر .^١

اما دوراتي بربوزا فقد وصف عدداً كبيراً من مدن الخليجين - خليج عمان
والخليج العربي - بادئاً من الشحر (او شحر) « الميناء الغني بمختلف انواع
السلع ... مثل الاقمشة القطنية ... والارز والسكر والافاويه وغير ذلك من
المتاجر ... وهذه تبادلهما الشحد مع القادمين اليها بالبخور والخيول الممتازة
التي قد يبلغ ثمن الواحد منها في اسواق الهند نحو ٢٥٠ استرلينية . وبلاد الشحد
كثيرة القمح واللحوم والتمر والاعناب .^٢

ويعد بربوزا الاماكن التابعة لمملكة هرمز وبينها قلعات والقريّات ومسقط
وصحار .^٣ ومسقط « واسعة المتجر كثيرة الاسماك التي تملح هناك وتجفف
وتنقل الى كثير من البلدان لبيعها .^٤ اما في الجهة المقابلة ، اي على الشاطئ
الفارسي ، فالظاهر ان نفوذ هرمز كان ايضاً واسعاً اذ ان بربوزا يعد قرابة ١٥
مدينة وقرية ، يضاف الى هذا ان الجزر الواقعة بين الشاطئين كانت ايضاً تابعة
لهرمز « والبحرين مسكن عدد كبير من التجار والسكان المحترمين ... وتكثر
حول الجزيرة مغاصات اللؤلؤ . والتجار يربحون ارباحاً طائلة من الغوص على
اللؤلؤ ، فضلاً عن أنهم يفيدون من تصديره .^٥
وتقع « البصرة في نهاية البحر الفارسي ... وتأتي اليها سفن عديدة تحمل

١ - Albuquerque, Alphonso d, *Indies Adventures*, London, Blackie 1936, p. 35.

٢ - Barbosa, Durate, *the Book of Durate Barbosa*, London, -

Haklyut Society, 2nd series, No. XLIV, VOL. I, pp. 64 - 65 .

٣ - نفس المكان ص ٧٠ .

٤ - نفس المكان ص ٧١ .

٥ - نفس المكان ص ٨١ .

القطن والتوابل لتمتاز من البصرة القمح والسمن والزيت والشعير .^١

وهرمز يسميها بربوزا المدينة الجميلة ويتحدث عنها حديثا طويلا يمكن تلخيصه فيما يلي : بيوت المدينة جميلة ، اما هرمز فحارة جداً وجافة جداً . تجارها عرب وفرس وكلهم يتكلمون العربية (الفرس يتكلمون لغتهم ايضاً) ، وجميعهم مسلمون . ولهم ولع بالموسيقى والغناء . وكثير من تجارها اغنياء جداً ويملكون سفناً عديدة ، وفي ميناؤها واسواقها يتبادل الناس سلعا من مختلف الانواع والبلدان . فالافاويه والتوابل - كالفلفل والزنجبيل وكبش القرنفل وحب الهال والزعفران - وخشب الصندل والنيلة والشمع والحديد والسكر والارز (بكميات كبيرة) وجوز الهند والحجارة الكريمة والفخار والبخور والأقمشة التي تنقل حتى من بلاد البنغال والنحاس والزئبق وماء الورد وقماش البروكاد والتفتا والحريز والمسك والصمغ والحيول والتمور والملح والكبريت . والاثرياء من السكان يلبسون الثياب الحريرية ، اما الباقون فيكتفون بالثياب القطنية ، وكلها يحتفظ بها نظيفة . وهم اهل آداب حضرية ، وشديدو العناية بآكلهم ويكثر من استهلاك الثمار المجففة والطازجة كالشمش والتين والتفاح والرمان والدراق واللوز والاعناب والبطيخ . وكل شيء في هرمز مرتفع الثمن لأب المؤن تحمل اليها من خارجها - من بلاد العرب وفارس وغيرهما ، اما الجزيرة فليس فيها الا الملح . حتى الماء يحمل اليها من خارجها ، تحمله طرادات اي سفن صغيرة .

والقوم يحافظون على الوزن والكيل ، وكل من يخالف ذلك يعاقب بشدة ، ومن عاداتهم ان يبتاع اللحم مطهوا ، اما مسلوفا أو مشويا ، وكثير من الناس يأكلون في الاسواق .^٢

١ - نفس المكان ، ص ٨٨ - ٨٩ .

٢ - نفس المكان ص ٩٠ - ٩٢ .

ولما اهتمت تركية بالخليج وما اليه ^١ ، وقام بير بك يزجج البرتغاليين باسطوله ورجاله ، ويحتل جهات ويشير الثورات في جهات اخرى ، اضطربت الحياة بعض الاضطراب في اماكن كثيرة ، ولكن المحاولة التركية لم تستمر بحيث تخرج البرتغاليين من المنطقة . وفي اثناء هذه الحوادث زار تلك الجهات فريا سوسه الذي كتب وصفاً للنشاط بير بك في جهات هرمز بعد معركة قرب مسقط كان النصر فيها حليفه ضد البرتغاليين (سنة ١٥٥٠) . قال سوسه : «ظهر اسطول الاعداء (اي الاتراك) امام مسقط ، التي قاومت نحو شهر لكنها اخيراً وقعت في أيدي المهاجمين ، وعندها جعل بير بك الضابط وستين من الرجال يقومون بالتجذيف في سفنه ، ولكن بعض هؤلاء اقتدوا فيما بعد . ولما انتهى امر مسقط اتجه بير بك نحو هرمز ، حيث كانت الفارو دونورونه (قائد الموقع) يقيم في الحصن ومعه تسعمئة رجل ... وكان لديه من العتد ما يكفيه لحصار طويل ، وكان في الميناء اربعون سفينة ... وجاء التركي الى الجزيرة ، فانزل المراسي ، ونزل الجند وخيموا هناك ثم حفروا الخنادق واقاموا الطوابي ونصبوا المدافع واطلقوا نيرانها شهراً كاملاً دون توقف . فلما وجد ان هذا لم يجده نفعاً نهب ما استطاع من المدينة ، ثم انتقل الى جزيرة كشم ، حيث كان قد لجأ الكثيرون من سكان هرمز . هناك غنم كثيراً ، ثم انسحب (ليعد نفسه للمعركة من جديد . » ^٢

في اواخر القرن السادس عشر جاء الشرق اربعة من الانكليز بينهم رالف فنتش . وقد قطع هؤلاء البلاد من طرابلس في لبنان عبر سورية الى الفرات ثم الفلوجة وبغداد والبصرة ومنها ركبوا البحر الى هرمز ، حيث القى البرتغاليون القبض عليهم على انهم جواسيس ، ومنها ارسلوا الى غوا في الهند . وقد وصف فنتش رحلته فقال عن الطريق من البصرة جنوباً ما يلي : « البصرة مدينة لها

See Wilson, pp. 124 ff.

- ١

See Wilson , pp.125 - 126.

- ٢

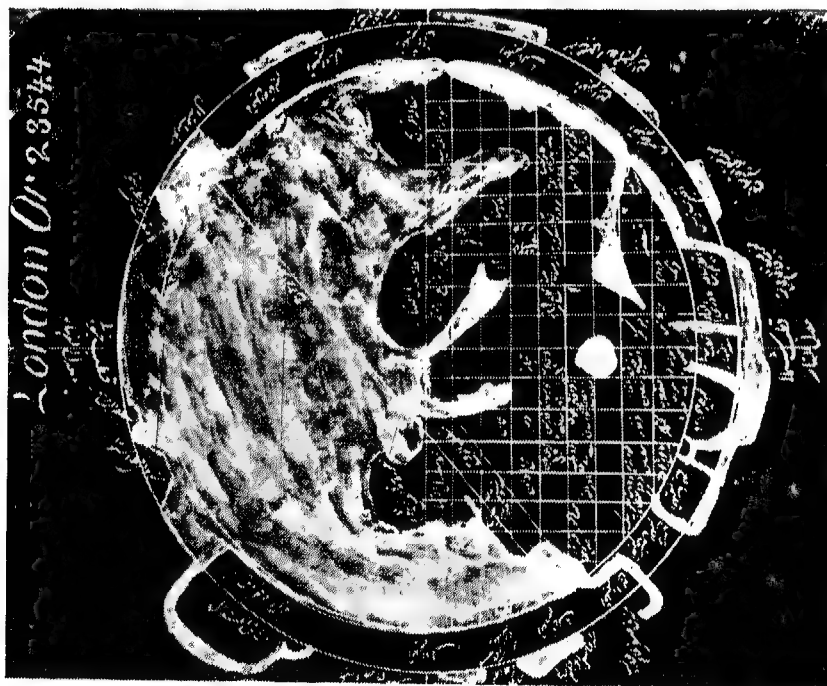
تجارة كبيرة في التوابل والعقاقير ومنها ذهب . . . في سفينة مصنوعة من الخشب المربوطة ببعضها البعض بحبال مصنوعة من قشر جوز الهند او القنب ومن هنا كان الماء يدخلها كثيراً . وكانت فارس دوماً على يسارنا وشواطئ العربية على يميننا ، ومررنا بكثير من الجزر اهمها جزيرة البحرين المشهورة والتي تصدر خير اللؤلؤ . . . (ووصلنا بعد ذلك) الى هرمز وهي انشف جزيرة في الدنيا ، اذ لا ينبت فيها شيء الا الملح . . . وفي هذه المدينة تجار من جميع الامم ، مسلمين وغير مسلمين . وهناك اتجار في جميع انواع الافاريه والعقاقير والحرير والسجاد واللؤلؤ والخيول . وملكهم مسلم لكنه خاضع للبرتغال . ،^١

يبدو من هذا العرض المقتضب ومن هذه الفقرات التي نقلناها عن هؤلاء الرحالين ان المركز الرئيسي لتجارة الخليج كانت هرمز لمدة تقارب ثلاثة قرون وان المدينة ظلت مركزاً تجارياً هاماً حتى اثناء الاحتلال البرتغالي. ويبدو ايضاً ان المراكز التجارية الاخرى في عمان والخليج كانت تعتمد على هرمز واسواقها .

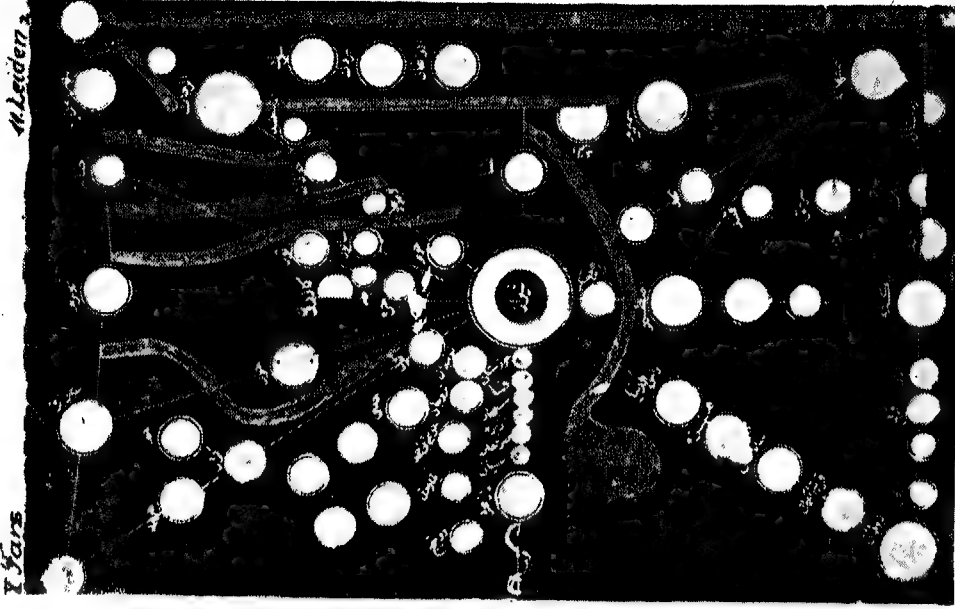
لكن مع ذلك كان لا بد من ان تتأثر المنطقة بكاملها من امرين - الاول ان الاحتلال البرتغالي كان يريد ان يحصل على اكبر كمية من الفائدة لذويه، وكان الحكام يحاولون الأثراء . وهذا اضعاف للتجارة بطبيعة الحال . والثاني ان فتح طريق جنوب افريقية كان لا بد ان يؤثر في تجارة الخليج ، وقد بدأ هذا في السنوات الاولى من القرن السابع عشر .



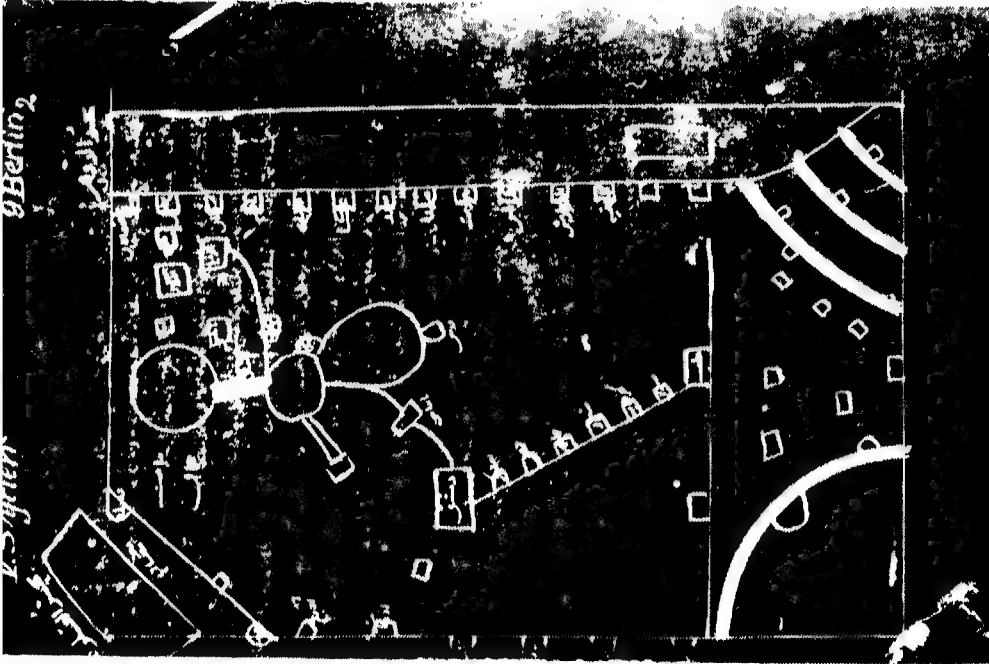
ديار العرب



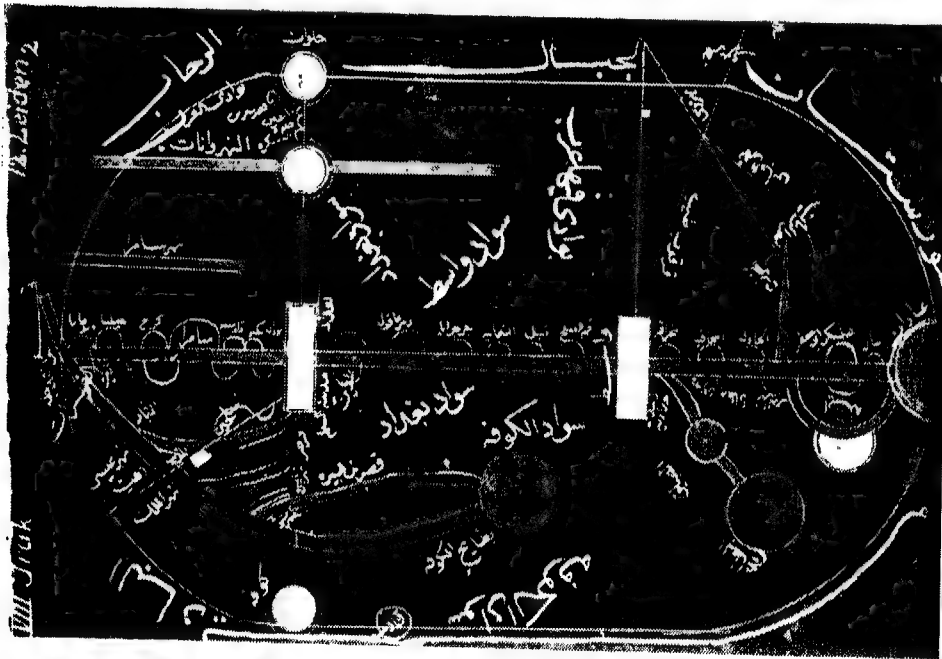
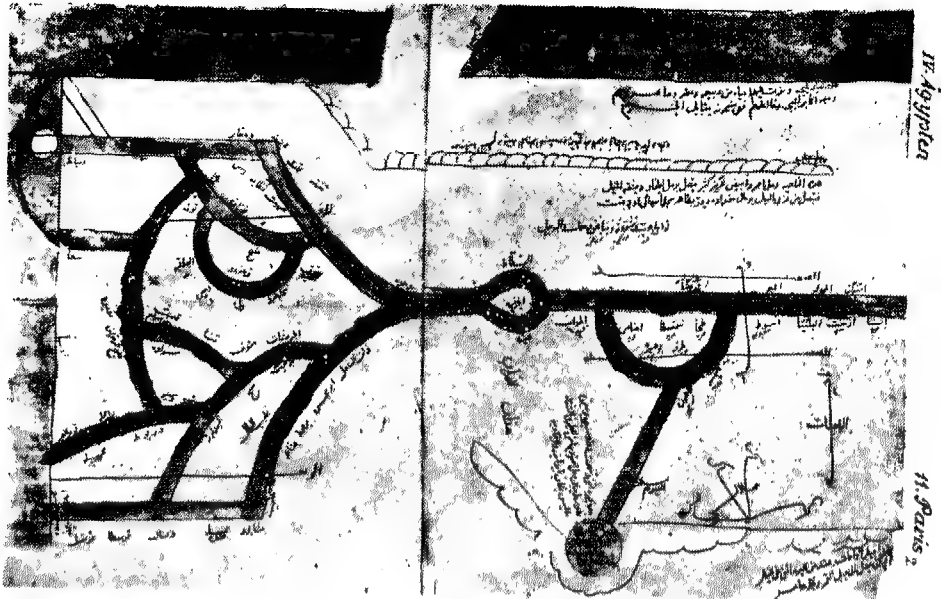
خارطة العالم (نقشون)

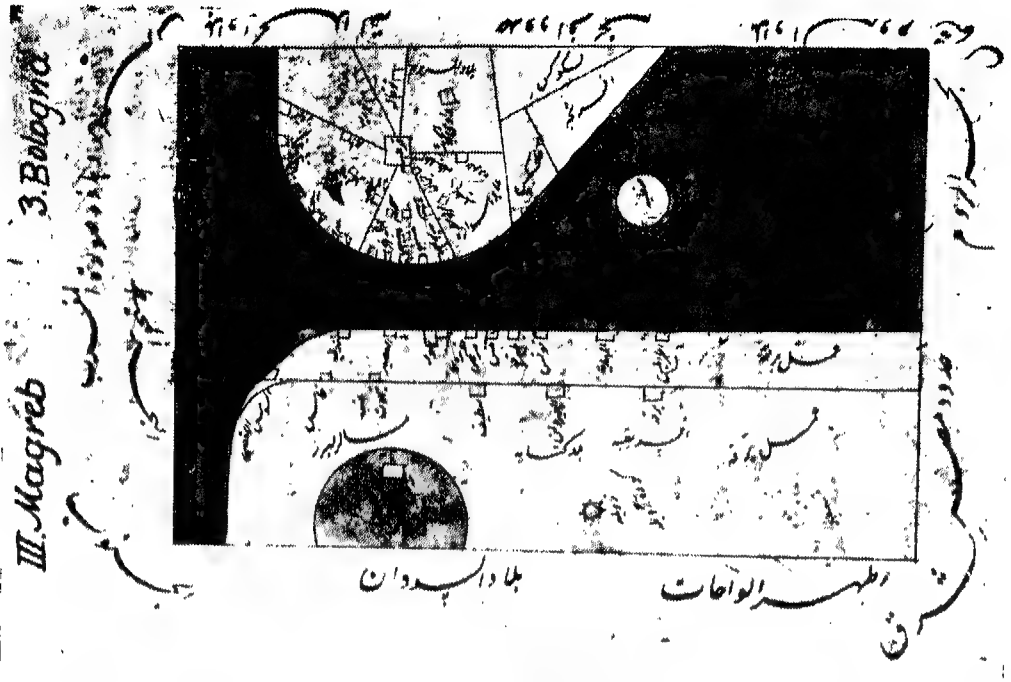


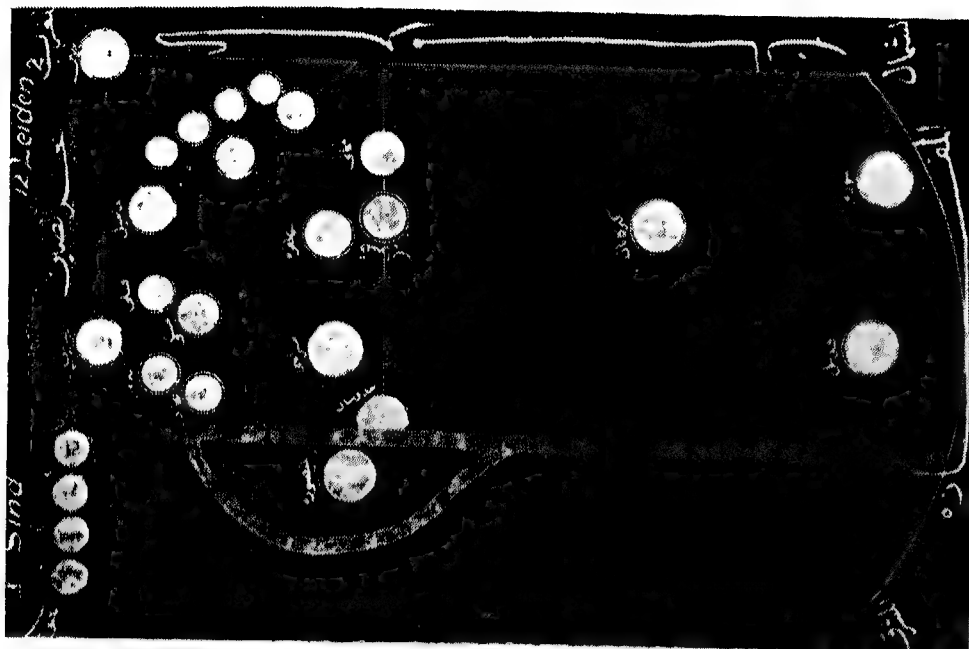
بلاد فارس



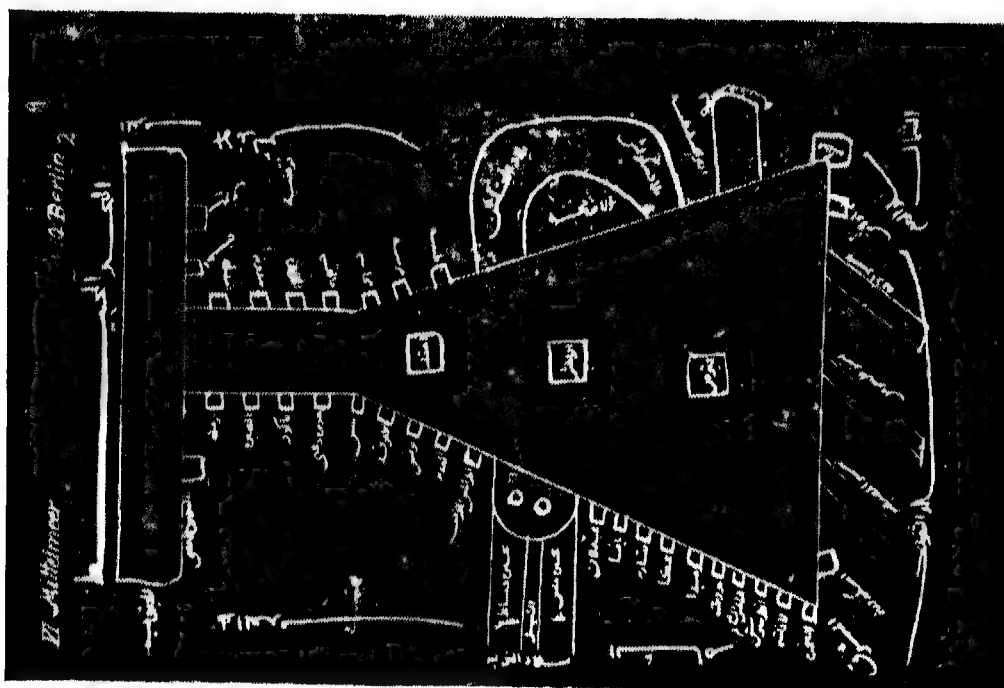
دثار الشام (البليخي)



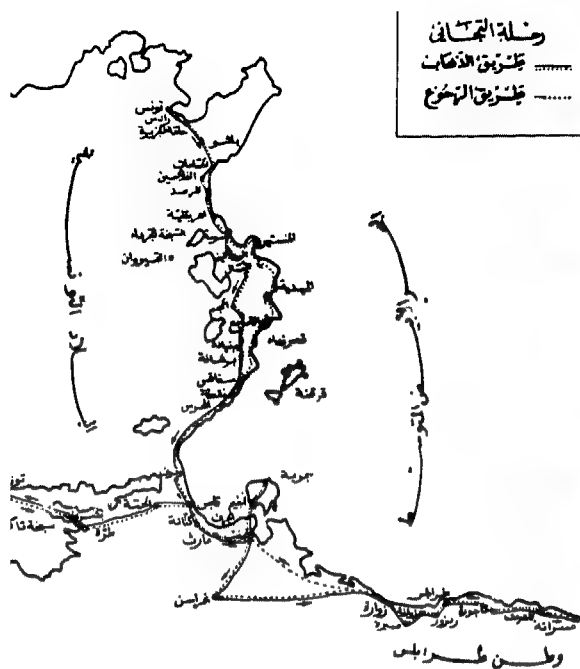




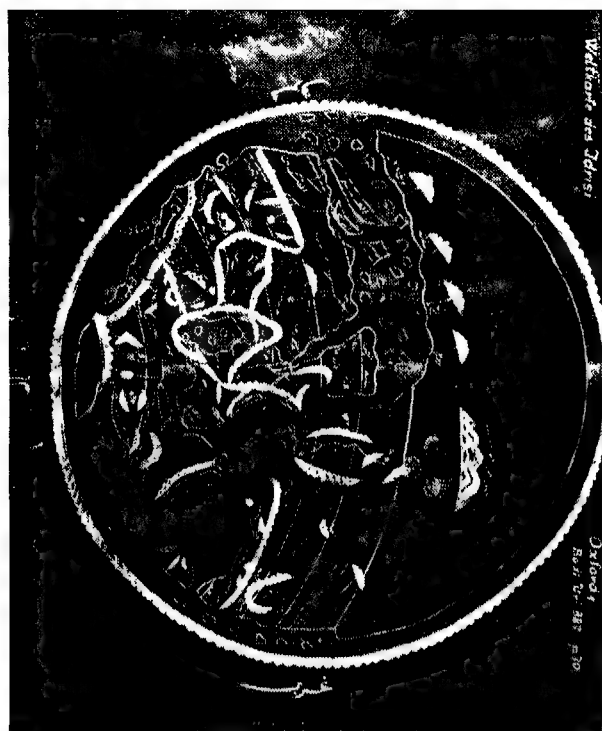
حرف الـ د



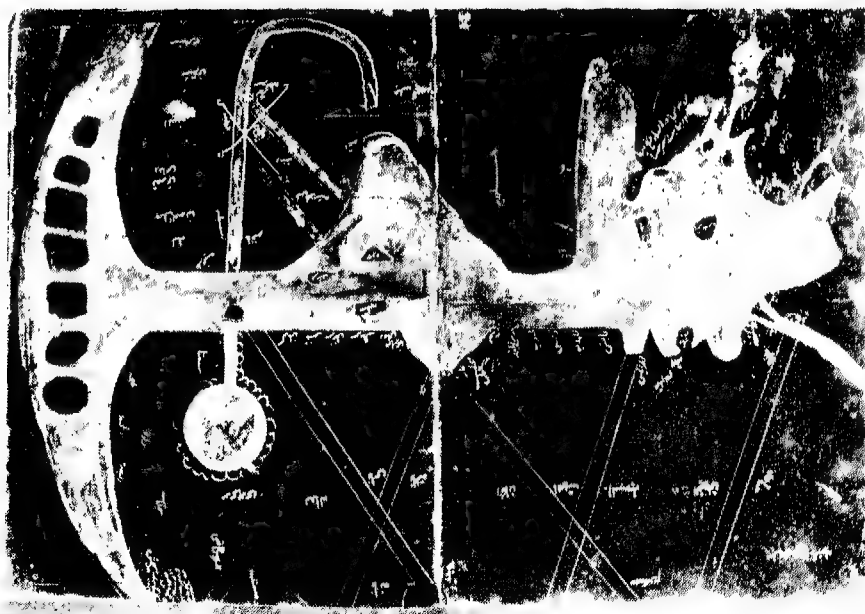
البحر المحيط



رحلة التيجاني



خارطة العالم (الادريسي)



حوض البحر الابيض المتوسط (لابن سعيد)

١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١
 ٤٧٢
 ٤٧٣
 ٤٧٤
 ٤٧٥
 ٤٧٦
 ٤٧٧
 ٤٧٨
 ٤٧٩
 ٤٨٠
 ٤٨١
 ٤٨٢
 ٤٨٣
 ٤٨٤
 ٤٨٥
 ٤٨٦
 ٤٨٧
 ٤٨٨
 ٤٨٩
 ٤٩٠
 ٤٩١



وفاقیہ اسلامیہ

47

10

Handwritten musical notation on staves, featuring various symbols and characters, possibly representing a specific musical system or dialect.

[Faint handwritten notes in Urdu script, possibly bleed-through from the reverse side.]

35

فهرس اُجدي

- ١ -

آمد ١٥٩	ابن بطوطة ١٦ ، ٨٢ ، ١٦٨ ، ١٨٧
ابراهيم ٥٦ ، ٥٧	١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٣٠
ابراهيم ، محمد عبد الرسول ١٠٤	٢٣٦ ، ٢٣١
ابرهة بن الصباح	ابن البلخي ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
(انظر ابن الصباح ، ابرهة)	ابن تاشفين ، علي بن يوسف ٧١
الابلة ٢٤ ، ٤٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦	ابن تاشفين ، يوسف ٨٤ ، ١٢٦
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، نهر - ٥٦ ، ١١٤	ابن تيمية ٩٨
ابن الاسود ، هبار ١٤٠	ابن ثعلب ، الشريف ١١٧
ابن الاسود ، يزيد ١٢٥ ، ١٢٦	ابن جامع ١٦٩
ابن الاعرابي ٦٦	ابن جبير ، ابي الحسن محمد ١٦ ، ١٦٧
ابن الاغلب ، زيادة الله ٧٧	١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٣١
ابن اللحياني ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧	ابن جزري ١٨٩
ابن أبي طالب ، موسى بن علي ٩٥	ابن جعفر ، قدامة ١٢ ، ١٧ ، ٣٣
ابن أبي العيش ١٦٧	١٥٦
ابن ابي وقاص ، سعد ٨٦	ابن جماعة ، ابي عبد الله محمد بن ابراهيم ٩٥
ابن ادريس ، ادريس	ابن جنبه ، خالد ٦٨
(انظر ادريس بن ادريس)	ابن نحاس ٤٥
	ابن حجر المسقلاني ، شهاب الدين ٩٨

ابن شميل ٦٧	ابن حوقل ، ابو القاسم محمد ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٤ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ٧٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ١٥٠
ابن الصابوني ، علي يعقوب بن احمد ٩٥	ابن خاقان ، الفتح ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٤ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ١٥٠ ، ٢٢٤
ابن الصباح ، ابرهة ١١٢	ابن خفاجة ١٢٠
ابن صفوان ، خالد ١١٢	ابن خلكان ١٦٤ ، ١٦٥
ابن طولون ١٦٢	ابن خلدون ١٨٩
ابن العاص ، عمرو ١٦٢	ابن الحياط ٥٩
ابن عامر ٥٩	ابن ذي يزن ، سيف ٢٩
ابن ظافر ١١٩	ابن رسته ، ابي علي احمد ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ١٣٧
ابن عباد ، رافع ٩٥	ابن سابق ، سيف الدين ١٦٩
ابن عبد البر ، الحافظ ١٧٩	ابن سعيد ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠
ابن العديم ، كمال الدين ١٧٠	ابن السكان ١٧٨
ابن عفان ، عثمان (انظر عثمان بن عفان)	ابن السكيت ٦٨
ابن عميرة ٢٣٥	ابن سناء الملك ١٨٢
ابن فاطمة ٨٥	ابن شبرين ٢٠٣
ابن فتوح ، ابو بكر ١٧٩	ابن شحنة ١٢٤
ابن الفرکاح ، برهان الدين ٩٨	ابن الشقر ، ابو عمر ١٨٠
ابن فضل الله العمري (انظر العمري ، ابن فضل الله)	
ابن فضلان ، احمد ١٢ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩	
ابن الفقيه ١٧ ، ٦٣ ، ١٥٠ ، ٢٢٤	

ابو الفدا ١٤ ، ١٦ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٠٦	ابن قاضي ، كمال الدين ٩٨ ابن قتيبة ١٥٦
ابو مدين ١٧٢	ابن قحطان ، يعرب ١١٣
ابو المطراف عبد الرحمن ٣٩	ابن القفطي (الوزير) ٦٢
ابو منصور ٦٦	ابن كيداد ، مخلد ١٣٢
ابو معاز ٦٩	ابن المجذ ، شهاب الدين ٩٨
أبي دبوس ، أبا دبوس ابن أبي علي ١١٦	ابن المسيب ، سعيد ٢٨
أبي يحيى (ملك الموت) ٤٦	ابن مهاجر ١٨١
أثار البلاد واخبار العباد ٨٣	ابن ميمون ، موسى ١٨٢
اجداية ٨٤	ابن ناظر الجيش ١٠٤
الاحساء ٢٣١	ابن النديم ١٥٢
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ٥٠ ، ١٣٥ ، ٥٤	ابن نصير ، موسى ٨٧
احمد بن يحيى جابر	ابن نوح ، حام
(انظر جابر ، احمد بن يحيى)	(انظر حام بن نوح)
اخبار الزمان ١٥٣	ابن نوح ، سام
الاششيدي ، كافر ٥٨	(انظر سام بن نوح)
ادريس بن ادريس ٤٢	ابن هشام ١١٣
الادريسي ، الشريف ١٤ ، ١٥ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨١ ، ٨٠ ، ٧٦ ، ٧٥ ، ٧٢	ابن الواضح ٦٣
الادفوي ٩٥	ابن وهبون ، عبد الجليل ١١٩
ادونيس ٢١٩	ابن يحنه ، رؤبة ٢٥
اذريجان ١٠٠ ، ١١٠ ، ١٥٥ ، ١٨٣	ابن يعفر ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠
اربند ١٠٨	ابن يعمور ١٦٩
	ابو زينان بن ودرار ١٩٢
	ابو العلاء ١٦٠
	ابو عمرو ٦٨
	ابو عنان ، السلطان ١٨٩ ، ١٩٢

- أ -

اسيوط ١٦٢	ارجان ٥٦، ٣٨
الاشارات الى معرفة الزيارات ١٦٤	الارز ٢٨، ٢٦
اشبيلية ٩٢ نهر - ١١٩	ارزنيوي ٢١٨
اشروسنة ١١١	ارميا ٥٧
اشمون (خليج) ٩٣	الاردن ٧٠
اصبهان ١١٠، ٤٨، ٤٦، ٢٠	ارزن ٤٨
اصفهان ٥٥	ارمينية ٥٦، ٤٨
الاصطخري ، ابي اسحق ابراهيم ١٢،	اريجا ٥٨
١٤، ٣١، ٣٢، ٣٥، ٣٩، ٦٣،	الازهر ١٨٢
١٣٥، ١٣٩، ١٥٠، ١٥١، ٢٢٤،	الازهري ٦٧
٢٢٦	ازمور ٨٦
اطرابلس (انظر ايضا طرابلس) ٣٤، ٣٣	ازيلا ٨٦
الاطلسي (المحيط) ١٣٠	الاستان ٦٩، ٦٦
الاعلاق النفيسة ١٧، ١٩، ٢١،	اسفي ٨٦، ٧٣
١٣٥، ٢٦	اسبانية ٣٢
اغسطس ٢١٦، ٢١٧	اسبيجاب ١١١
الافادة والاعتبار ١٨٢	الاسكندر ٢١٦
افريقية ٤١، ٤٢، ٤٨، ٧٦، ٩١،	الاسكندرية ٧٧، ٨٦، ٩٠، ٩١،
٩٣، ١١٠، ١٢٥، ١٣٢، ١٧١،	٩٢، ٩٣، ١٠٣، ١١٠، ١٦٣، ١٦٦،
١٧٥، ١٨٧، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٤٧،	١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١،
افغانستان ١٨٧	١٨٧، ١٨٨، ٢٠٢، ٢١٧، ٢١٨،
اقريطش (جزيرة) ٩١	٢٤١
اقلنس (بلاد) ٨٠	اسوان ٣٨، ١١٠، ١١٧، ١١٨،
	١٦٢

- أ -

الأهواز ٤٦ ، ٤٨ ، ١١٠	اقلية ١٧٠
اوال ٧٧	الاقليم ٦٦ ، ٦٨
اوثنان (راس) ٩١	اقور ٥٣ ، ٥٥
أوجلة (جزيرة) ٣٣ ، ٧٢	الالكال ٢١٠
اودغست ٤٢	ام الحيات ٤٣
اوزاغ ٤٨	ام الربيع (نهر) ٨٦ ، ٨٩
الوس ٢٣	انبذوشية (جزيرة) ٩٠
الاوزاعي (الفقيه) ٨٢	الاندلس ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٦
اوكلين ٢١٩	٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١١١
ايدمر التركي ١٦٩	١١٩ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤
ايران ١٠٠ ، ٢٢١ ، ٢٣٠	١٤٧ ، ١٨٧ ، ١٨٩
ايطالية ٢١٥ ، ٢٤٢	انس ١٧١
ايلة ٢٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٢١٨	الانصاري ، صرمة ٢٣
ايوب ٥٧	انطاكية ٤٦ ، ٧٩ ، ١١٠
	انكيجان (جبل) ٧٦

- ب -

بافريقين ٤٨	البابا ٨٠
بانياس ٧٧ ، ٧٨ ، ١٠٨	بابل ١١٠ ، ٢١٦
بجاية ٧٥ ، ٧٦ ، ١٧١ ، ١٧٢	باجة ٤١
البجة ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١١٠	باديس ٨٨
بجر نبطس ١٣٦	بارقولد ١٨
	الباسيليسة (مملكة) ٧٩ ، ٨٠

- ٢٥٥ -

- ب -

١٧٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،	البحرة ٢٦
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،	البحرين ٣٧ ، ٤٧ ، ١٣٧ ، ٢٢٣ ،
٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦	٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧
البطالسة ٢١٦	بخارى ٥٥ ، ١١١ ، ١٤٨ ، ١٥١ ،
بطرس ٨٠	١٨٧ ، ١٩٦
البطرني ، أحمد بن موسى ١٧٩	بدليس ٧٨
بطليموس ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٣١	البربري ، محمد بن محمد ١٢٧
٣٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١	بربوزا ، دوراتي ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
بظن مر ٢٦	برجان ١١١
بعلبك ٥٨ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ١١٣	برذعة ١١١
بغداد ١٩ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ،	برقة ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٩٠
٤٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ،	٩١ ، ٩٢ ، ١١٠
٦٦ ، ١١٠ ، ١٢١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،	برنسة ١١٧
١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٩٥ ،	برهان الدين بن الفرکاح
١٩٦	(انظر ابن الفرکاح ، برهان الدين)
البغدادی ٦٣ ، ١٥٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،	البريد ٦٦ ، ١٠٧
١٨٣	بريس ٨١
البكري ١٢ ، ١٣ ، ٦٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ،	بزاة ٢٥
١٢٤	بزرك بن شهر يار ١٣٥ ، ١٣٦
- ، غلام ١١٩	بسمد ١٤٠ ، ١٤٢
بلاساغون ١١١	البصرة ٢٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٥ ،
بلاشير ٨١	٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
بلخ ٣١ ، ٤٨ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١١٠ ،	١٣٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ،
١٥٨ ، ٢٢٠	

- ب -

البهاء زهير ١٦٩	البلخي ، ابوزيد احمد بن سهل ١٢ ،
البوكيرك ٢٤٣	٦٣ ، ٣٢ ، ٣١
بولاق ١٠٨	بلم ٤١
بولص ٨٠	البغار ١٢ ، ٤٨ ، ١٥١
بولية ٧٩	بلنيسة ١٦٧ ، ١٧٠
بيت لحم ٨١ ، ٨٢	بنت منجي ، زينب ٩٥
بيت المقدس ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٨١ ،	بنزرت ١٣٣
١٦٨ ، ١٢٣ ، ١١٠ ، ٨٣	البنغال ٢٤٥
بيربك ٢٤٣ ، ٢٤٦	بني اسرائيل ٨٣
بيروت ٨٢ ، ١٥٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،	بني ايوب ٩٢
٢٤١	بني حفص ٢٠١
بيزنطية ١٦١	بني العباس ١٤٢
بيسان ١٠٨	بني عبد الحق ١١٦
بيطو (بلاد) ٨١	بني مرين ١١٦
بهاء الدين شداد ١٨٢	بني يوحين ٨٩
	بنيامين
	(انظر التطلي ، بنيامين)

- ت -

تانة ١١٠ ، ١٣٨	تادلا ٨٩
تاهرت ٧٥ ، ٧٦ ، ١١٠	تادمكة ٤٢
التبابعة ٢٧	تاران ٣٦ ، ٣٧
تانس ١١٠	تاريخ اداب اللغة العربية ١٣
تبالة ١١٠	تازي ١٩٢

- ت -

التغزغز ١١١ ، ٤٨	التبت ٣٨ ، ٣٥
تقويم البلدان ١٢٨ ، ٧١	التجاني ، عبدالله ٢٠٢ ، ٢٠١ ، ٢٠٠
تل حسان ١١٠	٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤
تلمسان ١٧١ ، ٨٨ ، ٧٥ ، ٧٤ ، ٧١	٢١١ ، ٢٠٩
١٧٢	التجاني ، علي بن ابراهيم ١٧٧
التنبية والاشراف ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥	تحفة النظار في غرائب الامصار
تنيس (بحيرة) ٩٣	وعجائب الاسفار ١٨٨
تهامة ٢٦ ، ٢٣	تبريز ١٥٩
تهودا ٨٥	تبوك ٢٥
توران ١٠٠	تثقيف التعريف ١٠٤
توريز ١٠٠	تحفة الالباب ٤٣ ، ٤٥
تونس ٧٦ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٣	تدافان ٤٨
١٣٤ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤	تدمر ٧٨
١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩	تركستان ١٩٢ ، ٢٢٠
١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢	تركية ٢٤٦
٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢١١	التطيلي ، بنيامين ٢٣٠ ، ٢٣٤
التيه ١١٠	التعريف بالمصطلح الشريف ٩٨ ، ١٠٤

- ث -

الثغور ١١٠

- ج -

جابر ، احمد بن يحيى ٧٠ | الجاحظ ٤٧ ، ٥٥

ج -

الجرجاني ١٥٦	الجار ٢٦
الجرجانية ١٩٦ ، ١٩٧	جالوت ٥٧
الجزائر ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٧	جامع الزيتونة
جزيرة العرب ٥٣ ، ٥٥	(انظر الزيتونة ، جامع)
جعفر بن شمس ١٦٦	الجبال ٥٣ ، ٥٤
الجلالقة (بلاد) ١١١	جبل طارق
الجمال ٣٤	(انظر طارق ، جبل)
الجند ٦٦ ، ٧٠	جبل ٨٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠
جنديسابور ٤٨	جبيلات ٣٦ ، ٣٧
جنكيز خان ٦٢	الجحفة ٢٦
جنتابة ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨ ، ١١٠	جدة ٢٢ ، ١١٠ ، ١٦٢ ، ١٦٨
جنين ١٠٨	٢٤٢
جيحون (نهر) ٨١	جربة (جزيرة) ٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦
جيرون (جزيرة) ٢٤٠	جرجان ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٦

ح -

الحجاز ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٥٨	حاجة ١٧١
١٦٧ ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٣٧ ، ٧٩	الحاكم بامر الله ١٦٢
٢١٦ ، ٢١٥	حام بن نوح ١١٣
حداد ، عزرا ٢٣٤	حامد بن العباس ١٩٥
حديث السندباد القديم ١٥٠	حباشة ٦٢
الحديد ٤٣	الحبشة ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٣٧
حذيفة ٦٧	الحجار ، احمد ٩٥

- ح -

٢٤٢ ، ١٨٣ ، ١٧٠ ، ١٦٨	حزان ١٥٩ ، ٤٨
حلوان ١١٠ ، ٤٩	حسن ، زكي محمد ١٥٠
حمام ١٥٩ ، ١٠٠ ، ٧٨ ، ٧٣ ، ٤٧	حسن بلقاسم بن باديس ١٧٣
٢٤٢ ، ١٦٨ ، ١٦٠	الحسين ١٦٥
الحمام الرسائلي ١٠٨ ، ١٠٧	حصن ابن عمارة ٣٨
حزة ٦٩	الحضارة الاسلامية في القرن الرابع
حصص ١٦٨ ، ٧٨ ، ٧٠ ، ٥٧	الهجري ١٣
حبر ٢١٥ ، ٣٤	حضر موت ٢١٩ ، ٢١٥ ، ١٠٩
الخوراء ٢٦	الحفصيون ٢٠٠
حوراني ، جورج ٢٢٤	حلب ٦٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٤
الحولة ٥٨	

- خ -

خرنيز ٤٨	خارك ٣٦
خرنيز ١١١	خالد بن جنبه
الخزر ١٣٩ ، ٤٨ ، ٢٩	(انظر ابن جنبه خالد)
الخزرج ٢٣	خالد بن صفوان
الخزرجي ، احمد بن محمد ١٧٨	(انظر ابن صفوان خالد)
خسرو ، ناصري ١٦٠ ، ١٥٩ ، ١٥٨	خانقو ٢٣٣ ، ٢٢٨ ، ١٤٩ ، ١٠٩
٢٣١ ، ٢٣٠ ، ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٦١	خانقور ١٠٩
الخشبات ٣٦	خجنده ٥٥
الخشب ، يحيى ١٥٩ ، ١٥٨	الخزاج وصناعة الكتابة ١٢
الخطب الهروية ١٦٥	خراسان ١٠٠ ، ٦٦ ، ٤٧ ، ٤٥ ، ٢٨
	٢٣٦ ، ١٦٥ ، ١٥٩ ، ١٥٥

- خ -

خوارزم	٤٩ ، ٥٦ ، ٦٢ ، ١١١ ،
الخوارزمي	١٥١ ، ١٨٧ ، ١٩٦ ،
خوزستان	٣٧ ، ٣٨ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٩ ،

- د -

دارا	٢١٦
داود (الملك)	٤٦ ، ٥٧ ، ٨٣ ،
دجلة	٢٤ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب	١٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة	٩٨
الدرة اليتيمة	٣٦
درن (جبل)	٩٠
درنا (نهر)	٩١
دروة سربام	١١٧ ، ١١٨ ،
دورق	٢٣٥
الدكالي ، سعيد	١١٨
دمر (جبل)	٩٠
دمشق	١٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٠ ،
دجلة	٢٤ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب	١٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة	٩٨
الدرة اليتيمة	٣٦
درن (جبل)	٩٠
درنا (نهر)	٩١
دروة سربام	١١٧ ، ١١٨ ،
دورق	٢٣٥
الدكالي ، سعيد	١١٨
دمياط	٥٩ ، ٩٣ ، ١١٨ ،
دنقلة	١٠٩ ، ١١٧ ،
الدهان ، محمد سامي	١٩٦ ، ١٩٧ ،
دي مينار ، باريه	١٥٤
الديبل	٣٥ ، ٣٨ ، ١١٠ ، ١٤٠ ، ١٤٣ ،
الدينور	٥٥

- ذ -

الذهبي ٩٨

- ر -

راحيل (ام يوسف وام ابن يامن) ٥٧ | رأس الرجاء الصالح ٢٤٠

- ٢٦١ -

- ر -

دير الرصافة ١٢٢	الراشدون ، الخلفاء ٢٢٣
الرقعة ٥٨ ، ٥٥	رافع بن عبادة
الرملة ٥٣ ، ٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠	(انظر ابن عبادة ، رافع)
رواد الشرق العربي في القرون الوسطى	الرباط ٨٨
١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦٩	رباط البرليس ٩٣
رؤبة بن يحنه	الرحالة العرب ١٢ ، ١٣ ، ١٧٣ ، ١٨٩
(انظر ابن يحنه ، رؤبة)	الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ١٥٠
روجر الثاني ١٤	الرحاب ٥٣ ، ٥٤
الرور ١٤٠ ، ١٤٢	رحلة ابن جبير ١٦ ، ١٦٩
الروس ٨٠	رحلة بنيامين ٢٣٤
الروسية ١٩٨	رحلة التجاني ٢١١
الروض الأنف ١١٢	رسالة ابن فضلان ١٥١ ، ١٩٥
الروض المعطار ١٢٤ ، ١٢٨	الرستاق ٦٦ ، ٦٩
الرومان ٢١٦ ، ٢١٧	رسم المعمور من الارض ١٧ ، ١٨
رومة ٢١٧ ، ٢١٩	الرسول (صلعم) ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ١٠٧ ، ٣٧
الري ٤٦ ، ٥٥ ، ١١٠ ، ١٥٩	الرصافة ٤٠
الريديشار (ملك) ٧٩	
ريكاردوس ١٦٤	
رينال ، الأب ٢٤١	

- ز -

زغروس (جبال) ٢٢٠	الزاوي ، عيسى ١١٦
زغوان ١٧٤ ، ١٧٥	الزط ٣٨

- ٢٦٢ -

- ز -

الزيتونة ، جامع ١٧٤	زكريا ٥٧
زيدان ، جرجي ١٣	زلة ٧٢
زيلع ٣٩	الزهراء ٤١
زينب بنت منجي	زويلة ٧٢ ، ٧١
(انظر بنت منجي ، زينب)	زيادة الله بن الاغلب
	(انظر ابن الاغلب ، زيادة الله)

- س -

سرقسطة ١٢٠	سام بن نوح ٢٧
سرنديب ٤٨ ، ٣٦ ، ١٠٩ ، ١٥٣	سبا ٢١٥
السريز ١١١ ، ١٣٩	سبت ٤٩
سطيف ٧٦	سبنة ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨
سعيد بن المسيب	٢٠٣
(انظر ابن المسيب ، سعيد)	سبرنغر ١٥٤
سفاقس ١٣١ ، ٢٠٣	سبو (نهر) ٨٩
(صفاقس ٢٠٥)	سترايو ٢١٨
سفرجل ٤٩	سجستان ٤٨ ، ١١٠
سفرنامة ١٥٨ ، ١٥٩	سجلهاسة ٤٢ ، ٨٤ ، ١٢٥
السقيا ٢٦	سراي ١٠٠
سلا ٨٤ ، ٨٩ ، ١٢٩	سرت ٧١
السلجقة ١٥٨ ، ١٥٩	سحرته ١١٧
سليمان بن داود ٥٧ ، ٨٣ ، ١١٢	السخاوي ، علم الدين ١٨٠
سمرقند ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١١١	سردانية ٧٥

— س —

السوس ٤٨ ، ١١٠	١١٣ ، ١١٤ ، ١٤٨ ، ٢٢٠
سوسة ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٠٣	سمقرة ١١٦ ، ١١٧
سوسه ، فريا ٢٤٣ ، ٢٤٦	السمور ٨٠
السويدية ٧٩	السند ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨
السويس ٢١٧	٥٣ ، ٥٥ ، ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧
سيرا ف ٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٤٨	١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٥٥
١٤٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥	٢٢٧
٢٣٨	مدغشقر ٢٢٧
السيرافي ، سليمان ١٤٨ ، ٢٢٤	سندان ١١٠ ، ١٣٨
سيف بن ذي يزن	السهيلي ١١٢
(انظر ابن ذي يزن ، سيف)	السوار ٤٨
سيف فارس ٣٥	السودان ٤٢ ، ٧٢ ، ١٠٩ ، ١١٦
السيق (دير) ١٢٣	١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٥ ، ١٨٧ ، ١٨٩
سيلوس ٢١٧	١٩٣
السيوطي ٦٥	سورية ١٥٩ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٨١
السيائي ، ياسين ١٨٢	٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٦

— ش —

الشاطي ، ابو القاسم ١٨٠	الشابشتي ١٢١
الشام ١٦ ، ٢٥ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٤٨	الشابل (نهر) ٨٦
٤٩ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١	الشاش ١١١
٦٦ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٤	الشارعي ، ابو القاسم ١٨٢

- ش -

شعب بران ١١٤	١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣١
شعب ٢٦	١٣١ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٨٨
الشمس ٤٧	١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٣
شهاب الدين ابن الجهد	١٩٣ ، ١٩٢
(انظر ابن الجهد ، شهاب الدين)	شيام ٣٠ ، ٢٩
شهرستان ٦٩	الشعر (بلاد) ٢٤٤
الشوبك ٧٩	شعر ٢٤٤
شيخو ، لويس ٨٢ ، ٨٤ ، ٧٧	شرف البعل ٢٥
شيراز ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤	شروان ٤٩
شيمي (مدينة) ١١٧	الشريف ابن ثعلب
شينيز ٣٨	(انظر ابن ثعلب ، الشريف)

- ص -

صقلية ٤١ ، ٩٠ ، ١١٠ ، ١٦١ ، ١٦٣	صبح الاعشى ١٣ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٤
١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٦٩	١٢٤ ، ١٠٩ ، ١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٢٤
الصلا ٢٦	صحار ٥٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٤
صلاح الدين ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٨١ ، ١٨٢	صحيح مسلم ٢١٠
الصليبيون ١٦٥ ، ١٦٨	الصغانيان ٥٥
صليق ٥٦	صفد ٥٥ ، ٥٦ ، ١١٣
صنعاء ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١٠٩ ، ١١٢	صفد سمرقند ١١٣ ، ١١٤
١١٣	صفة جزيرة العرب ١٢
الصنمين ١٠٨	الصقالبة ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٨

- ص -

الصين : ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ،	صور ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٨ ،
٤٥ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٣٧ ،	٢٢٠ ، ٢١٩ ، ١٩١
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،	صورة الارض ١٢ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٣٩ ،
١٨٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،	١٣٥
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،	الصولي ١٥٦
٢٣٣	صيدا ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٢٠ ،
	صيمور ١١٠ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

- ط -

طروطوشة ٧٥	طارق (جبل) ٨٧
طرف الاغر ٨٦	الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء
طرسوس ١١٠	والرواة باعلى النيل ٩٥
طنجة ٤٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٧ ، ١١٠ ،	طبرستان ٤٩ ، ٦٩
١٨٧ ، ١٨٩	طبرق ٩٢
طنطنة (جبل) ٧١	طبرقة ٤١ ، ١٣٣ ، ١٣٤
الطسوج ٦٦ ، ٧٠	الطبري ١٥٦ ، ٢٢٣
طليثا ٧٧ ، ٩١	طبرية ٥٢ ، ٥٧ ، ١٥٩
الطور (جبل) ٣٧	طخارستان ٤٨ ، ١١٠
طوس ٤٦ ، ٤٩	طرابلس (الشام) ٩٥ ، ١٢٤ ،
الطوفان ٢٧	١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٤١ ، ٢٤٦
	طرابلس (ليبيا) ٣٣ ، ٩٩ ، ٢٠١ ،
	٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ .

- ٢٦٦ -

- ظ -

ظفار ٤٨ ، ١٠٩ ، ٢١٥	الظاهر (الملك) ١٠٨
ظفار الحموض ٢٣٧	ظبة ٢٦
	الظبي ٤٧

- ع -

عسقلان ٥٢ ، ٥٧ ، ١٦٥	العاصي ٧٨
عسكر بن ابراهيم ٦١ ، ٦٢	عبادان ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
العقبة ٧١ ، ٩٢ ، ٢١٨	عبد الجليل بن وهبون
عقيق ٤٨	(انظر ابن وهبون ، عبد الجليل)
عكا ٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٨	عبد الله ابن الجنيد ١٣٧
المكبري ٦٢	عبد الوهاب ، حسن حسني ٢٠٢ ، ٢١١
علي (الخليفة) ٢٩	العبدري ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦
علي بن يوسف بن تاشفين	١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ٢٠١
(انظر ابن تاشفين ، علي ابن يوسف)	عثمان بن عفان ٢٥ ، ٥٧ ، ١١٣
علي يعقوب بن احمد بن الصابوني	عدة المستنجز وعقلة المستوفز ١٧٠
(انظر ابن الصابوني ، علي يعقوب بن احمد)	عدن ٣٦ ، ٣٩ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ٢١٨
العلوي ، العباس بن الفضل ٢٣	العراق ١٩ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٤
عمان ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٧	٦٩ ، ٨٥ ، ١٠٠ ، ١٤٠ ، ١٤٩
٤٨ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ١١٠ ، ١٣٧	١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٨٣ ، ١٩٢
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٩٠ ، ٢٢٥	٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦	العريش ١٠٨
٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤	المريزي ٧٧ ، ٧٨
عمر (الخليفة) ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٧	عسفان ٢٦

- ٢٦٧ -

- ع -

عذاب ٣٥ ، ٣٨ ، ١٦٢ ، ١٦٨	العمرى ابن فضل الله ١٣ ، ٩٤ ، ٩٨
عيسى ٥٧ ، ٨٠	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١٢٤
عينونا ٢٦	

- غ -

الغزية ١٩٧	غالوس ٢١٧
غسان الحكيم ٥٨	غانة ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٩
غمدان ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ١١٢	غدامس ٧١
غوا ٢٤٦	غرناطة ٨٨ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤
الغور ١١٠	الغرناطي ، ابو أحمد الاندلسي ٤٣ ، ٤٥
غوطة دمشق ٨٢ ، ١١٤ ، ١١٥	الغزالي ، ابي حامد ٢١٠
الغيوث الهوامع ١٠٣	غزة ٢١٦ ، ٢٢٠

- ف -

فاس ٤٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٩ ، ١٤٨ ، ١٩٢ ، ١٨٩	فارتما ، لودفيكو دي ٢٤١ ، ٢٤٢
الفتح بن خاقان	فارس ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٣
(انظر ابن خاقان ، الفتح)	٥٥ ، ١١٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٣
فتش ، رالف ٢٤٣ ، ٢٤٦	١٥٨ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨
الفرات ٢٤٦	٢٣٦ ، ٢٣٨
فرس نامه ٢٣٥	فازاز (جبال) ٨٩

- ف -

فلسطين ١٦ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٧٠ ،	الفرما ٢٤
١١٠ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧١	فزان ٧١ ، ٤٣
الفلوجة ٢٤٦	الفرس ٦٦
الفهرست ١٥٣	الفرسخ ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨
قوات الوقيات ١٥٢	الفرسك ٢٨ ، ٣٤
فوزي ، حسين ١٤٩ ، ١٥٠	فرعون ٣٦
الفولغا ١٩٦	فرغانة ١١١ ، ٥٦
الفيوم ١١٧	القسطاط ٣٣ ، ٣٧ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩
	١١٨ ، ١٥٣

- ق -

قحطان ٦٩	قابس ٧١ ، ٩٠ ، ١٣١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤
قدامة بن جعفر	٢٠٥ ، ٢٠٦
(انظر ابن جعفر ، قدامة)	قادس ٨٧
القدس ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٨١ ،	قازان ١٩٥
١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢١٦ ، ٢١٧	قاقولي (جبل) ١١٦
قديد ٢٦	قاقون ١٠٨
قرطبة ٤٠ ، ٤١ ، ١١٩	قالس ٢٦
قرطبنة ١٣٣ ، ١٧٥	قالقوط ٢٣٧
قرقشة (جزيرة) ٤١ ، ٢٠٦	القاسرة ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٤٨
القريات ٢٤٤	١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،
قريش ٨٥ ، ١٤٠ ، ١٤٧	١٨٣ ، ١٨٨ ، ٢٤١
قزدار ١١٠	قبرس (جزيرة) ١١٠

- و -

أحمد ١٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨	القزويني ٨٣
١٢٥	القسطنطينية ٢٤ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٧٩
قلبات ١٩١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤	٨٠ ، ٨١ ، ١١١ ، ١٦٣ ، ١٨٧
قليوب ١٠٣	قسطنطينية ٧٥ ، ٧٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣
قم ١١٠	القسبي ١٧٩
قلسرين ٧٠	قشمير (جبال) ١١٠
القندهار ١١٠	قطيا ١٠٨
قوص ١١٠ ، ١١٧ ، ١٦٨	القطيف ٧٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٨
قوطا (دير) ١٢١	٢٤٣
القيروان ٣٣ ، ٣٤ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٦	قلبتو ١١٧
١٣٢ ، ١٣١ ، ٧٧	القازم ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
قيس (جزيرة) ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦	٣٨ ، ١١٠ ، ١٣٧ ، ١٥٦
٢٤٠	قلفرية (بلاد) ٧٩
قيسارية ٥٥ ، ١٥٩	قلقشند ١٠٣
	القلقشندي ، ابي العباس شهاب الدين

- ك -

کردستان ١٨٧	كابل ١١٠
كرمان ٣٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٥	كاشغر ١١١
٢٣٥ ، ١٣٧ ، ١١٠	كان ينغ ٢٢١
الكمال بن يونس ١٨١	كتاب الاشكال او صورة الاقاليم ٣١
كمال الدين ابن العميد	كتاب البلدان ١٧ ، ١٩ ، ٢٥
(انظر ابن العميد ، كمال الدين)	كتامة (قبائل) ٧٦
كمال الدين ابن القاضي	الكتبي ، ابن شاكر ١٥٢
(انظر ابن القاضي ، كمال الدين)	

- ك -

الكندي ١٧ ، ١٨	كسرى ٢٣
الكورة ٦٦ ، ٦٨	كشم (جزيرة) ٦١ ، ٢٤٦
الكوفة ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ١١٠ ، ١٦٨	الكعبة ٤٧ ، ٥٧
كومنينوس ، عما نؤيل ١٦٣	كلا ١٤٩
الكياك ١١١	كنتون ١٤٩ ، ٢٣٣

- ل -

لوط ٥٧	لبدة ٩٠
لوقير ٢٣٣	لبست ٤٦
لوكي كومي ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩	لبنان ٥٢ ، ٨٢ ، ١٦٣ ، ٢٤٦
لنجبالوس (جزائر) ١٥٠	اللذ ١٠٨
اللؤلؤ ٢٦ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٨	لقمان ٥٧
ليبيا ٣٣ ، ١٧١ ، ١٨٧	لطة ٤٢

- م -

المجسطي ٦٧	ماركوبولو ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢
المجلة الزيتونية ١٧٦ ، ١٨٠	مارين ١٠٠
المجمع العلمي العربي ١٩٧	مازنقان ٨٥
محمد ٥٧ ، ١٠٧	ماسكان ٤٨
المحيط (البحر) ٨١ ، ٨٤ ، ١٠٩	المأمون ١٨
١١٠ ، ١١١ ، ١١٧	متر ، ادم ١٣
مخا ٢١٩	المتوكل ١٢٢ ، ١٢٣

١٣٥ ، ٣٥ ، ٣٢ ، ١١	مسالك الممالك	٦٥	مختصر معجم البلدان
١٣	مسالك الابصار في ممالك الامصار	٦٨ ، ٦٦	المخلاف
١١٨ ، ١١٥ ، ١٠٣ ، ١٠٢ ، ٩٨ ، ٩٤			مخلد بن كيداد
١٢٥		(انظر ابن كيداد ، مخلد)	
٢١ ، ١٨ ، ١٧ ، ١١	المسالك والممالك	٢٣٠	المدائن
٣١ ، ٢٢		١٢٥	مدرار بن عبدالله
	مستغانم ٩٠	١٥٣	مدغشقر
	المستنصر ، ابي عبدالله ١٧٠	٣٧ ، ٢٦	مدين
	المسجد الاقصى ٥٤ ، ٥٧ ، ١٦٠	١٨٨ ، ١٦٨ ، ١١٠ ، ٤٧	المدينة ٢٣ ، ٤٧
١٨٣ ، ١٦٦		٨٩	مديونة (جبل)
١٤٢ ، ١٣٧ ، ١٣٦ ، ١١٨	المسعودي	٤٨	مرجان
١٤٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١		٩٢ ، ٨٦ ، ٨٤ ، ٧٣ ، ٧١	مراكش
١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦		١٧١ ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٢٦	
٢٢٨ ، ٢٢٤		١١٧	مركة
٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ ، ١٢٧	مسقط	١٦٣ ، ١٥٩ ، ٦٢ ، ٥٥ ، ٤٨	مرو
٨٢ ، ٨١ ، ٥٧	المسيح ، السيد	٢٢٠	
	مسيلا ٧٦		المروة ٥٥
	المشرق في حلى المشرق ١٧٠	١٥٤ ، ١٥٣ ، ١٣٧	مروج الذهب
٣٧ ، ٣٥ ، ٣٣ ، ٢٦ ، ٢٥ ، ١٦	مصر	١٥٦ ، ١٥٥	
٥٥ ، ٥٣ ، ٤٨ ، ٤٥ ، ٤٢ ، ٣٩ ، ٣٨		٢٣٤ ، ٢٣٣ ، ٢٣٠	المروزي
٩٤ ، ٩٣ ، ٩٢ ، ٨٢ ، ٧٩ ، ٦٢ ، ٥٦		٥٧	مريم
١٠٨ ، ١٠٧ ، ١٠٣ ، ١٠٠ ، ٩٨		٧٥	مزغتنان
		١٢٩	جزائر بني مزغنان

- ٢ -

١٦٢، ١٥٩، ١٤٧، ١١٠، ٦٨، ٦٦	١٣٠، ١٢٩، ١٢٠، ١١٥، ١١٠
٢٤٢، ١٨٨، ١٧١، ١٦٨، ١٦٣	١٦٦، ١٦٣، ١٦٢، ١٥٩، ١٤٣
مكناسة ٨٩، ٨٥	١٨٤، ١٨٣، ١٨٢، ١٨١، ١٧٠
الملتان ٣٥، ٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢	١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٢، ٢٤١
١٥٣	المطيع لله العباسي ١٥٤
المولتان ١١٠	المطيلب ١٠٨
ملطية ٨٣، ٨٤	معجم البلدان ١٣، ٦٢، ٦٥، ٧٠
الملفجوط (بلاد) ٨٠	١٩٦، ٢٣١، ٢٣٥
ملوية (نهر) ٨٨، ٨٩	معجم ما استعجم ١٣
مليلة ٨٨	المعرة ١٥٩، ١٦٠
الماليك ٩٤، ١٦٩، ٢٤٢	المعز العبيدي ٩٣
منازل الارض ذات الطول والعرض ١٦٥	مفاس اللؤلؤ ٢٣٧
منبج ١١٠، ١٥٩، ١٦٣	مفاس الجواهر ٢٣٨
منتخبات من اثار الجغرافيين في القرون	المغرب في حلى المغرب ١٦٩، ١٧٠
الوسطى ٨١	المقيثة ٢٦
منخوس ٢٦	المقتدر ١٩٥
المنصورة ٣٨، ٩٣، ١١٠، ١٤٠	المقدسي، ابوالحسن بن أبي الفضل ١٨٠
١٤٣، ١٤٢	المقدسي، شمس الدين ١٢، ١٤، ١٦
المهديّة ١٣٢، ٢٠٣	٣١، ٣٢، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٤
مهران (نهر) ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣	٦٣، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٢
مهربان ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٢٣٣، ٢٣٥	١٤٣، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٧
المهلي ٦٣	المقريري ١٧٠
الموحدون ٢٠٨	مكة ٢٥، ٢٦، ٤٧، ٥٢، ٥٥
موسى ٥٧	

- ٢٧٣ -

— م —

ميافارقين ١١١ ، ١٥٩	موسى بن نصير
ميس تيتانوس ٢٢١	(انظر ابن نصير ، موسى)
الميل ٦٨ ، ٦٧ ، ٦٦	الموصل ٤٧ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ١١٠ ، ١٦٨
ميلر ١٤	١٧٠
ميوس هرموس ٢١٨	موقان ٥٦

— ن —

نهاية الارب في فنون الدرب ١٣ ، ٩٤	نابلس ٥٨
١٠٩ ، ٩٧ ، ٩٥	الناصر (السلطان) ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٧٠
نهاية الارب في معرفة قبائل العرب ١٠٣	الناصرية (الدولة) ١٠٨
النوبة ٣٩ ، ٣٨ ، ٣٥	النبك ٢٦ ، ١٦٨
نورونه ، الفارودو ٢٤٦	نجران ١١٠ ، ٢١٧
النويري ، شهاب الدين احمد ١٣ ، ٩٤	نزعة المشتاق في اختراق الافاق ١٤ ،
٩٧ ، ٩٥	٧١ ، ٧٦ ، ٨١
نيسابور ٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ١٥٩	نقطويه ١٥٦
١٩٦	نفوسة (جبل) ٩٠
النيل ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١١٦	نهاوند ٤٩ ، ٥٥
١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٦٥ ، ٢١٦	

— ه —

هبالوس ٢١٨	هبار بن الاسود
هجر ١١٠	(انظر ابن الاسود ، هبار)

— ٢٧٤ —

- ه -

الهند ١٢ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٨	هراة ٤٨ ، ٤٩ ، ١١٠
٤٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٨٧ ، ١١٠	هرمز ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١
١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٩	٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧
١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٣	هرموز ٣٨ ، ٣٥
٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣	الهروي ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦	١٦٦
٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦	هشام بن عبد الملك ١٢٢
هواره ٨٥	همدان ٥٥ ، ١١٠ ، ٢٢٠
هيرودس ٢١٧	الهمداني ١٢

- و -

وسلات (جبل) ٧١	وائل بن حمير بن سبا بن يعرف ١١٣
الوشق ٨٠	واسط ٤٧
وليم الثاني ١٦٩	وخان ١١٠
وهران ٧١ ، ٧٥	ودان ٧١ ، ٧٢

- لا -

اللان ١١١ ، ١٣٩

- ي -

ياقوت الحموي ، شهاب الدين ١٣ ، ٦١	ياجوج ١١١
-----------------------------------	-----------

- ى -

اليامة ٥٨ ، ٦٩	٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ١٥١ ،
اليمن ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩	١٩٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٠٩ ،	يثرب ٢٣
١١٢ ، ١٣٧ ، ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ،	يحيى ٥٧
١٦٥ ، ١٩٢ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ،	يزيد بن الاسود
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٤٢ ،	(انظر ابن الاسود ، يزيد)
اليهود ٣٤ ، ٣٧ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٧ ،	يستراء (بحيرة) ٩٣
٩١ ، ١٣١ ،	يعرب بن قحطان
يوسف (عليه السلام) ١١٧	(انظر ابن قحطان ، يعرب)
يوسف بن تاشفين	يعقوب ٥٧ ، ٨١
(انظر ابن تاشفين ، يوسف)	يعقوب بن عبد المؤمن ١٢٦ ، ١٢٧ ،
اليونان ١٧ ، ٤٨	اليعقوبي ، احمد بن أبي يعقوب ١٧ ،
	١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٢٣ ،

